

أُسْلوبُ التَعقيبِ في القُرآنِ الكَرِيم

تأليف

د. محمد كريم الكواز

منشورات جامعة السابع من أبريل



أُسْلوبُ التَعقيبِ في القُرآنِ الكَرِيم

تـأليف

د. محمّد كريم الكواز

منشورات جامعة السّابع من أبريل

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية / بنغازي

1860

الطبعة الأولى

1425 ميلادي

جامعة السابع من أبريل

هاتف: 023/24033 ـ بريد مصور: 021/4449089 ـ ص. ب: 16418 الزاوية

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

المقدمة

القرآن الكريم مسؤولية مفروضة على المؤمنين به كتاباً مرسلاً من السماء إلى أهل الأرض. وقد كان من ملامح تلك المسؤولية أن أفرغت الثقافة العربية الإسلامية، على مر العصور، جهدها في القرآن تفسيراً وبحثاً وتأملاً، فأشرقت في سماء الحضارة العربية أسماء ومؤلفات، أسهمت في إيضاح الطريق إلى المعجزة الخالدة، أو حاولت أن تفكَّ أسرارها بما تهيّأ لها من أدوات.

ولو استعرضنا المكتبة القرآنية لوجدنا أنها تشكل صورة لمناحي التفكير العربي الإسلامي، منذ أن سمعت أرض العرب كلام الله، يناديها للخروج من ليل الضلال إلى نهار الهداية.

وتظل ثنائية الثقافة/القرآن قائمة في عصرنا الحاضر، فما زالت الأسماء تتكاثر، والمؤلفات تزدحم، وما انفكَّ العقل العربي يجيب على أسئلته أمام القرآن بما يتجدد من أدوات.

هذا بحث يحاول أن يجد له مكاناً في مسيرة الدراسة القرآنية، زاعماً الكشف عن منطقة لم تصل إليها أقلام الباحثين بعدُ، تلك هي أسلوب التعقيب في القرآن. والتعقيب نمط تعبيري خاص بالقرآن، يجسّم الحكم الإلهي على قضية من القضايا المطروحة في السورة، وله ارتباط متفاعل مع القضية؛ لهذا تشكل معها على هيئات مختلفة، اقتضت؛ بالضرورة، انتاج دلالات مختلفة. وتبني القضية وتعقيبها ضمن البناء العام للسورة، بما يحدد ملامح مستقلة لكل سورة.

اقتضت طبيعة الموضوع التمهيد من أجل تأسيس دلالة المصطلح، إذ لم نجد من اصطلح عليه كما فعلنا، فكان لزاماً بسط الدلالة وتوضيحها قبل الدخول إلى صلب البحث.

ونظرنا إلى السورة فكانت مؤلفة من مجموعة قضايا أو موضوعات، صغيرة أو كبيرة، منسجمة في سياقها تركيباً ودلالة، مردفة بتعقيب خاص بها، هو بمثابة نتيجة القضية، صادر من الله سبحانه وتعالى. أي أن التعقيب هو الحكم الإلهي على كل قضية. وهكذا تسنّى لنا أن نصنّف السورَ فئاتٍ، بحسب التعقيب الذي تتبعه في القرآن، فكانت فئة السور ذات التعقيب المتكرر، كسورة الشعراء والمرسلات والرحمن. وفئة السور ذات التعقيب الغالب كسورة الصافات والروم والحج. والسور ذات التعقيب المتنوع كسورة المؤمنون والواقعة. وهذا ماتكفل به مبحث (التعقيب والسورة).

والقضية القرآنية لاتتحدد بعدد معين من الآيات، فمنها ماكان، مع التعقيب، آية واحدة، ومنها ماكان أكثر من ذلك. فقسّمنا القضايا على نوعين: قضايا صغيرة وقضايا كبيرة. ثم إن الغالب على قضايا القرآن أن تُعقّب بتعقيب واحد، ولكن هناك قضايا كان لها أكثر من تعقيب. وهذا الأمر منوط بأهمية القضية، ونسقها في السياق، ويشير من جانب آخر إلى طبيعة القضية وخصوصيتها.

ولرسم الإطار العام الذي تتحرك فيه القضية في القرآن اخترنا قضية الجنة والنار، لأنها استأثرت بنصيب موفور من مساحة التعبير القرآني، وهي على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة إلى العقيدة الإسلامية التي سعى القرآن إلى ترسيخها في نفوس الناس، وهي قضية مستقبلية، بمعنى أن القرآن هو الذي بناها، وأقامها ركناً متيناً، ولمّا تقع على أرض الوجود الإنساني. واخترنا كذلك، قضية عاد لأنها تمثل نموذجاً من نماذج ماضية، أفاد القرآن منها في توضيح آلية دعوة الإسلام، وفيها الخطوط الرئيسة لكل رسالة سماوية: دعوة الرسول إلى التوحيد،

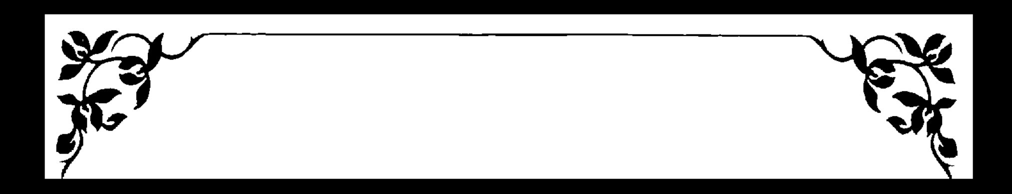
وتذكيره بالنعم، وتفرق الناس إلى مؤمنين وكافرين ثم النهاية بالعقاب والثواب. وهذا ماكان من نصيب مبحث (التعقيب والقضية).

أما تحليل التعقيب نفسه فكان في القسم الثاني من البحث (التعقيب والتركيب والدلالة) الذي امتزج فيه المنهج البلاغي والنحوي، وهما فرعان لأصل واحد، فتسلسل البحث على وفق ما يبدأ به التعقيب من دلالة، فكانت الدلالة هادية في طريق التحليل الوصفي، وهذه ضرورة أملتها طبيعة التعقيب الذي اتسم بدلالات مختلفة. استغرق هذا القسم نصف البحث، ذلك لسعة اسلوب التعقيب نفسه، وتعدد تراكيبه، واختلاف دلالاته.

بدأنا، في منهجنا العام، بالكل، وهو تحليل السورة لرصد تعقيباتها، وانتهينا إلى الجزء، وهو تحليل التركيب نفسه، ليتسنى لنا الإحاطة بالظاهرة المدروسة، وإنزالها منزلها الطبيعي في كلية القرآن.

وماكان لهذا البحث أن يرى النور لولا الجهود السخية التي بذلها الأخ الأستاذ محمد القزدار مراقب عام المكتبات والنشر بجامعة السابع من أبريل، وماكان له أن يستوي على شكله الحالي لولا الخبرة العلمية التي تجسدت في ملاحظات قيمة تفضّل بها الأخوة د.حازم الحلي ود. صالح هويدي ود. عبدالله ابراهيم، فلهؤلاء، ولكل من أسهم في إخراجه كتاباً بين يدي القارئ– نقدم آيات الشكر والعرفان بالجميل، ونرجو أن نكون قد قدّمنا صورة واضحة لناحية من نواحي الأسلوب المعجز، و لله، وحده، الكمال.

المؤلف



التمهيد

تأسيس المصطلح




التمهيد: تأسيس المصطلح

لعل من الضرورة توضيح المقصود بالتعقيب، لاسيما ونحن نشرع في بحثه أسلوباً من أساليب القرآن الكريم، يدفعنا إلى ذلك الحاجة إلى ايجاد دالّ لِمَا استقرّ في أذهاننا من مدلول، قضينا زمناً في تدبّره ومراقبتهِ، وهو يشغل مساحة واسعة من التعبير القرآني.

التعقيب لغةً:

التعقيب في اللغة صلة بين أمرين، وعلاقة تربط بينهما بوجوه شتى بحسب الاستعمال اللغوي، فعَقِب الرجل: وَلَدهُ وولْد ولدِهِ الباقون من بعده(1). وعقب هذا هذا: إذا جاء بعده، وبقي من الأول شيء(2).

والصلة بين الرجل وولده، وبين الشيء وآخره واضحة مبيُّنة شدَّةَ الترابط ومتانة العلاقة، لأن في الثاني شيئاً من الأول يفضي إليه ويربطه به.

وكذا التعقيب الذي يعني انصرافك راجعاً من أمر أردته(3). وقد يعني الجلوس بعد الصلاة للدعاء، أو لانتظار صلاة أخرى، ومن هذا قولهم: تعقّبت ماصنع فلان: أي تتبعته(4). وفيه مافي العقب من علاقة وصلة بين أمرين.

وقد استعمل القرآن الكريم من الأصل اللغوي (مُعقّبات) في قوله تعالى: ﴿سواءٌ منكم مَن أسرَّ القولَ ومَن جهرَ به ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار. له مُعقّباتٌ مِن بين يديهِ ومِن خلفِهِ يحفظونه من أمر الله...﴾ الرعد/10-11.

والمعقّبات جماعات من الملائكة متناوبات، يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلاً منه، أو هي ملائكة الليل والنهار يتعاقبون(5).

وكذلك (معقّب) في قوله تعالى:

﴿أَوَ لم يروا أنّا نأتي الأرضَ ننقصها مِن أطرافِها والله يحكُمُ لامعقّب لحكمه وهو سريع الحساب﴾ الرعد/41.

والمعقّب من يكرُّ على الشيء فيبطله، ويقفّيه بالرّد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقّب، لأنه يقفّي غريمه بالاقتضاء والطلب، فيكون معنى (لامعقب لحكمه): لارادّ لحكمه(6).

و(يعقّب) في قوله تعالى، في قصة موسى:

﴿وألقِ عصاك فلمّا رآها تهتزُّ كأنّها جانٌّ ولّى مدبراً و لم يعقّبْ ياموسى لاتخفْ إني لايخافُ لديَّ المرسلون﴾ النمل/10.

و(لم يعقب): لم يرجع، وكل راجع معقّب، والمفسرون يقولون: لم يلتفت. فقال تعالى: ﴿ياموسى لاتخف...﴾(7).

إن الحاصل من وجوه الأصل اللغوي للتعقيب، والاستعمال القرآني له أنّه صلة وعلاقة بين أمرين متناسبين. ولكن الدلالة الاصطلاحية للتعقيب تظل غامضة إذا لم ننتقل إلى واقع الدرس القرآني، حيث نشأ المصطلح، أو حيث جهدنا إلى دراسته وتحليله، وتأسيس دلالته. ونضرب لما نريدُ مثلاً قولَه تعالى في أوائل سورة البقرة:

﴿ألم.

ذلك الكتابُ لاريبَ فيهِ هدى للمتقين.

الذين يؤمنونَ بالغيبِ ويقيمون الصلاةَ وممّا رزقناهم يُنفقون.

والذين يؤمنونَ بما أُنزلَ إليكَ وماأُنزلَ من قبلِكَ وبالآخرةِ هم يُوقنون.

أولئك على هدى من ربهم وأولئكَ هم المفلحون﴾ البقرة/1–5.

فقد وصف سبحانه، المتقين بأوصاف متعددة، ثم حكم لهم بجزاء تحلّيهم بتلك الأوصاف، فقال:

﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

فصار الحكم تعقيباً، ونستطيع الآن أن نقول: إن الأوصاف بمنزلة القضية والتعقيب حكم عليها.

ومثلها قضية الكافرين في قوله تعالى بعدُ:

﴿إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتَهم أم لم تنذرْهم لايؤمنون. خَتَمَ اللهُ على قلوبهم وعلى سمعِهم وعلى أبصارِهم غشاوةٌ ولهم عذاب عظيم﴾ البقرة/ 6–7.

فحين أخبرَ –سبحانه– عن الكافرين بأنهم لايؤمنون، سواء حصل إنذارهم أم لم يحصل، وبأنهم كالمختوم على قلوبهم وسمعهم، المغشيّ على أبصارهم جراء إعراضهم عن الحق، عقّب ذلك بجزائهم وهو ﴿ولهم عذاب عظيم﴾.

ومثلها قضية المنافقين في ثلاث عشرة آية من قوله تعالى:

﴿ومن الناسِ مَنْ يقولُ آمنا بالله وباليومِ الآخرِ وماهم بمومنين﴾ إلى قوله تعالى:

﴿يكادُ البرقُ يخطفُ أبصارَهم كلّما أضاءَ لهم مشوا فيه وإذا أظلمَ عليهم قاموا ولو شاءَ اللهُ لذهبَ بسمعِهم وأبصارِهم إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير﴾ البقرة/8–20.

فقد نعى سبحانه عليهم خبثهم ومكرهم، وفضحهم وسفههم واستجهلهم واستهزأ بهم وتهكّم بفعلهم وسجّل طغيانهم وعمههم، ودعاهم صُمّاً بُكما عُمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة(8). ثم عقّب قضيتهم بقوله تعالى: ﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾ وهو وعيد لهم، وبيان لقدرته على كل شيء(9).

فالتعقيب إذن، نتيجة قضية، وحكم عليها، أصدره الله سبحانه وتعالى، وليس منه التعقيب الصادر عن غير الله –جلّ وعلا– كقول شعيب الذي جاء في قوله تعالى:

﴿فتولّى عنهم وقال ياقومي لقد أبلغتُكم رسالاتِ ربي ونصحتُ لكم فكيف آسى على قوم كافرين) الأعراف/93.

أي أنّ ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ ليس من التعقيب الذي نحن بصدده، لأنه حكم لم يصدر عن الله سبحانه. وليس من التعقيب، كذلك، قول الملائكة: ﴿إنك أنتَ العليم الحكيم﴾ في قوله تعالى في قضية خلق آدم:

﴿قالوا سبحانَكَ لاعلمَ لنا إلا ماعلّمتَنا إنكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ﴾ البقرة/32.

ويلزمنا تأسيس المصطلح أن نتطرق إلى المصطلحات التي تبدو قريبة منه، بغية توضيح مجال القرب، ثم إزالة اللبس الذي قد يظهر بين المصطلحات المتشابهة أوالتي تبدو كذلك وهي، في حقيقتها، ليست بذات صلة، ومنها:

تعقيب الكلام:

تفرّد التنوخي بالإشارة إليه حيث قال: ومن البيان تعقيب الكلام بمصدر معظّم بمن أضيف إليه، توكيداً لما في ذلك الكلام من الحِكم والمعاني، وغير ذلك

ممّا يُعظّم في بابه خيراً أو شراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وترى الجبالَ تحسَبها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحاب صنعَ اللهِ الذي اتقَن كلَّ شيءٍ إنّه خبيرٌ بما تفعلون﴾ النمل/88.

فلما كانت الجبال تُرى جامدة، وهي تمرّ مرَّ السحاب لسرعة حركتها، كان ذلك أمراً عظيماً تحار فيه العقول، فوكّدَ بقولهِ تعالى: (صنع الله)، ثم وصف نفسه بأنه المتقن لكلّ شيء (10).

وهذه الدلاله تختلف عما أشرنا إليه من وجهين:

الأول: إنه تعقيب بكلمة (مصدر). أما مانقصد إليه فلا يكون كلمة، وإنما تركيب قد يضم جملة واحدة، كما في قوله تعالى:

﴿ياأيّها الذين آمنوا لاتقولوا راعِنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾ البقرة/104.

حيث عُقّبت القضية بـ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ وهي جملة واحدة. وكذلك التعقيب بـ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ في قوله تعالى:

﴿ومن الناس مَنْ يَشْري نفسَهُ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ والله رؤوفٌ بالعباد﴾ البقرة/207.

وقد يضمُّ التعقيب جملتين، كما في قوله تعالى في بني اسرائيل:

﴿فلمّا عتَوا عن مانُهوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين. وإذ تأذّنَ ربُّك ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة مَنْ يسومُهم سوءَ العذابِ إن ربَّك لسريعُ العقاب وإنه لغفورٌ رحيم﴾ الأعراف/166–167 حيث ضمَّ التعقيب جملتين هما ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ و﴿إنه لغفور رحيم﴾.

كما قد يكون التعقيب بأكثر من ذلـك، كمـا في قولـه تعـالى في قضيـة خلق آدم:

﴿وإذ قالَ ربُّكَ للملائكةِ إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً قالوا أتجعـلُ فيهـا من يُفسد فيها ويسفكُ الدماءَ ونحن نسبّحُ بحمدِكَ ونقـدّسُ لـك قـال إنـي أعلـمُ مالاتعلمون﴾. إلى قوله تعالى: ﴿قلنـا اهبطـوا منهـا جميعـاً﴾ ثـم تعقيـب القضيـة بقوله: ﴿فإما يأتينّكم مني هُدى فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والذين كفـروا وكذّبوا بآياتنا أولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾ البقرة/30-38.

تضمن هذا التعقيب جملاً كثيرة، كجملة الشرط المركبة من عدة جمـل، والجملة المعطوفة (ولاهم يحزنون) والجملة المعطوفة الأخرى (والذين كفـروا...) وكذا جملة (وكذّبوا) وجملة خبر (الذين) التي هـي (أولئـك أصحـاب النـار) ثـم جملة (هم فيها خالدون). وهـذا -كمـا نـرى- تعـدّد في الجمـل احتـواه تعقيـب واحد.

الثاني: دلالته على التوكيد، وعندنا إن للتعقيب دلالات مختلفة، تتناسب بحسـب سياقات القضايا، فقد يدل التعقيب على المدح، كما في قوله تعالى:

﴿هو الـذي أنـزلَ عليـكَ الكتـابَ منـه آيـاتٌ محكمـاتٌ هـنّ أمُّ الكتـابِ وأُخـرُ متشابهاتٌ فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ماتشـابَهَ منـه ابتغـاءَ الفتنـةِ وابتغـاءَ تأويلِه ومايعلمُ تأويلَه إلا الله والراسخون في العلمِ يقولون آمنا به كـلٌّ مـن عنـد ربّنا وما يذّكر إلا أولو الألبـاب﴾ آل عمـران/7. فـالتعقيب هـو ﴿ومـايذّكر إلا أولو الألباب﴾، وفيه مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمّل(11).

وقد يدل على الغَضَب والتخويف: أي الوعيد، كما في قوله تعالى:
﴿إن يشأْ يذهبْكم أيّها الناس ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديرا﴾ النساء/133.

فقوله: ﴿وكان الله على كل ذلك قديرا﴾ تعقيب، وهو غضبٌ عليهم، وتخويف وبيان لاقتداره(12).

وقد يدل على الزجر، كما في قوله تعالى:
﴿المنافقون والمنافقاتُ بعضُهم من بعضٍ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروفِ ويقبضون أيديَهم نسُوا الله فنسِيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ التوبة/67.

ومعنى التعقيب أنهم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر، والانسلاخ عن كل خير. وكفى المسلم زاجراً أن يلمَّ بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين، حين بالغ في ذمهّم(13).

وقد يدل التعقيب على دلالات أخرى، نعرض لها في مواضعها.

التذييل أو الاطناب بالتذييل:

التذييل هو أن يذيّل الناظم أو الناثر كلامه بعد تمامه، وحسُن السكوت عليه -بجملةٍ تحقق ماقبلها من الكلام وتزيده توكيداً، وتجري مجرى المثل بزيادة التحقيق. ومنه قوله تعالى:
﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا﴾ الاسراء/81. فالجملة الأخيرة هي التذييل الذي خرج مخرج المثل السائر(14).

والاطناب بالتذييل -كما قال القزويني - هو تعقيب الجملة بجملة، تشتمل علىمعناها للتوكيد، وهو ضربان:

- ضرب لايخرج مخرج المثل لعدم استقلاله بإفادة المراد، وتوقفه على ماقبله، كقوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يُجازى إلا الكفور﴾ سبأ/17. إن قلنا: إن المعنى: وهل يُجازى ذلك الجزاء..

- وضرب يخرج مخرج المثل، كقوله تعالى: ﴿وقل جاءَ الحقُّ وزهق الباطلُ إنّ الباطل كان زهوقا﴾ الإسراء/81.

وقد اجتمع الضربان في قوله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلِكَ الخلدَ أفإن مِتَّ فهم الخالدون. كلُّ نفسٍ ذائقة الموت) الأنبياء/34-35 (15).

ويلاحظ هنا، أن دلالة التذييل أو الاطناب بالتذييل زائدة على المعنى المراد، لأن المعنى يتم ويحسن السكوت عليه، ثم تجيء جملة التذييل. وهذا متأتٍ من أن علاقة التذييل بما تقدمه علاقة تبعية (توكيد)، وليس كذلك دلالات التعقيب، وقد أوضحنا هذا آنفاً. وإن استقلال دلالة التعقيب لايعني جريه مجرى المثل، كما يُفهم من التذييك، وإنما هو نتيجة قضية من خلال الحكم عليها، فتستنبط منه دلالات شتى بحسب السياق، كدلالة التعقيب بالشرط واختلاف جزائه في قوله تعالى: ﴿إنّا أنزلنا التوراةَ فيها هدى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيّون والأحبارُ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناسَ واخشوني ولاتشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فاولئكَ هم الكافرون﴾ المائدة/44.

حيث كان جزاء الشرط (فاولئك هم الكافرون) لأنهم حكموا بخلاف ما أنزل الله، استهانةً به(16).

وقال تعالى بعد ذلك: ﴿وكتبنا عليهم فيها أنَّ النفسَ بالنفسِ والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروحُ قصاصٌ فمن

تصدّقَ به فهو كفارةٌ له ومن لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فاولئكَ هم الظالمون﴾ المائدة/45.

واختلف جزاء الشرط هنا، أي في قوله ﴿واولئك هم الظالمون﴾ لأنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية الموجبة للعقاب(17)، فهو كفر وزيادة(18).

.وقال تعالى بعد ذلك: ﴿وقفّينا على آثارِهم بعيسى ابن مريم مُصدّقاً لما بينَ يديهِ من التوراةِ وآتيناه الانجيلَ فيه هدى ونورٌ ومُصدّقاً لما بينَ يديهِ من التوراةِ وهدى وموعظة للمتقين. وليحكمْ أهلُ الانجيل بما أنزلَ اللهُ فيه ومن لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الفاسقون﴾ المائدة/46–47.

وجزاء الشرط هنا ﴿فاولئك هم الفاسقون)، أي المتمردون من الكفرة(19)، وهم أشد كفراً ممن سبقهم، فيكون التعقيب بالشرط المتضمن أوصافاً ثلاثة مختلفة، متدرجاً مترقياً من الأخف إلى الأثقل على عادة الأسلوب القرآني في الوعد والوعيد(20).

وهذا يخالف التذييل من حيث عدم جريه مجرى المثل السائر المستقل بدلالة عامة، يمكن أن تضرب في المقامات المتشابهة. ثم أن في اختلاف جزاء الشرط مايبين شدة ارتباط التعقيب بقضيتهِ، فإذا اختلفت القضية اختلف التركيب، والتذييل يكون بجملة بعد جملة، فهو محدود بجملتين أو أكثر بقليل، في حين يتعدى التعقيب هذا العدد، فلا يتقيد بعدد معين من الجمل، وإنما هو منوط بتمام القضية، ولاعبرة بعدد جملها، وكذلك التعقيب نفسه إذ لايتحدد بعدد مخصوص من الجمل.

مثل هذا قضية وعيد الكافرين الذين اغتروا بطول مكثهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿ويومَ يحشرُهم كأنْ لم يلبثوا إلاّ ساعةً من النهارِ يتعارفون بينهم قد

خسر الذين كذّبوا بلقاءِ اللهِ وما كانوا مهتدينَ. وإمّا نرينّك بعضَ الذي نعدُهم أو نتوفّينّك فإلينا مرجعُهم ثم اللهُ شهيدٌ على ما يفعلون. ولكلِّ أمةٍ رسولٌ فإذا جاءَ رسولُهم قُضي بينهم بالقسطِ وهم لايُظلمون. ويقولون متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين. قل لا أملك لنفسي ضُراً ولانفعاً إلاّ ماشاءَ اللهُ لكلِّ أمةٍ أجلٌ فإذا جاءَ أجلُهم فلا يستأخرون ساعةً ولايستقدمون. قل أرأيتم إن أتاكم عذابُهُ بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجلُ منه المجرمون، أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون . ثم قيل للذين ظَلموا ذوقوا عذابَ الخلدِ هل تُجزَون إلا بما كنتم تكسِبون. ويستنبئونك أحقٌ هو قل إي وربي إنه لحقٌّ وما أنتم بمعجزين. ولو أنَّ لكلِّ نفسٍ ظلمتْ مافي الأرض لافتدتْ به وأسرُّوا الندامة لمّا رأَوا العذابَ وقُضي بينهم بالقسط وهم لايُظلمون﴾ يونس/45–54.

ثم جاء التعقيب عليها بقوله تعالى: ﴿ألا إنَّ للهِ مافي السمواتِ والأرضِ ألا إنَّ وعدَ اللهِ حقٌ ولكنَّ أكثرَهم لايعلمون. هو يحيي ويميت وإليه تُرجَعون﴾ يونس/55–56.

ومن ذلك قضية نوح في قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلىأممٍ ممن معك وأمم سنمتّعهم ثم يمسّهم منا عذاب أليم﴾ هود/20–48. وتعقيبها بقوله تعالى: ﴿تلك من أنباءِ الغيبِ نوحيها إليك ماكنتَ تعلمُها أنتَ ولاقومُك من قبلِ هذا فاصبرْ إنَّ العاقبةَ للمتقين﴾ هود/49.

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة يضيق عنها المجال، وإن نظرة عابرة إلى هذين المثلينِ تدل دلالة واضحة على خروج القضية والتعقيب من امكان التحديد بعدد معين من الجمل.

المثـــل:

قد يوهم المثل القرآني أنه تعقيب، لقرابة بينهمـا تتجسـد في أن كليهما يأتي بعد قضية، ولكن التمعن في المراد من ضرب المثل يفضي إلى الفصل بينهما من وجوه:

أولها: إن للمثل وظيفة تقريب المعنى إلى الذهن أو شرح المراد من القضية بطريق آخر، قال الزمخشري: ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن، ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد. وفيه تبكيت للخصم، وقمع لسورة الجامح الآبي(21). وقال: .. في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني(22).

وليس للتعقيب وظيفة الشرح، أو تلوين طرق التعبير بغية تقريب المقصود، وإنما تظهر وظيفته بارتباطه القوي بالقضية، وبما تؤول إليه، قال تعالى في قضية الكافرين: ﴿الحمدُ للهِ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وجعلَ الظلماتِ والنورَ ثم الذينَ كفروا بربهم يعدِلون. هو الذي خلقكم من طينٍ ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمّى عنده ثم أنتم تمترون. وهو اللهُ في السمواتِ وفي الأرضِ يعلم سرَّكم وجهرَكم ويعلم ماتكسِبون. وماتأتيهم من آيةٍ من آياتِ ربِّهم إلا كانوا عنها معرضين. فقد كذّبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباءُ ماكانوا به يستهزئون﴾ الأنعام/5.

وكان تعقيب القضية ﴿فسوف يأتيهم أنباء... ﴾ وهو تهديد لهم، ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق(23). ولم يبرز التعقيب المعاني الخبيئة، ولم يرفع الأستار عن الحقائق، وإنما هو نتيجة ترتبط بقضية معينة.

ثانيها: إن الأمثال لاتُغيَّر(24)، لأن لكل مثل تركيباً ثابتاً معروفاً، شاع واشتهر بين الناس، ولو تبدل التركيب لاختلَّ بناء المثل، وفقد مايرمي إليه من مغزى، أما التعقيب، فليس له تراكيب محددة ثابتة، يُحافظ على عبارتها كما يُحافظ على عبارة المثل.

إن خير ما يفرقّ بين المثل والتعقيب استعمال القرآن الكريم للمثل في قوله تعالى: ﴿مَثَل الفريقين كالأعمى والأصمِّ والبصيرِ والسميعِ هل يستويان مثلاً أفلا تذكّرون﴾ هود/24.

حيث شُبّه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع(25). وعقّب القضية بـ(أفلا تذكّرون) أي: أفلا تتفكرون في ذلك، فتعلموا صحة ماذكرناه(26). حيث خرج الاستفهام إلى معنى التوبيخ، وواضح من هذا أن المثل غير التعقيب، ولو أنهما يتشابهان في مجيء كل منهما بعد قضية.

ثالثها: أنهم اشترطوا للمثل شيئاً من الغرابة أي الندرة والطرافة، فلم يضرب العرب مثلاً، ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولاجديراً بالتداول والقول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه(27). ومن ثم قسّموا استعارة المثل للحال أو الصفة أو القضية، إذ كان لها شأن، وفيها غرابة، والتمثيل على سبيل الاستعارة(28). وليس من هذا شيء في التعقيب.

الفاصلة:

الفاصلة في القرآن الكريم كلمة في آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع(29)، وهي من حيث ائتلافها مع المعنى على أربعة أنواع:

أ- **التمكين**: وهو أن يُمهَّد قبل الفاصلة، فيتعلق معناها بالتمهيد تعلقاً تاماً، بحيث لو طرحت اختل المعنى، واضطرب الفهم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَ لم يهدِ لهم كم أهلكْنا مِنْ قبلِهم من القرونِ يمشون فِي مساكنهِم إنَّ في ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون﴾ السجدة/26.

فالفاصلة (يسمعون) مؤتلفة مع أول الآية (أَوَ لم يهد لهم) وذلك لأن الهداية المرادة هنا مسموعة(30).

ب- التصدير: وهو في الفاصلة أن تكون اللفظة نفسها تقدمت في أول الآية، كقوله تعالى ﴿لاتفتروا على الله كذباً فيُسحِتَكم بعذابٍ وقد خابَ من افترى﴾ طه/61(31).

ج- التوشيح: وهو أن يكون في أول الكلام مايستلزم الفاصلة، والفرق بينه وبين التصدير أن دلالة التوشيح معنوية ودلالة التصدير لفظية، ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآلَ ابراهيمَ وآلَ عمران على العالمين﴾ آل عمران/33.

فدلَّ الفعل (اصطفى) على الفاصلة (العالمين) بالمعنى، وذلك لأن من لوازم اصطفاء شيء أن يكون مختاراً على جنسه، وجنس هؤلاء المصطفين العالمون(32).

د- الإيغال: وهو أحد أقسام الاطناب بأن يُختم الكلام نثراً كان أو نظماً بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، ومنه قوله تعالى: ﴿أفحكمَ الجاهليةِ يبغون ومَنْ أحسنُ من اللهِ حكماً لقوم يوقنون﴾ المائدة/50.

فإن الكلام تم بقوله ﴿ومن احسن من الله حكماً﴾ ثم احتاج إلى فاصلة تناسب الآية الماضية، فلما أتى بها أفاد معنى زائدا(33).

والفرق بين الفاصلة -كما عرضنا لتلخيص مايهمنا منها- والتعقيب أن الفاصلة كلمة، في حين تجاوز التعقيب حد الجملة الواحدة، ففي مثال التمكين يكون التعقيب قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾ أما الفاصلة **فهي** كلمة (يسمعون). وإن العلاقة المعنوية بين الفاصلة والآية -كما هي في الإيغال- تختلف عما هي عليه في التعقيب، إذ ليس التعقيب بزائد عن معنى الآية أو الآيات قبله، وإنما هو جزء من قضية لاتتم دونه. قال تعالى في قضية الحلف على اعتزال النساء: ﴿للذين يُؤْلُون من نسائِهم تربّصُ أربعةِ أشهرٍ فإنْ فاءوا فإنَّ اللّه غفورٌ رحيم. وإنْ عزموا الطلاقَ فإنَّ اللّه سميعٌ عليم﴾ البقرة/226-227.

فلما أخبر عن المولى أنه يلزمه الفيء أو الطلاق، بيّنَ أنه إن فاء، فإن الله غفور رحيم بأن يقبل رجوعه، ولايتبعه بعقاب ما ارتكبه. ولّما أخبر عنه بإيقاع الطلاق، وهو مما يُسمع، أخبر بأنه لايخفى عليه وأنه يسمعه، فكلٌ لايليق إلا بموضعه.

*

هوامش (التمهيـــد)

1- العين 1 :187.

2- لسان العرب (عقب).

3- العين 1 : 187.

4- أساس البلاغة ولسان العرب (عقب) والقاموس المحيط 1 : 110.

5- مجمع البيان 6 : 279 وأساس البلاغة (عقب).

6- الكشاف 2 : 364.

7- مجمع البيان 7 : 212 ومعترك الأقران 3 : 555.

8- الكشاف 1 : 165.

9- نفسه 1 : 221 - 222.

10- معجم المصطلحات البلاغية 2 : 290 نقلاً عن الأقصى القريب 80.

11- الكشاف 1 : 413.

12- نفسه 1 : 570.

13- نفسه 2 : 200.

14- خزانة الأدب 110.

15- الإيضاح 1 : 200-202.

16- الكشاف 1 : 616.

17- مجمع البيان 3 : 200.

18- ملاك التأويل 1 : 401.

19- الكشاف 1 : 300.

20- ملاك التأويل 1 : 403.

21- الكشاف 1 : 195.

22- نفسه 2 : 376.

23- تفسير القرآن العظيم 2 : 171.

24- الإيضاح 1 : 307.

25- الكشاف 2 : 264.

26- مجمع البيان 5 : 152.

27- الكشاف 1 : 195.

28- الإيضاح 307 ، 308.

29- البرهان 1 : 53.

30- نفسه 1 : 80.

31- بديع القرآن 36.

32- نفسه 9.

33- البرهان 1 : 96 ومعجم المصطلحات البلاغية 1 : 369.

*



القسم الأول

التعقيب والسورة والقضية




التعقيب والسورة

القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- بلسان عربي مبين، وهو مجموع السور التي يضمها المصحف، والسورة قطعة من القرآن، تشتمل على آيات ذات فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات(1). وللسورة الواحدة كيان مستقل بما تحتويه من قضايا، وماتمتاز به من نسق آيات، ونظام فواصل، وبناء كلي. على أن استقلال السورة لايخرجها عن مجمل أهداف القرآن ومقاصده.

ويمكن تصنيف سور القرآن بحسب نظام التعقيب في كل منها على ثلاثة أنواع:

أ - السور ذات التعقيب المتكرر:

أدخل البلاغيون التعقيب المتكرر في الاطناب، حيث يكون التكرير لتعدد المتعلّق(2). وقد جاء في سورة الشعراء متمثلاً في قوله تعالى: ﴿إنَّ في ذلك لآيةً وماكان أكثُرهم مؤمنين. وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ الرحيم﴾. في ثمانية مواضع من السورة. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف كُرِّر في هذه السورة، في أول كل قصة وآخرها ماكُرِّر؟. قلت: كلّ قصة منها كتنزيل برأسه. وفيها من الاعتبار مثل مافي غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تُفتتح بما أُفتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما أُختتمت به(3). وقوله موجز مجمل بمعان، تتجلى في فحص كل قصة، أو قضية، وإخراج الخيط الرابط لها، وشده بما بُنيت عليه السورة في مقدمتها، واستشراف أثر ذلك في سائرها وفي خاتمتها. وفيما يأتي تخطيط لسورة الشعراء بحسب قضاياها:

1- ﴿طسم. تلك آياتُ الكتابِ المبين. لعلّكَ باخعٌ نفسَك الاّ يكونوا مؤمنين. إن نشأ نُنزِّلْ عليهم من السماءِ آيةً فظلتْ أعناقُهم لها خاضعين. وما يأتيهم من ذكرٍ من الرحمنِ مُحدثٍ إلا كانوا عنه مُعْرِضين. فقد كذّبوا فسَيأتهم أنباءُ ماكانوا به يستهزئون﴾.

2- ﴿أوَ لم يروا إلى الأرضِ كمْ انبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريم. إنَّ في ذلك لآيةً وماكانَ أكثرُهم مؤمنين. وإنَّ ربَّك لهو العزيز الرحيم﴾.

3- ﴿وإذ نادى ربُّك موسى أن آئتِ القومَ الظالمين. قومَ فرعونَ ألا يتّقون. قال ربِّ إني أخافُ أنْ يكذّبون. ويضيقُ صدري ولاينطلقُ لساني فأرسلْ إلى هارون. ولهم عليَّ ذنبٌ فأخاف أنْ يقتلون. قال كلاّ فاذهبا بآياتنا إنّا معكم مستمعون. فاتيا فرعونَ فقولا إنّا رسولا ربِّ العالمين. أنْ أرسلْ معنا بني اسرائيل. قال ألمْ نُربِّكَ فينا وليداً ولَبِثتَ فينا من عمرِك سنين. وفعلتَ فعلتَك التي فعلتَ وأنتَ من الكافرين. قال فعلتُها إذاً وأنا من الضالين. ففرَرت منكم لّما خِفتُكم فوهَبَ لي ربّي حكماً وجعلني من المرسلين. وتلك نعمةٌ تَمُنُّها عليَّ أنْ عبّدتَّ بني اسرائيل. قال فرعونُ ومارب العالمين. قال ربُّ السمواتِ والأرضِ ومابينَهما إنْ كنتم موقنين. قال لمنْ حولَه ألا تستمعون. قال ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين، قال إنَّ رسولَكم الذي أُرسِلَ إليكم لمجنون. قال ربُّ المشرقِ والمغربِ ومابينهما إن كنتم تعقِلون. قال لئن اتخذتَ الهاً غيري لأجعلنَّك من المسجونين. قال أوَ لو جئتُك بشيءٍ مبين. قال فأتِ به إنْ كنتَ من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين. ونزعَ يدَهُ فإذا هي بيضاءُ للناظرين. قال للملأ حولَه إنَّ هذا لساحرٌ عليم. يُريد أنْ يخرجَكم من أرضِكم بسحرِهِ فماذا تأمرون. قالوا أرْجِهْ وأخاه وابعثْ في

المدائنِ حاشرين. يأتوك بكلِّ سحَّارٍ عليم. فجُمعُ السحرةُ لميقاتِ يومٍ معلوم. وقيلَ للناسِ هل أنتم مجتمعون. لعلّنا نتّبع السحرةَ إنْ كانوا هم الغالبين. فلمّا جاء السحرة قالوا لفرعون أئِنَّ لنا لأجراً إنْ كنّا نحن الغالبين. قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين. قال لهم موسى ألقْوا ماأنتم مُلقون. فألقوا حبالَهم وعصيَّهم وقالوا بعزةِ فرعونَ إنّا لنحن الغالبون. فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقَفُ مايأفكون. فأُلقيَ السحرةُ ساجدين. قالوا آمنّا بربِّ العالمين. ربِّ موسى وهارون. قال أآمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيرُكم الذي علَّمَكم السحرَ فلسوف تعلمون لأُقطِّعَنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خِلافٍ ولأُصلِّبَنَّكم أجمعين. قالوا لاضير إنّا إلى ربّنا منقلبون. إنّا نطمعُ أنْ يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا إن كنّا أول المؤمنين. وأوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي إنكم مُتَّبعون. فأرْسلَ فرعون في المدائن حاشرين. إنَّ هؤلاء لَشِرْذِمةٌ قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنّا لجميعٌ حاذرون. فأخرجناهم من جناتٍ وعيون. وكنوزٍ ومقامٍ كريم. كذلك وأورثناها بني اسرائيل. فأتْبَعُوهم مُشرقين. فلما تراءى الجمعان قال أصحابُ موسى إنّا لَمُدرَكون. قال كلاّ إنّ معي ربي سيهدينِ. فأوحينا إلى موسى أن اضربْ بعصاك البحرَ فانفلقَ فكان كلُّ فِرقٍ كالطودِ العظيم. وأزلفنا ثمَّ الآخرين. وأنجينا موسى ومَنْ معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين. إنَّ في ذلك لآيةً وماكان أكثرُهم مؤمنين. وإنَّ ربَّك لهو العزيز الرحيم﴾.

4- ﴿واتلُ عليهم نبأَ ابراهيمَ. إذ قالَ لأبيهِ وقومِهِ ماتعبُدون. قالوا نعبدُ أصناماً فنظلُّ لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تَدْعُون. أو يَنْفعونكم أو يَضُرُّون. قالوا بل وَجدنا آباءَنا كذلكَ يفعلون. قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون. أنتم

وآباؤكم الأقدمون. فإنّهم عدوٌّ لي ألاَّ ربُّ العالمين. الذي خلقني فهو يهدينِ. والذي هو يطعمني ويسقينِ. والذي يُميتني ثمَّ يحيينِ. والذي أطمعُ أنْ يغفرَ لي خطيئتي يومَ الدين. ربِّ هبْ لي حكماً وألحقني بالصالحين. واجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخرين. واجعلني منْ وَرَثةِ جنةِ النعيم. واغفر لأبي إنَّه كان من الضالين. ولاتُخزني يوم يُبعثون. يومَ لاينفعُ مالٌ ولابنون. إلاَّ مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم. وأُزلفت الجنّةُ للمتقين. وبُرِّزت الجحيمُ للغاوين. وقيلَ لهم أين ماكنتم تعبدون. من دونِ الله هل ينصرونكم أو ينتصرون. فكُبْكِبُوا فيها هم والغاوون. وجنودُ إبليسَ أجمعون. قالوا وهم فيها يختصمون. تاللهِ إنْ كنّا لفي ضلالٍ مبين. إذ نُسوِّيكم بربِّ العالمين. وما أضلَّنا الاّ المجرمون. فما لنا من شافعين. ولاصديقٍ حميم. فلو أنَّ لنا كرةً فنكون من المؤمنين. إنَّ في ذلك لآيةً وماكان أكثرُهم مؤمنين. وإنَّ ربَّك لهو العزيز الرحيم﴾.

5- ﴿كذّبت قومُ نوحٍ المرسلين. إذْ قال لهم أخوهم نوحُ ألا تتّقون. إني لكم رسولُ أمين. فاتّقوا الله وأطيعونِ. وما أسألكم عليه من أجرٍ إنْ أجري إلاّ على ربِّ العالمين. فاتّقوا الله وأطيعون. قالوا أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون. قال وما علمي بما كانوا يعملون. إنَّ حسابُهم إلاّ على ربي لو تشعُرون. وما أنا بطاردِ المؤمنين. إنْ أنا إلا نذيرٌ مبين. قالوا لئن لم تنتهِ يانوحُ لتكوننَّ من المرجُومين. قال ربِّ إنَّ قومي كذّبونِ. فافتحْ بيني وبينَهم فتحاً ونجِّني ومَنْ معي من المؤمنين. فانجيناهُ ومَنْ معهُ في الفُلْكِ المشحون. ثم أغرقنا بعدُ الباقين. إنَّ في ذلك لآيةً وماكان أكثرُهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

6- ﴿كذّبت عادٌ المرسلينَ. إذْ قال لهم أخوهم هودٌ ألا تتّقون. إنّي لكم رسولٌ أمين. فاتّقوا الله وأطيعونِ. وما أسألُكم عليه من أجرٍ إنْ أجريَ إلاّ على ربِّ العالمين. أتبنون بكلِّ ريعٍ آيةً تعبثون. وتتخذون مصانع لعلّكم تَخلُدون. وإذا بَطَشْتم بَطَشْتم جبّارين. فاتّقوا الله وأطيعون. واتّقوا الذي أمدَّكم بما تعلمون. أمدَّكم بأنعامٍ وبنين. وجناتٍ وعيون. إنّي أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيم. قالوا سواءٌ علينا أوعظتَ أم لم تكنْ من الواعظين. إنْ هذا إلاّ خُلُقُ الأولين. ومانحن بمعذّبين. فكذّبوه فأهلكناهم. إنَّ في ذلك لآيةً وماكان أكثرُهم مؤمنين. وإنَّ ربَّكَ لهو العزيزُ الرحيم﴾.

7- ﴿كذّبت ثمودُ المرسلين. إذ قالَ لهم أخوهم صالحٌ ألا تتّقون. إنّي لكم رسولٌ أمين. فاتقوا الله وأطيعونِ. وما أسألُكم عليه من أجرٍ إنْ أجريَ إلاّ على ربِّ العالمين. أتُتْرَكُون في ماهاهنا آمنين. في جناتٍ وعيون. وزروعٍ ونخلٍ طلعُها هضيم. وتَنْحِتُون من الجبالِ بيوتاً فارهين. فاتّقوا الله وأطيعونِ. ولاتطيعوا أمرَ المُسْرِفين. الذين يُفْسِدون في الأرضِ ولايُصلحون. قالوا إنّما أنتَ من المُسحَّرين. ماأنتَ إلاّ بشرٌ مثلُنا فاتِ بآيةٍ إنْ كنتَ من الصادقين. قال هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكم شِربُ يومٍ معلوم. ولاتَمَسُّوها بسُوءٍ فيأخذَكم عذابُ يومٍ عظيم. فعقروها فأصبحوا نادمين. فأخذهم العذابُ. إنَّ في ذلك لآيةً وماكان أكثُرهم مؤمنينَ. وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ الرحيم﴾.

8- ﴿كذّبت قومُ لوطٍ المرسلين. إذْ قال لهم أخوهم لوطٌ ألا تتّقون. إنّي لكم رسولٌ أمين. فاتّقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إنْ أجريَ إلاّ على ربِّ العالمين. أتأتون الذكرانَ من العالمين. وتذَرون ماخَلَقَ لكم ربُّكم من أزواجكم بل أنتم قومٌ عادون. قالوا لئن لم تنتهِ يالوطُ لتكونَنَّ من

المُخْرَجين. قـال إنّي لعملِكـم مـن القـالين. ربِّ نجّـني وأهلـي ممّـا يعملـون. فنجّيناه وأهلَهُ أجمعين. إلاّ عجوزاً في الغابرين. ثم دمّرنـا الآخريـن. وأمطرنـا عليهـم مطراً فساءَ مطرُ المْنذَرين. إنَّ في ذلك لآيةً وماكانَ أكـثُرهم مؤمنـين. وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ الرحيم﴾.

9- ﴿كذّب أصحابُ الأيكةِ المرسلين. إذْ قالَ لهم شعيبٌ ألا تتّقـون. إني لكـم رسولٌ أمين. فاتّقوا الله واطيعونِ. وماأسألكم عليـه مـن أجرٍ إنْ أجـري إلا على ربِّ العالمين. أوْفُوا الكيلَ ولاتكونوا من المُخْسِرين. وزِنُـوا بالقِسطاسِ المستقيم. ولاتَبْخَسوا الناسَ أشـياءَهم ولاتَعْثَـوا في الأرضِ مفسـدين. واتّقـوا الذي خلقكم والجِبِلّةَ الأولين. قالوا إنّما أنتَ مـن المُسَحَّرين. ومـا أنـتَ إلاّ بشرٌ مثلُنا وإنْ نظنُّك لَمـن الكـاذبين. فأسْقِطْ علينـا كِسَـفاً مـن السـماءِ إنْ كنت من الصادقين. قال ربّي أعلمُ بما تعملون. فكذّبوه فأخذهم عذابُ يومِ الظُّلةِ إنّه كانَ عذابَ يومٍ عظيم. إنَّ في ذلك لآيةً وماكانَ أكـثُرهم مؤمنـين. وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ الرحيم﴾.

10-﴿وإنّه لتنزيلُ ربِّ العالمين. نَزَلَ بهِ الـروحُ الأمـين. علـى قلبِـك لتكـونَ مـن المنذِرين. بلسانٍ عربيٍّ مبين. وإنّه لفي زُبُرِ الأولـين. أوَ لم يكـنْ لهـم آيـةً أن يعلمَهُ علماءُ بني اسرائيلَ. ولو نزّلنـاه علـى بعضِ الأعجمـين. فقـرأهُ عليهـم ماكانوا بهِ مؤمنين. كذلك سلكناهُ في قلوبِ المجرمين. لايؤمنون به حتى يرَوْا العذابَ الأليم. فيأتيهم بغتـةً وهـم لايَشْـعرون. فيقولـوا هـلْ نحـن مُنْظَـرون. أفبعذابِنا يستعجلون. أفرأيتَ إنْ متّعناهم سنين. ثُمَّ جاءَهم ماكانوا يُوعَدون. ماأغنى عنهم ماكانوا يُمتّعون. وما أهلكنا من قريةٍ إلاّ لها مُنْـذِرون. ذكـرى وماكنّا ظالمين. وماتنزّلت به الشياطين. ومـاينبغي لهـم ومايسـتطيعون. إنّهـم

عن السمعِ لمعزولون. فلا تدعُ مع اللهِ إلهاً آخرَ فتكونَ من المعذَّبين. وأَنْذِرْ عشيرتَك الأقربين. واخفِضْ جناحَك لمن اتّبعك من المؤمنين. فان عَصَوك فقل إنّي بَرِيءٌ مما تعملون. وتوكّلْ على العزيز الرحيم. الذي يراك حينَ تقوم. وتقلُّبَكَ في الساجدين. إنّه هو السميعُ العليم. هل أُنبِّئُكم على مَنْ تنزَّل الشياطين. تنزّلُ على كلِّ أفّاكٍ أثيم. يُلقُون السمعَ وأكثرُهم كاذبون. والشعراءُ يتّبعهم الغاوون. ألمْ ترَ أنّهم في كلِّ وادٍ يهيمون. وأنّهم يقولون مالايفعلون. إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدِ ما ظُلِموا وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾.

*

بُدئت السورة بقضيةٍ هي بمثابة المقدمة، وفيها إشارة إلى ثلاثة أمور:

1- القسم بآيات القرآن. وإن هذا القرآن ظاهر الاعجاز، فهو من عند الله سبحانه ﴿طسم. تلك آيات الكتاب..﴾.

2- الاشفاق على النبي -صلى الله عليه وسلم- من أن يهلك نفسه لكفر قومه بالقرآن المنزل من عند الله، واعراضهم عنه، وتكذيبهم لما جاء فيه، والله تعالى هو القادر على أن ينزل آية، تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكنه لايفعل ذلك، لأنه لايريد من أحد إلا الإيمان الاختياري(4). وفي هذا تسلية للرسول الكريم عن تأخر المنكرين عن الإيمان(5). ﴿لعلك باخع نفسك.. ﴾.

3- الوعيد للمكذبين ﴿فقد كذّبوا فسيأتيهم أنباء ...﴾.

وفي كل تعقيب من تعقيبات السورة المتكررة إشارة إلى هذه الأمور، من خلال القضية التي يقفّيها التعقيب. أي أن التعقيبات ستأخذ دلالات مختلفة متنوعة، على الرغم من تكرار صيغتها، ويتسلسل ذلك من أول قضية بعد

المقدمة، وهي قوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم. إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾. و(كم) تدل على التكاثر المفرط. و(كل) تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ولهذا جُمع بينهن للتنبيه على كمال قدرته سبحانه(6). وقوله ﴿إن في ذلك لآية...﴾ يدل على أن في الإنبات آية عظيمة، وأن في كل واحد من الأزواج آية عظيمة أيضاً. والآية العظيمة دلالة على أنَّ موجدها عظيم، وهو الله العلي العظيم، الذي أنزل القرآن، وجعله آية معجزة عظيمة. فدلّت عظمة الآية على عظمة الخالق. ومع وجود القرآن، وهو آية ظاهرة، ومع وجود الانبات، وهو آية واضحة أمام أعين الناس، وبين أيديهم، ماآمن أكثر الناس. بل كذّبوا بالله وبرسله وكتبه وخالفوا أمره وارتكبوا نهيه(7). وقد علم الله أنَّ أكثرهم مطبوع على قلوبهم، غير مرجو ايمانهم(8).

وفي هذا اشفاق على النبي الكريم وتسلية له، بتسويغ إعراض قومه، وصدهم عن الإيمان بماجاء به. إذ أن أمرهم ليس منوطاً بتقصيره في الابلاغ أو تقاعسه عن الدعوة، وإنما لأمر خارج عن فعله. ويتصل بهذا تعظيم شأن الرسول بإضافة اسم الرب إليه (ربك) حيث تفيد الاضافة عناية الله به وتربيته له. ويتصل بهذا أيضاً الوعيد لمن كذّب وأعرض واستهزأ، فالله (العزيز) في انتقامه من الكفرة (الرحيم) بمن تاب وآمن وعمل صالحاً(9).

وفي القضية الثالثة، وهي جزء من قصة موسى، يكون معنى التعقيب ﴿إن في ذلك لآية...) أي في معجزات موسى التي ذكرت في القضية، دلالة على وحدانية الله تعالى، وقدرته على إنزال الآيات، وهي قلب العصا ثعباناً مبيناً، وإخراج اليد بيضاء، وانفلاق البحر. (وماكانوا مؤمنين) أي أنهم مع هذا

السلطان الظاهر،والبرهان الباهر، والمعجز القاهر ما آمن أكثرهم، فلا تستوحش يامحمد من قعود قومك عن الحق الذي تأتيهم به، وتدفهم عليه، فقد جروا على عادة أسلافهم في إنكار الحق وقبول الباطل(10). وتشبه قضية موسى قضية محمد –صلى الله عليه وسلم– من حيث إرساله إلى قوم كافرين، كذبوه فيما جاءهم به، وأرسل موسى كذلك، قال تعالى: ﴿وإذ نادى ربك موسى أن آئت القوم الظالمين. قوم فرعون ألا تتقون. قال رب إني أخاف أن يكذبون﴾ الشعراء/12. ووصفه قومه بالجنون كما وُصف موسى ﴿قال إنَّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ الشعراء/27.

وفي التعقيب كذلك ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ (العزيز) المنتقم من أعدائه، (الرحيم) بأوليائه(11) . وفيه أيضاً وعد بنجاة المؤمنين، وقد نجا موسى والمؤمنون معه من الغرق، ووعيد بعذاب من كذب، وقد أُغرق المكذبون، قال تعالى:﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين.. وأغرقنا ثمَّ الآخرين﴾الشعراء/65-66.

وكانت القضية الرابعة في مشهد من محاجة ابراهيم قومه، فيما يعبدون من دون الله. والتعقيب عليها بقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية....﴾ أي في خلق ابراهيم وغيره من البشر، وهدايتهم وإطعامهم وسقيهم وشفائهم وإماتتهم ثم إحيائهم في القيامة، ومغفرة الذنوب عند الحساب،وفي جعل الثناء الحسن لابراهيم، فكل أهل الأديان يثنون عليه، ويقرون بنبوته(12) ﴿وماكان أكثرهم مؤمنين﴾ تسلية للرسول الكريم وإعلام له بأنَّ الشر قديم(13). حيث جابه ابراهيم ماجابهه هو من عبادة الأصنام، والإصرار على عبادتها والتمسك بها كما كان يفعل الآباء، قال تعالى: ﴿قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾ وقال ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ الشعراء/71،74. وقوله ﴿وإن ربك لهو

العزيز الرحيم﴾ وعد للمتقين معك بالجنة، كما وُعِد المتقون مع ابراهيم، ووعيد للمكذبين بالنار كما وُعد المكذبون مع ابراهيم، وورد في القضية بيان لجزاء كل فريق، قال تعالى: ﴿وأُزلفت الجنة للمتقين. وبُرِّزت الجحيم للغاوين. وقيل لهم أين ماكنتم تعبدون﴾ الشعراء/90–92.

في القضايا الباقية من السورة يتقارب السرد في أول القضية ثم يختلف فيما بعد، ليميز القضية من القضية، وهي قضايا قوم نوح وعاد ثمود ولوط وأصحاب الأيكة، ووردت مقدمة القضايا على الشكل الآتي:

﴿كذّبت قوم .... المرسلين. إذ قال لهم أخوهم.. ألا تتقون إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وماأسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾.

ثم تمضي الآيات لتأتي بخصوصية كل قضية، وفي تلك الخصوصية تتضح دلالة التعقيب التي ترتبط بالأمور الثلاثة التي جاءت في مقدمة السورة. أي أن تعقيب قضية نوح يكتسب دلالته من القضية نفسها، فيكون معنى قوله ﴿إن في ذلك الآية...﴾ أي في إرسال نوح، ودعوته إلى توحيد الله وتقواه، وفي صنعه السفينة، ونجاته والمؤمنين بها. و﴿وماكان أكثرهم مؤمنين﴾ حيث أنهم عارضوه، واحتجوا عليه باتباع الأراذل دعوته ﴿فالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ الشعراء/111. وهددوا بالرجم ﴿قالوا لئن لم تنتهِ يانوح لتكونَنَّ من المرجومين﴾ الشعراء/116.

وقوله تعالى: ﴿ وإن ربك لهو العزيز﴾ في اهلاك قوم نوح بالغرق (الرحيم) في أنجائه نوحاً ومن معه في الفلك(14).

وكذلك قضية عاد، وتعقيبها بقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية...﴾ أي في إرسال هود إليهم، ودعوته إلى توحيد الله وتقواه ﴿وكان أكثرهم مؤمنين﴾ إذ عارضوه برفضهم مايدعوهم إليه، وكانوا ينون الأبنية عبثاً، يظنون أنها تخلّدهم، وكانوا كذلك، عتاة جبارين، ينكرون البعث والعذاب ﴿قالوا سواء أوعظت أم لم تكن من الواعظين. إن هذا إلا خُلُق الأولين. ومانحن بمعذبين﴾ الشعراء/136-138.

﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ إذ أهلكهم بعذاب الاستئصال(15).

وجاء سبب إهلاكهم في موضع آخر من القرآن الكريم، إنه -سبحانه- أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، وهي ريح شديدة الهبوب، ذات برد شديد، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ماهو أعتى منهم، وأشد قوة(16).

وكذلك قضية ثمود وتعقيبها بقوله تعالى ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي في إرسال صالح إليهم، وهو يدعوهم إلىعبادة الله وحده، وإطاعته فيما بلغهم به من الرسالة، وفي وعظهم وتحذيرهم من نقم الله أن تحل بهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، حيث أنبت الجنّات، وفجّر العيون، وأخرج الثمرات(17)، وقد طلبوا منه أنْ يأتيهم بآية، ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة، فتلد ولداً عظيماً مثلها(18)، ودعا ربه فأجابه.

﴿وماكان أكثرهم مؤمنين﴾ أي لم يصدقوه فيما جاءهم به من دعوة إلى عبادة الله وإطاعته، وقالوا فيه ماقاله كفار قريش في وصف الرسول الكريم بالساحر، ﴿قالوا إنما أنت من المسحَّرين﴾ الشعراء/153 وكذّبوه من حيث

هوبشر، يُوحى إليه من بينهم، كما كُذّب بهذا الرسول الكريم ﴿ماأنت إلا بشر مثلنا﴾ الشعراء/154.

﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ وقد انتقم منهم بعقر الناقة، فأخذهم العذاب وهو زلزلة أرضهم زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة، اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر مالم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاثمين(19).

وكذلك قضية قوم لوط وأصحاب الأيكة، وهاتان لاتختلفان عما مضى، من حيث ملاحظة الآية الدالة على توحيد الله، والاشفاق على الرسول الكريم وتسليته، ووعيد الكافرين ووعد المتقين. إذ جرتا على النظام نفسه، وكان التعقيب المتكرر بعد كل منها مختلفاً بحسب الموضوعات داخل القضية وهو يشير إلى ماتقدم في أول السورة. وقد ختمت السورة بالإشارة نفسها، فقضية القرآن تعني أنّه آية على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- قال تعالى:﴿وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين...﴾ الشعراء/192-194. وقضية الاشفاق عليه وتسليته لإعراض قومه عما يدعوهم إليه، وأن شأنهم في ذلك شأن من تقدم من الأمم السالفة، في قوله تعالى:﴿ولو نزّلناه على بعض الأعجمين. نقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين. كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ الشعراء/198-200، ووعيدهم بالعذاب في قوله تعالى:﴿لايؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم. فيأتيهم بغتةً وهم لايشعرون﴾ الشعراء/201-204.

ومن السور ذات التعقيب المتكرر سورة المرسلات، وهي مبنية على بيان حقيقة اليوم الآخر، وتأكيد وقوعه، وتفصيل مشاهده، ووعيد المكذبين به،

ووعد المتقين. بل إن جو الوعيد والتهديد يسود السورة، فلم يشغل وعد المتقين منها إلا مساحة صغيرة، تبلغ أربع آيات (المرسلات/41-44) وتكرر قوله تعالى فيها: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ عشر مرات، لأن كل تعقيب ورد بعد قضية، تختلف عن القضية الأخرى، وبهذا يخرج التكرار عن أن يكون مستهجناً، إذ لو لم يكرر التعقيب لكان الوعيد واقعاً على قضية دون أخرى(20).

تخطيط لسورة المرسلات بحسب قضاياها

1- ﴿والمرسلاتِ عُرْفا. فالعاصفاتِ عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقاتِ فرقا. فالملقياتِ ذكرا. عُذراً أو نذرا. إنَّما تُوعدون لواقع﴾.

2- ﴿فإذا النجومُ طُمِسَتْ. وإذا السماءُ فُرِجَتْ. وإذا الجبالُ نُسفت. وإذا الرسلُ أُقّتت. لأي يومٍ أُجلت. ليومِ الفصلِ. وماأدراكَ مايومُ الفصل.
ويل يومئذٍ للمكذّبين﴾.

3- ﴿أَلم نُهلِكِ الأولين. ثم نُتبِعُهم الآخرين. كذلك نفعل بالمجرمين.
ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾.

4- ﴿أَلم نخلقْكم من ماءٍ مَهين. فجعلناه في قرارٍ مكين. إلى قدرٍ معلوم، فقَدَرنا فنعمَ القادرون.
ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾.

5- ﴿أَلَمْ نجعلِ الأرضَ كِفاتا. أحياءً وأمواتا. وجعلنا فيها رواسيَ شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً فُراتا.
ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾.

6- ﴿انْطَلِقُوا إلى ماكنتم به تكذّبون. انطلقوا إلى ظِلٍّ ذي ثلاثِ شُعَب. لاظليلٍ ولايُغني من اللهب. إنّها ترمي بشَرَرٍ كالقصْرِ. كأنه جِمالةٌ صُفْر.
ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾.

7- ﴿هذا يومُ لاينطِقون. ولايُؤذَنُ لهم فيعتذرون.
ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾.

8- ﴿هذا يومُ الفصلِ جمعناكم والأوّلين. فإن كان لكم كيدٌ فكيدونِ.
ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾.

9- ﴿إنَّ المتّقين في ظلالٍ وعيون. وفواكهَ مما يشتهون. كُلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون. إنا كذلك نَجزي المحسنين.
ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾.

10- ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون.
ويل يومئذٍ للمكذّبين﴾.

11- ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون.
ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾.

12- ﴿فبأي حديثٍ بعدَه يؤمنون﴾.

في مقدمة السورة قسم بطوائف من الملائكة لعظم شأنها على وقوع اليوم الآخر ﴿إنما توعدون لواقع﴾. ثم جاءت القضية الثانية تعرّف بصفة يوم الوقوع(21)، فهي مرتبطة به، وهو يؤلف الأساس الذي بُنيت عليه السورة، وماجاء بعده بمثابة وضع أجزاء البناء بعضها فوق بعض، وقفّيت القضية كلها بقوله تعالى ﴿ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ وهو تهديد ووعيد بمن جحدوا يوم

القيامة، وكذبوا به، لأن التكذيب بذلــك تتبعه خصــال المعـاصي كلهـا، وإن لم تُذكر معه(22).

ومعنى تعقيب القضية الثالثة ويل يوم الجزاء للمكذبين، فـإنهم يُجـازون بأليم العقاب(23). وحالهم في هذا الجزاء حال الأولـين والآخريـن ممـن أهلكهـم الله -سبحانه-، وقد أهلك الأولـين، وهـم قـوم نـوح وعـاد وثمـود ثـم أتبعهـم الآخرين من قوم شعيب ولوط وموسى(24).

ومعنى تعقيب القضية الرابعة أنا قد خلقنا الخلق ثم نعيده(25). وتسـتمر القضايا على هـذا المنـوال. كـل تعقيـب يفصـح عـن دلالـة مـن جنس القضيـة، فتختلف دلالات التعقيب تبعاً لاختلاف القضايا. على الرغم من مجـيء التعقيـب على صيغة واحدة.

ويلاحظ أن القضايا السبع الأُول في سورة المرسلات إلى الآيـة الأربعـين في وعيد المكذبين. كل قضية تتكفل بتوبيخهم على أمر من الأمور، وقـد رُوعـي في التوبيخ أن يكون متناسباً منتظماً على وفق مايقتضيه السـياق، فـالتوبيخ مثـلاً، في القضية الثانية كان على شدة هول يوم الفصل، من إنطفاء النجـوم، وتصـدع السماء، وقلع الجبال. وهذا التوبيخ مشدود إلى مقدمة السورة الــتي تبيّـن حتميـة وقوع ذلك اليوم. ثم انتقلت الآيات إلى تقديم مثلٍ لمـا يُفعـل بـالمجرمين في ذلـك اليوم، يتجسد في إهلاك الأولين والآخرين، ممن علم المكذبون الحاضرون فناءهم، وخبروا مصيرهم. وهذا كتقديم وثيقة تاريخية ثابتة الوقائع، يصدّق أحداثها كـل الناس. وتحولت الآيات إلى تقديم دليل آخر، وهو خلق هؤلاء المكذبين أنفسـهم من ماء مهين، للاستدلال بالقدرة على الخلق الأول على إحيائهم يوم الحسـاب. وفي القضية الخامسة أحضرت الآيات دليلاً من بيئة هؤلاء المكذبين وممـا يتضـح

أمام أعينهم، وهو ضم الأرض للناس أحياء على ظهرها وهي تضمهم أمواتاً في بطنها. وكذلك إقامة الجبال الثابتة العالية، وسقي الناس بالماء العذب. فتنوعَ التذكيرُ في القضايا الثالثة والرابعة والخامسة أنواعاً ثلاثة: إهلاك الأمم السالفة بتكذيبهم، وخلق الإنسان، وخلق الأرض وماجُعل فيها.

وعادت الآيات، في القضية السادسة إلى وصف يوم الفصل، وهو أساس ما كذّب به هؤلاء، فتوعدتهم بما كانوا يكذّبون. قال تعالى: ﴿انطلقوا إلى ماكنتم به تكذّبون... ويل يومئذ للمكذبين﴾ المرسلات/29-34 ومعنى التعقيب المكرر ويل يومئذ للمكذبين بنار هذه صفتها(26).

ويتسع السياق، فتقف الآيات تفصّل مشهداً من مشاهد ذلك اليوم، وهو عجز المكذبين عن الكلام، وقد كان متهيئاً لهم، لايجدون عناءً فيه ولامانعاً من الانتفاع به. قال تعالى في القضية السابعة: ﴿هذا يوم لاينطقون. ولايؤذن لهم فيه فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي لايقدرون على الكلام، ولايؤذن لهم فيه فيعتذرون، قال ابن كثير: وعرصات القيامة حالات. والرب تعالى يخبر عن هذه الحال تارة، وعن هذه الحال تارة، ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذٍ، ولهذا يقال بعد كل فصل من هذا الكلام ﴿ويل يومئذٍ للمكذبين﴾(27).

ومثلها القضية الثامنة، وفيها توبيخ للكفار، وتقريع لهم، وإظهار لعجزهم عن الدفع عن أنفسهم، فضلاً عن أن يكيدوا غيرهم، وإنما هو على أنكم كنتم تعملون في دار الدنيا مايغضبني، فالآن عجزتم عن ذلك، وحصلتم على وبال ماعملتم ﴿ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ بهذا(28).

وعلى عادة الأسلوب القرآني في تلوين الكلام، فإنه متى ذكر أحد الفريقين من أهل النجاة وأهل الامتحان، فإنه يعقّب بذكر الفريق الآخر(29)-

انتقل السياق إلى وصف المتقين يوم الفصل في القضية التاسعة وعقبها بقوله تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ المرسلات/45، ودلالة التعقيب هنا من وعيد المكذبين أيضاً، لأنهم لايصدقون بوقوع يوم الجزاء فسواء عندهم عذابهم وثواب المتقين فيه.

وهنا قيمة معنوية تفهم من إيراد قضية المتقين وتهديد المكذبين بها، وهي أن الانتقال إلى وصف نعيم المتقين يؤدي إلى زيادة تقريع المكذبين، ويزيد من ندمهم يوم لاينفع الندم، إذ أن هذه الأوصاف هي بالضد من أوصافهم، وأن حالهم هي بالضد من حالهم(30).

سورة الرحمن، كذلك، احتوت على تعقيب متكرر، هو قوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ في إحدى وثلاثين مرة، والتعقيب خطاب الثقلين: الإنس والجن، يجيء بعد تعداد آلاء الرحمن –جل شأنه– فيقرر أنه لايمكن جحد هذه النعم بحال، وكلما ذكر سبحانه، نعمة قرّر عليها، ووّبخ على التكذيب بها. كما يقول الرجل لغيره: أما أحسنت إليك، أما أطلقتُ لك مالاً، أما أحسنت إليك حين ملّكتك عقاراً، أما أحسنت إليك حين بنيت كل داراً. فيحسن فيه التكرار لاختلاف مايقرره(31). والتعقيب متناسب مع مابُنيت عليه السورة، وهو رحمة الخالق سبحانه، وتنعمه على الثقلين بصنوف النعم وأنواع الآلاء.

تخطيط لسورة الرحمن بحسب قضاياها

1– ﴿الرحمنُ. علّم القرآن. خَلَق الإنسان. علّمَهُ البيان. الشمسُ والقمرُ بُحسْبان. والنجمُ والشجرُ يسجدان. والسماءَ رَفَعها ووضع الميزان. ألاّ

تَطْغَوا في الميزان. وأَقيموا الوزنَ بالقِسْطِ ولاتُخسِروا الميزان. والأرضَ وضَعَها للأنام. فيها فاكهةٌ والنخلُ ذاتُ الأكمام. والحَبُّ ذو العَصْفِ والريحان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

2- ﴿خلَق الإنسانَ من صلصال كالفخَّار. وخلق الجانَّ من مارجٍ من نار.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

3- ﴿ربُّ المشرقين وربُّ المغربين.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

4- ﴿مَرَجَ البحرينِ يلتقيانِ. بينهما بَرْزَخٌ لايبغيان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

5- ﴿يخرجُ منهما اللؤلؤُ والمرجان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

6- ﴿وله الجوارِ المنشآت في البحر كالأعلام.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

7- ﴿كلُّ مَنْ عليها فان. ويَبْقى وجهُ ربِّك ذو الجلالِ والإكرام.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

8- ﴿يسألُهُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ كلَّ يومٍ هو في شأن.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

9- ﴿سَنَفْرَغُ لكما أيُّها الثَّقلان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

10- ﴿يامعشرَ الجنِّ والإنسِ إن استطعتم أنْ تنفُذُوا من أقطارِ السمواتِ والأرضِ فانفذوا لاتنفُذُون إلاّ بسُلطان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

11- ﴿يرسل عليكما شُواظٌ من نارٍ ونُحاسٌ فلا تنتصران.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

12- ﴿فإذا انشقت السماءُ فكانتْ وردةً كالدِّهان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

13- ﴿فيومئذٍ لايُسألُ عن ذنبهِ إنسٌ ولاجان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

14- ﴿يعرفُ المجرمون بسيماهم فيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

15- ﴿هذهِ جهنمُ التي يُكذِّب بها المجرمون. يطوفون بينَها وبينَ حميمٍ آن.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

16- ﴿ولمنْ خافَ مقامَ ربِّهِ جنّتان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

17- ﴿ذواتا أفنان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

18- ﴿فيهما عينانِ تجريان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

19- ﴿فيها من كلِّ فاكهةٍ زوجان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

20- ﴿متكئينَ على فُرُشٍ بطائِنُها من إستبرقٍ وجنى الجنتينِ دان.
فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾
21- ﴿فيهن قاصراتِ الطرْفِ لم يطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبلَهم ولاجان.
فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾
22- ﴿كأنَّهُنَ الياقوتُ والمُرْجان.
فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾
23- ﴿هل جزاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسان.
فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾
24- ﴿ومِن دونِهما جنّتان.
فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾
25- ﴿مدهامّتان.
فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾
26- ﴿فيهما عينانِ نضّاختان.
فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾
27- ﴿فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمان.
فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾
28- ﴿فيهن خيْراتٌ حِسان.
فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾
29- ﴿حورٌ مقصوراتٌ في الخيام.
فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾
30- ﴿ لم يطمِثْهُنَّ إنسٌ قبلهم ولاجان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

31- ﴿متكئين على رَفرفٍ خُضْرٍ وعَبْقريٍّ حِسان.

فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾

32- ﴿تباركَ اسمُ ربِّكَ ذي الجلالِ والإكرام﴾.

بُدئت السورة بما يدل عليه لفظ (الرحمن). وأنجز أثر رحمته في مسالك نعمه، وفي تعددها. ففي المقدمة ذكرت ثمانية نعم. ولَمّا كانت هذه النعم مشاهدة للخلائق، ولاطمع لأحدٍ في نسبتها إلى غيره سبحانه، وقد شهدت العقول وعرفت انفراده بإيجادها واختراعها، اتبع ذلك بتقرير الثقلين وتعجيز الفريقين، فقال لهما عقب هذه القضية ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: أمن هذه مايمكن للجاحد أن يكذب به، ويتعاطاه لغيره سبحانه، في وضوح شهادتها لخالقه؟(32). أي أنه سبحانه قدّم النعم الظاهرة الواضحة التي لايُخْتلف في نسبتهاإليه، ونفى من أول قضية مايمكن أن يقوم أمامها من جحد أو إنكار.

وتتعاقب القضايا، وهي تبتعد عن مجال النعم الظاهرة في القضية الأولى إلى نعمٍ أدق وألطف في القضية الثانية. ويكون معنى التعقيب: فبأي نعمة تكذبان أيها الثقلان. أبأن خلقكما من نفس واحدة ونقلكما من التراب والنار إلى الصورة التي أنتم عليها تكذبان(33). ونعمة خلق الإنسان والجان مما خُلقا منه تستدعي التأمل والتفكر بخلاف نعم القضية الأولى.

ثم ينتقل تقرير النعم إلىملكوت المشرقين والمغربين. وهو ألطف من خلق الإنسان والجان، لبعده واحتياجه إلى إعمال الفكر، أو هو إخراج التفكر بالنعم من مجال النفس إلى مجال الكون.

وهكذا يتدرج تقرير النعم في سبع قضايا إلى قوله تعالى: ﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن. فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ الرحمن/29-30. وهذا إخبار عن غناه تعالى عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الأحيان،وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقولهم، وإنه من شأنه أن يجيب داعياً أو يعطي سائلاً أو يفك عانياً أو يشفي عليلاً(34). وهي قضية غاية في اللطف. كأنها منتهى التدرج المتسامي الذي عليه القضايا السبع.

جاء بعد تلك القضايا سبع قضايا وعيدية، يأخذ التعقيب في كل منها دلالته من الجانب الذي ترمي إليه في الوعيد، ففي قضية ﴿يامعشر الجن والإنس....﴾ تكون دلالة التعقيب بأي نعمةٍ تكذبان، أبإخبارهِ عن تحيركم، لتحتالوا له بعمل الطاعة، واجتناب المعصية، أم بإخباره عنكم أنكم لاتنفذون إلا بحجةٍ لتستعدوا لذلك اليوم(35).

وفي قضية ﴿يُرسل عليكما شواظ...﴾ تكون دلالة التعقيب: أبإخباره سبحانه إياكم عن هذه الحالة لتتحرزوا عنها أم بغيره من النعم، لأن وجه النعمة في إرسال الشواظ من النار والنحاس على الثقلين هو ما في ذلك لهم من الزجر في دار التكليف عن مواقعه القبيح، وذلك نعمة جزيلة(36).

وكذا قضية ﴿فإذا انشقت السماء...﴾ وذلك أن وجه النعمة في انشقاق السماء حتى وقع التقرير بها هو مافي الإخبار به من الزجر والتخويف في دار الدنيا(37). إن دلالات التعقيب في هذه القضايا الوعيدية تدخل في دلالات القضايا التي مرت في أول السورة، من حيث أن وجه النعمة في الوعيد هو التذكير باجتناب المعاصي والآثام والمنكرات التي تؤدي إلى صور هذه الوعيد.

ثم انصرف السياق إلى وصف النعم المسبلة على المتقين، فجاء التعقيب في أعقاب ثماني قضايا أولى، وجاء كذلك في أعقاب ثماني قضايا أخرى، المجموعة الأولى في الثواب بجنتين، وهي قوله تعالى ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان...﴾ ويلاحظ أن التعقيب في هذه المجموعة من القضايا لم يكن كذلك الذي كان في القضية الأولى من السورة، إذ ذكر هناك ثماني نعم عُقّب عليها مرة واحدة. أما هنا فذكر ثمانية تعقيبات في موضوع واحد. هو وصف جنتي من خاف مقام ربه. ولعل كثرة التعقيب على الموضوع الواحد يدل على دلالة لها أكثر من وجه، فعظم الجنتين وجلالة قدرهما وأنهما من صنع الرحمن، وبديع مافي كل جزء منهما سبب لكثرة التعقيب. أي أن الموصوف في كل قضية يستوجب لنفاسته، أن يعقب عليه بما يقرر العظمة والإبداع،وترغيب المخاطبين بالقرآن في كل زمان ومكان،وتشويقهم بالفوز العظيم – يستدعي وصف المرغّب فيه وصفاً كاملاً مؤثراً، يتناول كل الموصوف ولايغفل عن جزئياته. ثم إن إعادة التعقيب وتكراره مما يؤثر في السامع، وينبهه على اتباع مايوصله إلى ذلك النعيم، فهو عند كل وصف حاضر البال متيقظ الحس.

أما مجموعة القضايا الثمانية الأخرى ففي وصف جنتين أخريين ﴿ومن دونهما جنتان...). وإذا كان مالاحظناها هناك يصح هنا من كثرة التعقيب على موضوع واحد ومن تعدد أوجه هذه المسألة، فإن في اختلاف وصف كل جنتين مدعاة للتساؤل. قيل: إن الأوْلين للمقربين، وهما أفضل من الأخريين وهما لأصحاب اليمين(38). وقيل: إن الأخريين دون الأوليين أي أقرب في المكان، فهما قريبتان إلى قصر الإنسان في الآخرة، ومجالسه في ذلك القصر. وذلك

ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنةٍ إلى جنةٍ على ماهو معروف من طبع البشر من حب مثل ذلك(39).

تبقّى، من السور ذات التعقيب المتكرر، سورة القمر. وقد قدمنا، فيما عرضنا له من متلاتها، مايكفي لملاحظة نهج تعقيبها ولابد من الإشارة إلى أن للتعقيب المتكرر في كل سورة شأناً بارزاً في تثبيت جرس السورة على وتيرة واحدة. وهذا يشدُّ السامع إلى جوها الذي ترددت فيه فواصل التعقيب. ولاأوضح من سورة الرحمن على ذلك. إذ انتظم التكرار مع إيقاع آياتها في توحيد الصوت الذي يقرن الآذان بجلالة الألف والنون من (الرحمن) إلى آخر آية. وإن في تكرير التعقيب تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور. ألا ترى إلى أنه لاطريق إلى حفظِ العلوم إلا ترديد مايراد حفظُهُ منها. وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب، وارسخ في الفهم، واثبت للذكر، وأبعد عن النسيان، ولأن هذه القصص (القضايا) طرقت بها آذانٌ وُقْرٌ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير —لعل ذلك يفتح آذاناً، أو يفتق ذهناً أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ(40).

ب- السور ذات التعقيب الغالب:

قد يحظى تعقيب واحد بتكرار أعلى مما هو عليه غيره في السورة، من ذلك التعقيب بقوله تعالى: ﴿كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين﴾ في سورة الصافات، إذ أخذ نسبة الثلث من تعقيباتها

والسورة مبنية على موضوع رئيس، هو توحيد ربوبية الله وألوهيته في قوله تعالى: ﴿إن إلهكم لواحد﴾ الصافات/4. ومن مظاهر توحيده تعالى قدرته

على مجازاة المجرمين وقال تعالى فيهم: ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون. إنا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ الصافات/33-34. وقدرته، كذلك، على مجازاة المحسنين ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾. وكانت هذه الآية تعقيبا عقب تكراره سائر التعقيبات، فهي أثر من آثار الموضوع الرئيس اتخذت دلالات مختلفة جراء ارتباطه بقضايا مختلفة.

ورد التعقيب في قصص الأنبياء، في نسق تكاد تتكرر معظم تركيباته، ففي قصة نوح قال تعالى: ﴿ولقد نادانا نوحٌ فلَنِعم المجيبون. ونجيناه وأهلَهُ من الكرْبِ العظيم. وجعلنا ذريتَهُ هم الباقين. وتركنا عليهِ في الآخرين. سلامٌ على نوحٍ في العالمين.

إنّا كذلك نجزي المحسنين. إنّه من عبادِنا المؤمنين﴾ الصافات/75-81.

ومعنى التعقيب أي هكذا نجزي من أحسن من عباد في طاعة الله تعالى، نجعل له لسان صدق، يُذكر به بعده حسب مرتبته في ذلك(41).

وفي قصة ابراهيم قال تعالى:

﴿وإنّ من شيعتِهِ لابراهيم إذ جاء ربَّه بقلبٍ سليم. إذ قالَ لأبيه وقومِه ماذا تعبدون. أإفكاً آلهةً دونَ الله تريدون. فما ظنّكم بربِّ العالمين. فنظرَ نظرةً في النجومِ. فقالَ إني سقيم. فتولّوا عنه مُدْبرين. فراغَ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. مالكم لاتنطِقون. فراغ عليهم ضربا باليمين. فأقبلوا إليه يزِفّون. قال أتعبدون ماتنحِتون. والله خلقَكم وماتعملون. قالوا ابنوا له بُنياناً فألقوه في الجحيم. فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين. وقال إني ذاهبٌ إلى ربي سيهدين. ربٌّ هَبْ لي من الصالحين. فبشّرناه بغلامٍ حليم. فلما بلَغ معه السعيَ قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحُك فانظر ماذا ترى قال ياأبتِ افعل ما تؤمرُ ستجدني

إنْ شاءَ الله من الصابرين. فلمّا اسلما وتلّهُ للجبين. وناديناه أنْ ياابراهيمُ قد صدّقتَ الرؤيا إنا كذلك نُجزي المحسنين. إنَّ هذا لهو البلاءُ المبين. وفديناه بذِبْح عظيم. وتركنا عليه في الآخرين. سلامٌ على ابراهيم.

كذلك نجزي المحسنين. إنّه من عبادِنا المؤمنين﴾ الصافات/83-111.

فالتعقيب الأول ﴿إنا كذلك نجزي...﴾ معناه كما جزيناه بالعفو عن ذبح ابنه نجزي من سلك طريقهما في الإحسان والاستسلام والانقياد لأمر الله(42). والتعقيب الثاني يستوفي دلالته من سياق القضية، فالله يجزي المحسنين كما جزى ابراهيم من بقاء ذكره مقروناً بالسلام إلى ماشاء الله. بل إن إرداف التعقيب بقوله تعالى:﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ يزيد الدلالة وضوحاً، إذ أنه تعليل الجزاء بتلك التكرمة الممنوحة للأنبياء، بأنه كان عبداً مؤمناً، وفي هذا حث على الإيمان، وترغيب في تحصيله، والتمثل بمن كان صفته. وجاء التعقيب الأول مثل الجمل المعترضة إشادةً بجلالة ابراهيم، وإعلاماً بعظيم جلاله، ولمّا طال الكلام أعيد التعقيب ثانية كالتعقيبات السالفة(43).

في قصة موسى وهارون قال تعالى:

﴿ولقد مَنَنّا على موسى وهارون. ونجّيناهما وقومَهما من الكَرْب العظيم. ونصرناهما فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتابَ المستبين. وهديناهما الصراطَ المستقيم. وتركنا عليهما في الآخرين. سلامٌ على موسى وهارون. إنا كذلك نجزي المحسنين. إنّهما من عبادنا المؤمنين﴾ الصافات/114-122.

ومعنى التعقيب أنه سبحانه يفعل بالمحسنين مثلما فعل لموسى وهارون بأن يجزيهما ذلك الجزاء على طاعتهما. وفي هذا دلالة على أن ماذكره تعالى في التعقيب كان على وجه الثواب لهما ولمن تقدم ذكره من الأنبياء، لأن لفظ الجزاء

يفيد ذلك و﴿أنهما من عبادنا المؤمنين﴾ أي من جملة عبادنا المصدقين بجميع ماأوجبه تعالى عليهم، العالمين به(44). وكذلك قصة الياس. ولكن قصة لوط وقصة يونس لم تعقبا بما سلف. ويلاحظ أنهما بُدئتا بالإشارة إلى إرسالهما، قال تعالى في أول قصة لوط ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين﴾ الصافات/133. وقال تعالى في أول قصة يونس ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ الصافات/139. وجاء في آخر السورة قوله تعالى ﴿وسلام على المرسلين﴾ الصافات/181(45).

ومن السور التي غلب فيها تعقيب واحد سورة الروم، حيث كان التعقيب بقوله تعالى: ﴿إنَّ في ذلك لآيات...﴾ يشكل نسبة الثلث من تعقيباتها، وهي تبدأ بالإخبار عما لم يقع بعد، وتنبئ به، وهو أنَّ الروم سيغلبون الفرس، وسيفرح المؤمنون لغلبهم لأنهم أهل كتاب. المغزى من هذا الإخبار هو التنبيه على قدرة الله تعالى على إحكام أمر المستقبل، كما كان قادراً على الماضي والحاضر. وأن أهم أمر في المستقبل هو الإيمان بالبعث وإعادة الأموات أحياء، ليتمَّ حسابُهم، وفي هذا حثٌّ على توحيد الله وإطاعته. قال تعالى في السورة نفسها: ﴿الله يبدأ الخلقَ ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾ وقال أيضاً: ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾الروم/11و19.

وتمضي الآيات على الإكثار من الدلائل التي تثبت قدرته تعالى على خلق الأشياء المختلفة، وصولاً إلى تيسير فهم قدرته علىالإعادة بعد الموت، أي الاستدلال بالمبدأ على المعاد، فكانت القضية الأولى في هذا السياق قوله تعالى: ﴿ومن آياته أنْ خلَقكم من ترابٍ ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون. ومن آياته أنْ خلَق لكم من أنفسِكم أزواجاً لتسكُنوا إليها وجَعَلَ بينكم مودةً ورحمةً إن في ذلك

لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾الروم/20–21.

والتفكر ترتيب أمور معلومة لتؤدي إلى مجهول(46). وقد تناسب التعقيب مع القضية من حيث أن خلق الإنسان من تراب، وجعله لحماً ودماً وذا قدرة على الحركة والانتشار، وأن مَنْ خلق الأزواج مِن شكل أنفسكم ومن جنسكم وغرس المحبة بين الزوجين من غير صلة رحم، إلى مايتعلق بهذا ويرجع إليه، لايحصل عن عجائبه، ولايحاط ببعض الحكمة إلا بمداومة الفكر وطول الاعتبار، لذلك قال تعالى ﴿.. لقوم يتفكرون﴾(47).

القضية الثانية هي قوله تعالى: ﴿ومن آياته خلقُ السمواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتكم وألوانِكم

إنَّ في ذلك لآياتٍ للعالِمين﴾ الروم/22.

وقد انتقل سياق الدلائل على التوحيد والقدرة إلى العام الواضح الظاهر، الذي لايحتاج إلى تفكر أو تدبر فالله هو الذي خلق السموات، وما فيهن من أجرام وقوانين، وخلق الأرض، ومافيها من مخلوقات. ومن المخلوقات الإنسان، وفيه تظهر القدرة على تنويع الألسنة والألوان، ولمّا كانت هذه الأمور بادية بارزة، يحصل المقصود منها لكل أحد، قال تعالى: ﴿..... لآيات لعالمين﴾.

وقال تعالى في القضية الثانية: ﴿ومن آياتِهِ منامُكم بالليلِ والنهارِ وابتغاؤكم من فضلِه

إنَّ في ذلك لآيات لقومٍ يسمعون﴾ الروم/23

أي لقوم يسمعون بالآذان الواعية(48). التي هي مدعاة التفكر، لأن من لايتفكر في شيء لاينتفع به، فكأنه لم يسمعه(49). والتفكر يقضي بأن هذه الأشياء من صنعة الله سبحانه وجلال قدرته.

وقال تعالى في القضية الرابعة: ﴿ومن آياته يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً ويُنزِّلُ من السماء ماءً فيحيي به الأرضَ بعدَ موتها
إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ الروم/24

والعقل هو العلم بصفات الأشياء، حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها وغير ذلك(50). ولمّا كانت رؤية البرق خوفاً وطمعاً، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، لاتحصل ثمرة الاعتبار به إلا لمن أطال الاعتبار وأمعن النظر وبالغ في ذلك، ناسب تعقيب القضية بـ﴿... قوم يعقلون﴾(51).

وجاءت الآيات التاليات لهذه القضية على السياق نفسه، من بيان قدرته تعالى على الإعادة. قال تعالى: ﴿ومن آياته أنْ تقومَ السماءُ والأرضُ بأمرِهِ ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرضِ إذا أنتم تخرُجون﴾الروم/25.

وفي القضية الخامسة قال تعالى: ﴿أو لم يروا أنَّ الله يبسِطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ
إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ الروم/37.

وذلك لأن حصيلة الاستدلال بما تقدم من الآيات الدالة على قدرة الله الموحية بملكوت السموات والأرض الواضحة في ربوبيته يوم البعث، تدعو إلى الإيمان بسلطانه تعالى، على بسط الرزق لمن يشاء، وقبضه عمن يشاء، بحسب حكمته وعدله، فناسب ذلك أن يعقب بـ﴿.. لقوم يؤمنون﴾ أي يؤمنون بالله(52).

*

سورة الحج من السور التي غلب فيها تعقيب مركب من (ان) مع لفظ الجلالة (الله) بنسبة 30/21 من تعقيبات السورة. والمقصور الرئيس فيها أمره

تعالى الناس بالتقوى، والتقوى هي الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته(53). والعقوبة الواردة في هذه السورة هي العذاب الأليم الذي يعقب يوم الحساب. وقد حذّر -جل شأنه- من أهوال ذلك اليوم بتصويره تصويراً مفزعاً، شكّل مشاهده مما يعرفه الناس معرفة تامة، وهو ظاهرة رضاعة الطفل التي يعرفها الناس كلهم في بيوتهم، وتمارسها أمهاتهم وزوجاتهم في أثناء حياتهم كل يوم. وكذا حمل النساء، واضطراب السكران، ليخرج من ذلك كله إلى تقريب صورة فزع الناس واضطرابهم واختلال نواميس حياتهم في ذلك اليوم.

بدأت السورة بخطاب الناس كلهم. قال تعالى: ﴿ياأيها الناس اتّقوا ربُكم إنَّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيم. يومَ ترونها تَذهَلُ كلُّ مُرضِعةٍ عمّا أرضعتْ وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حمْلَها وترى الناسَ سُكارى وماهم بسكارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديد﴾ الحج/1-2.

وليس غرس الإيمان في نفوس الناس التي تراكم عليها صدأ الكفر بالأمر السهل، لأن من الناس من يعرض عنه فلا علم، فهو يطيع من لاتتوجب طاعته، ويشرك غير الله في الإطاعة والاتباع. قال تعالى: ﴿ومِن الناسِ مَنْ يجادلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ ويتّبعُ كلَّ شيطانٍ مريد﴾ الحج/3.

إن دون نور الإيمان ظلمات موحشات وحُجباً كثيفات، على الإنسان أن يتهيأ لاختراقها وقطع سبلها، ومن جملة الإعداد أن يتيقن بالمشاهدة الحسية، ويستدل بها على طرق التقوى الموصلة إلى الإيمان المطلق بالله. فقدّمت الآيات أدلةً على البعث بعد الموت أو إعادة الناس أحياءً بعد مماتهم، ببدء خلق الإنسان من تراب، وهو مادة ميتة لاروح فيها وبتحويله إلى مادة حية، وهي النطفة ثم العلقة، وتتدرج حالات خلق الإنسان إلى أن يرى النور طفلاً ثم ينمو ويكبر

ويصبح سوياً، فالقدرة على تحويل التراب إلى نطفة، والقـدرة على تحويـل النطفـة علقة وهذه إلى مضغـة، وهكـذا إلى أن تنتهـي مشـاهد حيـاة الإنسـان، إن تلـك القدرة تستطيع أيضاً بعث الأمـوات أحيـاء يـوم الحسـاب، قـال تعـالى: ﴿ياأيهـا الناس إنْ كنتم في ريبٍ من البعثِ فإنا خلقناكم من ترابٍ ثم مـن نطفـةٍ ثـم مـن عَلَقةٍ ثم من مضغةٍ مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ لُنبيِّنَ لكم ونُقِرُّ في الأرحامِ مانشاءُ إلى أجـلٍ مسمى ثم نخرجُكم طِفْلاً ثم لتبلغوا أشدَّكم ومنكم مَنْ يُتوفّى ومنكم مَنْ يُردُّ إلى أرذلِ العمرِ ليلا يعلمَ من بعدِ علمٍ شيئاً...﴾ الحج/5.

وعلى صعيد الإنسان الفرد يقدم الله سبحانه دليـلاً آخـر، يخـاطب فيـه الإنسان من حيث هو فرد ليستدل بنفســه، وليتفكـر بـالدليل بعيـداً عـن النـاس، وذلك الدليل واضح المغزى متكرر الحدوث، وهـو حيـاة الأرض الميتـة بـالزرع. قال تعالى: ﴿ وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهـتزتْ وربـتْ وأنبتـتْ من كلِّ زوجٍ بهيج﴾ الحج/5.

ثم جاءت آيتان معقبتان: ﴿ذلك بأنَّ الله هو الحقُ وأنّه يحيي الموتى وأنّه على كلِّ شيء قدير. وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لاريبَ فيها وأنَّ الله يبعثُ مَنْ في القبور﴾ الحج/6-7.

وهنا خمسة تعقيبات على خمس قضايا مرت في أوائل السورة:

الأولى: إنه سبحانه هو الرب الواجبة تقواه على كل الناس، وهو الذي يعذّب من يكفر به عذاباً شديداً، وهو الذي خلق النـاس مـن تـراب أول مـرة، كمـا أحيا الأرض الميتة بالماء المنزل، وتعقيبها بقوله تعـالى ﴿ذلـك بـأنَّ الله هـو الحق﴾.

الثانية: أنه قدر على خلق الإنسان من تراب، وقدر على إماتته شيئاً فشيئاً، كما أحيا الأرض بعد موتها، وتعقيبها ﴿إنه يحيي الموتى﴾.

الثالثة: إنه، كما يقدر على الإحياء بعد الإماتة، يقدر على الإماتة بعد الإحياء كإسقاط الجنين أثناء الحمل، والوفاة المبكرة والمتأخرة. قال تعالى ﴿.... ونقرّ في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ومنكم من يُتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ أي أنه يقدر على الشيء وضده، وتعقيبها ﴿إنه على كل شيء قدير﴾.

الرابعة: إنه سبحانه الحق، الخالق، القادر على كل شيء، وإنه تعالى قال متوعداً ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ وتعقيبها ﴿إن الساعة آتية لاريب فيها﴾.

الخامسة: أخبر سبحانه عن وقوع الساعة فهي حقيقة واقعة، استدلت عليها العقول بما أدركته حواسها، فآمنت بها إنها من خلق الله. وتعقيبها ﴿إن الله يبعث من في القبور﴾. أي يحييهم بعد موتهم للحساب عند قيام الساعة.

وتسير قضايا السورة وتعقيباتها على الخيط المربوط طرفه بالمقصور الرئيس، وهو الأمر بتقوى الله. قال تعالى في صنف من الناس. ﴿ومِن الناسِ من يجادلُ في اللهِ بغير علم ولا هدى ولاكتابٍ منير. ثاني عطفهِ ليُضلَّ عن سبيلِ اللهِ له في الدنيا خزيٌ ونذيقُهُ يومَ القيامةِ عذابَ الحريقِ ذلك بما قدمت يداك﴾ والتعقيب ﴿وأنَّ الله ليسَ بظلامٍ للعبيد﴾ الحج/8-10.

حيث أن جزاء من يجادل في المعبود الحق بلا علم ضروري ولا استدلال ولانظر ولاوحي مع تكبر وخيلاء(54)، هو الخزي في الدنيا وعذاب الحريق في الآخرة. وهذا الجزاء بسبب عمله المشين، وجاء التعقيب دالاً على أن الله

سبحانه لايظلم ولايعاقب ابتداءً(55). وهي دلالة ترتبط بدلالة التقوى من حيث أن من لايتق العقوبة تنله وهذا من عدل الله سبحانه.

وفي سياق الجزاء العادل بعقوبة الكفار في الدنيا والآخرة، وبثواب المؤمنين بالجنة يأتي قوله تعالى: ﴿... إن الله يفعل مايريد﴾ الحج/14. معقباً قضية الجزاء، مشيراً إلى قدرته المطلقة، بأنه سبحانه يفعل ما يريد بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة،وبأعدائه وأهل معصيته من الإهانة، لايدفعه دافع ولايمنعه مانع(56). وعلى هذا المعنى يأتي قوله تعالى: ﴿وكذلك أنزلناه آياتٍ بيناتٍ وأنَّ اللهَ يهدي منْ يريدُ﴾ الحج/16. وقوله تعالى:﴿... ومَنْ يُهِنِ اللهُ فما له من مُكرِم إنَّ اللهَ يفعلُ مايشاءُ﴾ الحج/18.

والجامع بين هذه التعقيبات الثلاثة أن الإخبار فيها بجملة فعلية، فعلها مضارع، وهذا يعني توكيد ماأُسند إلى الله سبحانه، وتجدد حدوثه في الحاضر والمستقبل، فالله سبحانه (يفعل مايريد) و(يهدي من يريد) و(يفعل مايشاء) بصورة متحققة متجددة في الحاضر والمستقبل.

وجاء التعقيب بقوله تعالى ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ مرتين. الأولى في سياق الإذن بالقتال ﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإنَّ اللهَ على نصرهم لقدير. الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاّ أنْ يقولوا ربُّنا اللهُ ولولا دفعُ اللهِ الناس بعضَهم ببعضٍ لَهُدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً ولَيَنصُرَنَّ اللهُ من ينصُرُهُ إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيزٌ﴾ الحج/39-40. وصف سبحانه نفسه بالقوة والعزة، وذلك متناسب مع سياق القضية، حيث أنه بقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لايقهره قاهر، ولايغلبه غالب، بل كل

شيء ذليل لديه، فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور(57).

الثانية في سياق ضرب المثل بقوة من يُعبد من دون الله. قال تعالى: ﴿ياأيُّها الناسُ ضُرب مثلٌ فاستمعوا له إنَّ الذين تَدْعون من دونِ اللهِ لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإنْ يسلبَهم الذبابُ شيئاً لايستنقذوه منه ضُعفَ الطالبَ والمطلوبُ ماقَدَروا الله حقَّ قدرِهِ إنَّ الله لقويٌّ عزيز﴾ الحج/73–74. فكان التعقيب يدل على أنه هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، وقد عزَّ كل شيء، فقهره وغلبه، فلا يُمانع ولايُغالب لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار(58).

وكان التعقيب بقوله تعالى ﴿إن الله سميع بصير﴾ مرتين أيضاً. الأولى في سياق أن الله ينصر المظلوم الذي بُغي عليه، فجاء التعقيب مردوفاً بآية تدل على فائق قدرته سبحانه، وهي إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، قال تعالى: ﴿ذلك ومَنْ عاقبَ بمثْلِ ماعُوقِبَ به ثم بُغيَ عليه لينْصُرَنَّه اللهُ إنَّ اللهَ لعَفوٌّ غفور. ذلك بأنَّ اللهَ يولِجُ الليلَ في النهارِ ويولجُ النهارَ في الليلِ وأنَّ اللهَ سميعٌ بصير﴾ الحج/60–61. ومعنى التعقيب أنه سميع لما يقولون، بصير بما يفعلون، وقد قرن هذا بإيلاج الليل في النهار،والنهار في الليل، دلالة على أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما، فلا يخفى عليه مايجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي(59).

والثانية في الرد على من أنكر أن يكون الرسول من البشر، حيث بيَّن سبحانه أن رسله نوعان: ملائكة وبشر. قال تعالى ﴿الله يصطفي من الملائكةِ

رُسُلاً ومن الناسِ إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ﴾ الحج/75. ودلَّ التعقيب على أنه سميع لأقوال عباده، بصير بهم عليم بمن يستحق ذلك منهم(60).

إن التعقيب الغالب في سورة الحج يشدّ القضايا التي اشتملت عليها إلى المقصود الرئيس منها، ويجعلها بناء متماسكاً، ويبين التناسب المطرد بين التعقيب والقضية.

ج- السور ذات التعقيب المتنوع:

وهي سائر السور حيث لم تلتزم تعقيباً متكرراً ولاغالباً، وإنما جاء تعقيبها متنوعاً، ذا صيغ مختلفة بحسب ماعرضت له السورة من قضايا. ومنها سورة (المؤمنون) التي عرضت للدعوة إلى عبادة الله سبحانه، بثلاث شعب تؤدي إليه. وهي:

- تقرير الوحدانية لله الواحد الحق.
- تثبيت النبوة لمحمد -صلى الله عليه وسلم-.
- حقيقة البعث والحساب.

ويتبع هذه الشعب قضايا متصلة بها، تكمل معناها ويتم بها المراد.

غلب على قضايا سورة (المؤمنون) ذكر إنكار الكفار للنبوة التي هي مدخل إلى الشعبتين الأخريين. وقد أنكروها من حيث كون النبي بشراً. أي أنهم أنكروها بشريةً يُوحى بها إلى بشر من الناس، وذلك ترفعاً منهم عن أن يرسل إليهم من هو مثلهم. فكانت السورة تبين وصف البشرية وماتنازعوا فيه منها، وبأي وجه تكون على أكمل وجوهها، حتى تستحق الاصطفاء من الله تعالى(61). وهذا مدار القضية

الأولى. قال تعالى: ﴿قد أفلحَ المؤمنون. الذين هم في صلاتِهم خاشِعون. والذين هم عن اللغوِ مُعْرِضون. والذين هم للزكاةِ فاعلون. والذين هم لفروجِهم حافظون. إلاّ على أزواجِهم أو ماملكتْ أيمانُهم فإنّهم غيرُ مَلومين. فمن ابتغى وراءَ ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتِهم وعهدِهم راعون. والذين هم على صلواتِهم يحافظون﴾ وعقبت بقوله تعالى: ﴿أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوسَ هم فيها خالدون﴾ المؤمنون/1-11. أي وأولئك الأحقاء بأن يسمّوا ورّاثاً دون من عداهم للفردوس(62).

ومن معالم البشر الذين مرت أوصاف المؤمنين منهم في القضية الأولى، أنهم خلقهم الله من طين، قال تعالى في القضية الثانية: ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طين. ثم جعلناهُ نطفةً في قرارٍ مكين. ثم خلقنا النطفةَ علقةً فخلقنا العلقةَ مضغةً فخلقنا المضغةَ عظاماً فكسونا العظامَ لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ وعُقبت بقوله ﴿فتباركَ اللهُ أحسنَ الخالقين﴾ المؤمنون/12-13. أي تعالى الله، ودام خيره ولاتفاوت في خلقه(63).

ثم جاءت قصص الأنبياء، وفيها ذكر لإنكار الكافرين بشرية الرسل، قال تعالى في قصة نوح: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومِهِ فقالَ ياقومي اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيرُهُ أفلا تتّقون. فقال الملأُ الذين كفّروا من قومِهِ ماهذا إلا بشرٌ مثلُكم يُريدُ أنْ يتفضلَ عليكم ولو شاءَ اللهُ لانزلَ ملائكةً ماسمِعنا بهذا في آبائِنا الأولين﴾ إلى قوله تعالى ﴿وقل ربِّ أنزلني مُنْزَلاً مباركاً وأنتَ خيرُ المنزلين﴾ وعقبت بقوله تعالى ﴿إنَّ

في ذلك لآياتٍ وإن كنّا لُمبتلين﴾ المؤمنون/23-30. أي إن في هذا الصنيع، وهو إنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين لآيات، وهي الحجج والدلالات الواضحات على صدق الأنبياء، فيما جاءوا به من الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، قادر على كل شيء، عليم بكل شيء، وقد اختبر العباد بإرسال المرسلين(64).

وعطفت على قضيةنوح قضية قوم آخرين هم عاد قوم هود(65)، الذين أنكروا بشرية الرسول، وجاء فيها التنصيص على أن الرسول يأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون. تنبيهاً على إنكارهم ذلك منه. قال تعالى: ﴿ثم أنشأنا من بعدِهم قَرْناً آخرين. فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيرُهُ أفلا تتّقون. وقال الملأُ من قومِهِ الذين كفروا وكذّبوا بلقاءِ الآخرة وأترفناهم في الحياةِ الدنيا ماهذا إلا بشرٌ مثلُكم يأكلُ مما تأكلون منه ويشربُ مما تشربون﴾ إلى قوله ﴿فأخذتهم الصيحةُ بالحقِّ فجعلناهم غثاءً﴾ وعقبت بقوله تعالى ﴿فبعداً للقومِ الظالمين﴾ المؤمنون/31-41. وهو دعاء بهلاك هؤلاء(66).

ثم ذكر سبحانه قضية أقوام أخرى هم أقوام صالح ولوط وشعيب وغيرهم(67). وهؤلاء يشتركون مع من مضوا. فنصت الآيات على تكذيبهم الرسل، فجعلهم الله سبحانه أحاديث يُتلهى بها ويُتعجب مما أصابهم من إهلاك. قال تعالى: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين. ماتسبقُ من أمةٍ أجلَها وما يستأخرون. ثم أرسلنا رسلَنا تَتْرى كلما جاءَ أمةً رسولُها كذّبوه فأتبعنا بعضَهم بعضاً وجعلناهم أحاديثَ فبعداً لقوم لايؤمنون﴾ المؤمنون/42-44 وتعقيبها دعاء أيضاً، بالهلاك.

ويلاحظ أن تعقيب القضية الماضية ﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾ أما تعقيب هذه فهو ﴿فبعداً لقوم لايؤمنون﴾ وسبب الاختلاف أن تلك القضية كانت في أمة معينة واحدة وقد تبين حالها وقبيح ماارتكبته من ذنب، في تكذيب الرسول،وفي إنكار البعث والحساب، فصار العلم بكفرهم واضحاً، فقيل ﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾. أما في هذه القضية فقد جاء قوله: ﴿فبعداً لقوم لايؤمنون﴾ بعدإجمال ذكر طوائف وأمم اجتمعوا في تكذيب الرسل، و لم تُفصل أحوال كذبهم وأقوالهم فيه كما فصلت في القضية الماضية، فناسب ذلك إجمال الوصف بعدم الإيمان(68).

قضية موسى وهارون اختلف تعقيبها. قال تعالى: ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارونَ بآياتِنا وسلطانٍ مبين. إلى فرعونَ وملئِهِ فاستَكبَروا وكانوا قوماً عالين. فقالوا أنؤمنُ لبشرينِ مثلِنا وقومُهما لنا عابدون. فكذبوهما فكانوا من المُهْلكين. ولقد آتينا موسى الكتابَ﴾ وتعقيبها ﴿لعلّهم يهتدون﴾ المؤمنون/45-49. أي لعل قوم موسى وهارون يعملون بشرائع التوراة ومواعظها، لأن الله سبحانه أنزل التوراة على موسى بعد هلاك فرعون وقومه(69). و لم يكن تعقيبها بالدعاء، وإنما ببيان سبب إنزال التوراة وفيها إشارة إلى سبب إنكار رسالتهما، هي أنهما بشران مثلهم.

بعد ذلك، خاطب سبحانه الرسل، وأمرهم بأن يأكلوا من الطيبات، والأمر بالأكل إشارة إلى بشرية الرسل، وأنهم يأكلون مما يأكل الناس، وأمرهم كذلك، بالعمل الصالح. وعقب خطابهم بقوله

تعالى: ﴿إني بما تعملون عليم﴾ المؤمنون/51. وهو بيان السبب الداعي إلى الأمر بإصلاح العمل، لأن العاقل إذا عمل لمن يعلم عمله، ويجازيه على حسب مايعمل من عمله، وبقدر استحقاقه، أصلح العمل(70).

وخصَّ سبحانه الرسول الكريم بوصفه أنه لايريد من دعوته أجراً، وإنما يريد دعوة الناس إلى عبادة الحق. وأن أجره في الدنيا والآخرة على الله،وهو أفضل من أعطى. قال تعالى: ﴿أم تسألهم خَرْجاً فَخَراجُ ربِّك خيرٌ وهو خيرُ الرازقين﴾ المؤمنون/72 والتعقيب ﴿وهو خير الرازقين﴾ يبين أنه يجوز أن يكون في العباد من يرزق غيره بإذن الله(71). ولكن المراد هنا، أن الله أفضل رازق، وآجر معطٍ.

وأخبر سبحانه عن قدرته العظيمة، وسلطانه القاهر في خلق الخلق،ونشرهم في الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم. قال تعالى: ﴿وهو يحيي ويميتُ وله اختلافُ الليلِ والنهارِ أفلا تعقِلون﴾ المؤمنون/80. أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء، وعزَّ كل شيء وخضع له كل شيء(72). إن هذا التعقيب جاء في سياق توحيد الله بإفراد أفعاله التي اختص بها، وفي معناه توبيخ على عدم التفكير في تلك الأفعال،وعلى نسق هذا التعقيب يأتي تعقيب آخر في قوله تعالى: ﴿قلْ لمن الأرضُ ومَنْ فيها إنْ كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكَّرون﴾. وقوله: ﴿قل مَنْ ربُّ السمواتِ السبعِ وربُّ العرشِ العظيمِ سيقولون لله قلْ أفلا تتقون﴾.

وقوله:﴿قلْ مَنْ بيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو يُجيرُ ولايُجارُ عليه إنْ كنتم تعلمون. سيقولون لله فأنّى تُسْحَرون﴾ المؤمنون/84-89.

وكل توبيخ في هذه القضايا مناسب للتذكير الواقع في القضية، ففي القضية الأولى قال تعالى ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾ والمراد الأرض ومن فيها، وما اشتملت عليه من بحار وأنهار وأشجار وجبال وغير ذلك، ولّما أقروا بذلك كله أنه ملك الله ومِن خلقهِ، فهلاّ اعتبروا بما في الأرض من الآيات، واستدلوا بذلك على نفي شريكه ونده.

ولّما قال تعالى: ﴿قلْ منْ ربُّ السمواتِ السبعِ وربُّ العرشِ العظيم﴾ وخلقُ هذا أعظم من خلق الإنسان وخلق الأرض، وأنهم أقروا بأنه لله، عقّبه بـ ﴿أفلا تتقون﴾ أي: أفلا تخافونه؟ فلا تشركوا به وتعصوا رسله(73).

ولّما قال تعالى: ﴿قل منْ بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو يُجير ولايُجارُ عليه إنْ كنتم تعلمون﴾ وأقروا بذلك أيضاً، كما أقروا بما سلف، كانو كمن فقد عقله أو سُحر، فاختل نظره وعقله فوبخهم بقوله: ﴿فأنّى تسحرون﴾ فناسب كل قضية تعقيبها(74).

وفي سياق تأكيد أدلة التوحيد، قال تعالى: ﴿مااتخذَ اللهُ من ولدٍ وما كانَ معه من إلهٍ إذنْ لذهبَ كلُّ إلهٍ بما خَلَق ولعلا بعضُهم على بعضٍ﴾ وتعقيبه ﴿سبحانَ اللهِ عما يصفون﴾ المؤمنون/91.

وفي هذا القضية دلالة عجيبة على التوحيد، وهي أن كل واحد من الآلهة يكون قادراً لذاته، فيؤدي إلى أن يكون قادراً على كل مايقدر

عليه غيره من الآلهة، فيكون غالباً ومغلوباً من حيث أنه قادر لذاته، وأيضاً فإن من ضرورة كل قادرين صحة التمانع بينهما، فلو صحَّ وجود إلهين صحَّ التمانع بينهما، من حيث أنهما قادران. وامتنع التمانع بينهما من حيث أنهما قادران للذات، وهذا محال(75)، وجاء التعقيب ينزه الله سبحانه عما وصفوه به، وأردفه بقوله: ﴿عالم الغيبِ والشهادةِ فتعالى عما يشركون﴾ المؤمنون/92 فدلَّ على أنه سبحانه عالم بما كان، وبما سيكون، وبما لم يكن أنْ لو كان كيف كان يكون. ومن كان بهذه الصفة لايكون له شريك، لأنه الأعلى من كل شيء في صفته(76).

وكذا جاءت التعقيبات الباقية من السورة، وهي قوله تعالى: ﴿...كلا إنّها كلمةٌ هو قائلُها ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثون﴾ المؤمنون/100. وقوله تعالى: ﴿ فمنْ ثقُلتْ موازينُهُ فاولئك هم المفلحون. ومَنْ خفّت موازينُهُ فاولئك الذين خسِروا أنفسهم في جهنّمَ خالدون﴾المؤمنون/102-103. وقوله تعالى: ﴿....فتعالى الله الملك الحق لاإله إلا هو رب العرش الكريم﴾ المؤمنون/116. وكل تعقيب مناسب لقضيته، وكلها مشدودة إلى مابُنيت عليه السورة أولاً.

*

ومنها سورة الواقعة التي غلب على آياتهاوصف يوم الجزاء، حيث يُجزى كل إنسان بما قدمت يداه. وذلك لبيان حقيقة البعث بعد الموت، وقد مهّدت السورة لذلك بمشهد سريع من مشاهد يوم القيامة، تتحرك فيه الأرض حركة فظيعة، وتتفتت فيه الجبال، وهي العظيمة

الجسم، إلى مايشبه الغبار المتطاير في شعاع الشمس المتسلل إلى غرفة مظلمة، ويُصنف الناس ثلاثة أصناف مختلفة الجزاء:

الأول: السابقون، وهم في أعلى درجات النعيم.

الثاني: أصحاب الميمنة وهم عامة المؤمنين.

الثالث: أصحاب المشأمة وهم الكافرون.

ويتفرع وصف مآل كل صنف إلى ثلاث قضايا:

الأولى- قوله تعالى في السابقين:

﴿أولئك المقرَّبون. في جنّات النعيم. ثُلّةٌ من الأولين. وقليلٌ من الآخرين. على سُرُرٍ مَوضونة. متكئين عليها متقابلين. يَطوفُ عليهم ولدانٌ مخلّدون. بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَعين. لايُصدَّعون عنها ولايُنْزِفون. وفاكهةٍ مما يتخيَّرون. ولحمِ طيرٍ مما يشتهون. وحورٌ عينٌ. كأمثالِ اللؤلؤِ المكنون.

جزاءً بما كانوا يعملون﴾ الواقعة/11-24.

ومعنى التعقيب: نفعل ذلك لجزاء أعمالهم وطاعاتهم التي عملوها في دار التكليف في الدنيا(77).

الثانية- قوله تعالى في أصحاب اليمين أو الميمنة:

﴿وأصحابُ اليمينِ ماأصحابُ اليمين. في سدْرٍ مخضود. وطلْحٍ منضود. وظلٍّ ممدود. وماءٍ مسكوب. وفاكهةٍ كثيرة. لامقطوعةٍ ولاممنوعة. وفُرُشٍ مرفوعة. إنّا أنشأناهنَّ إنشاءً. فجعلناهن أبكاراً. عرباً أتراباً. لأصحابِ اليمين. ثُلّةٌ من الأولين. وثُلّةٌ من الآخرين﴾ الواقعة/27-40.

أي جماعة من الأولين ومن الآخرين. ويلاحظ أنه سبحانه عقّب قضية السابقين ببيان جزائهم وذلك لأنه أجزل من جزاء أصحاب اليمين، فرغّب في الاحتذاء بهم والعمل بما عملوا. أما قضية أصحاب اليمين فقد عقّبت بالإشارة إلى عددهم، ولمّا كان كثيراً بالإضافة إلى عدد السابقين، فقد عقّب به ترغيباً للانخراط في سلكه، وذلك لأن مَنْ سبق إلى إجابة محمد -صلى الله عليه وسلم- أقل ممن سبق إلى إجابة النبيين قبله كلهم(78).

الثالثة- قوله تعالى في أصحاب الشمال أو الشأمة:

﴿وأصحابُ الشمالِ ماأصحابُ الشمال. في سَمُومٍ وحميم. وظلٍ مِن يَحْموم. لابارِدٍ ولاكريم. إنّهم كانوا قبلَ ذلك مُتْرَفين. وكانوا يُصِرُّون على الحِنْثِ العظيم. وكانوا يقولون أإذا مِتنا وكنّا تراباً وعظاماً أإنّا لمبعوثون. أوَ آباؤنا الأولون. قل إنَّ الأولين والآخرين. لمجموعون إلى ميقاتِ يومٍ معلوم. ثم إنّكم أيُّها الضالُّون المكذّبون. لآكلونَ من شجرٍ من زَقُّوم. فمالؤنَ منها البطون. فشاربونَ عليهِ من الحميم. فشاربون شُرْبَ الهِيم.

هذا نُزُلُهم يومَ الدين﴾ الواقعة/41-56.

والنزل هو الرزق الذي يُعد للنازل تكرمةً له، وفيه تهكم بهم(79). وهذا التعقيب مناسب للقضية، من حيث كان جزاءً لهؤلاء المصرين على الكفر العظيم، المكذبين بما يجدون أنفسهم فيه من العذاب الأليم.

ثم بدأت قضايا الاحتجاج على الكافرين تترى، بتقديم الأدلة على وحدانية الخالق سبحانه وقدرته، قال تعالى: ﴿نحن خلقناكم فلولا تُصدِّقون﴾ الواقعة/57.

وفي التعقيب تحضيض على التصديق بالخلق، لأنهم، وإن كانوا مصدقين به إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف مايقتضيه التصديق فكأنهم مكذبون به(80).

وقال تعالى: ﴿ولقد علِمتم النشأةَ الأولى فلولا تذكّرون﴾ الواقعة/62.

وفي التعقيب تحضيض على التذكر بالبدء على المعاد(81). أي: هلاّ تستدلون بقدرة الله على ابتداء الخلق على إعادته مرة أخرى.

وقال تعالى: ﴿أفرأيتم الماءَ الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المَزْنِ أم نحن المُنْزِلون. لو نشاءُ لجعلناه أُجاجاً فلولا تشكُرون﴾ الواقعة/68-70.

أي فهلاّ تشكرون على هذه النعمة السنية التي لايقدر عليها أحد غير الله(82). وهذه القضية مستديمة الشكر على عذوبة الماء، ولو شاء الله لجعله مالحاً، فخلقه وجعله عذباً، فوجب شكره تعالى على النعمة بذلك(83).

ثم أعقب سبحانه مامضى ذكره بقوله: ﴿فسبِّحْ باسمِ ربِّك العظيم﴾ الواقعة/74.

أي برِّئ الله تعالى مما كان يكفر به الكافرون، وماكانوا يقولون من إنكار إعادتهم يوم الحساب مع آبائهم الأولين. وفي التعقيب تعجّب

من كفرهم وإنكارهم مع ظهور الآيات الدالة على قدرته. وفيه كذلك، شكر الله على النعم التي نبّهَ عليها.

ووصف الله، سبحانه، القرآن بأربعة أوصاف جليلة في سياق قسمٍ عظيم. قال تعالى: ﴿فلا أُقسِمُ بمواقعِ النجوم. وإنّه لقسمٌ لو تعلمون عظيم. إنه لقرآنٌ كريم. في كتابٍ مكنون. لايَمَسُّه إلا المطهَّرون. تنزيلٌ من ربِّ العالمين.

أفبهذا الحديثِ أنتم مُدهِنون﴾ الواقعة/75-81.

وفي التعقيب استفهام يفيد التوبيخ. إذ لايصح تكذيب مافي القرآن الكريم، وهو على تلك الأوصاف.

ومضت الآيات اللاحقات على التوبيخ، فعرضت لمشهد محتضر بين الناس، تقع عليه أبصارهم والله أقرب منهم إليه، وتحداهم أن يرجعوا إليه روحه التي تكاد تفارقه، وربطت ذلك المشهد الدنيوي بما بدأت به السورة من تصنيف الناس ثلاثة أوصاف. فقال تعالى في السابقين: ﴿فأمّا إنْ كان من المقرَّبين. فروحٌ وريحانٌ وجناتُ نعيم﴾ الواقعة/88-89.

وقال في أصحاب اليمين: ﴿وأمّا إن كان من أصحابِ اليمين. فسلامٌ لك من أصحابِ اليمين﴾ الواقعة/90-91.

وقال في أصحاب الشمال: ﴿وأمّا إنْ كان من المكذّبين الضالّين. فنُزُلٌ من حَميم. وتصليةُ جحيم﴾ الواقعة/92-94.

والتعقيب بقوله تعالى: ﴿إنَّ هذا لهو حقُّ اليقين. فسبِّح باسمِ ربِّك العظيم﴾ الواقعة/95-96. أي الحق الثابت من اليقين(84). وهو

ماأخبر به سبحانه من منازل هؤلاء الثلاثة. ونزه الله سبحانه عن السوء والشرك وعظّمه بحسن الثناء عليه(85).

*

هوامش (التعقيب والسورة)

1- الاتقان 1 : 50

2- الإيضاح 1 : 198

3- الكشاف 3 : 127

4- تفسير القرآن العظيم 3 : 437

5- بصائر ذوي التمييز 1 : 344

6- الكشاف 3 : 105

7- تفسير القرآن العظيم 3 : 438

8- الكشاف 3 : 105

9- نفسه

10-مجمع البيان 7 : 192

11-الكشاف 3 : 106

12-مجمع البيان 7 : 194

13-نفسه 7 : 195

14-مجمع البيان : 7 : 197

15-نفسه 7 : 198

16-قال تعالى: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية. سخّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم إعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية﴾ الحاقة/6-8.

17-نفسه 3 : 453

18–الكشاف 3 : 123

19–تفسير القرآن العظيم 3 : 454

20–أسرار التكرار 213

21–ملاك التأويل 2 : 1126

22–مجمع البيان 10 : 415

23–نفسه 10 : 417

24–الكشاف : 4 :203

25–مجمع البيان 7 : 417

26–مجمع البيان 10 : 418

27–تفسير القرآن العظيم 4 : 688

28–مجمع البيان 10 : 419

29–ملاك التأويل 2 : 1129

30–نفسه 2 : 1127

31–مجمع البيان 9 : 199

32–ملاك التأويل 2 : 1063

33–مجمع البيان 9 : 201

34–تفسير القرآن العظيم 4 : 404

35–مجمع البيان 9 : 205

36–نفسه

37–نفسه 9 : 206

38–الكشاف 4 : 50 وتفسير القرآن العظيم 4 : 413

39–مجمع البيان 9 : 210

40–الكشاف 3 : 127

41–تفسير القرآن العظيم 4 : 19

42–مجمع البيان 8 : 453

43–ملاك التأويل 2 : 960

44–مجمع البيان 8 : 456

45–أسرار التكرار 180

46–التعريفات 96

47–ملاك التأويل 2 : 934

48–الكشاف 3 : 218

49–مجمع البيان 8 : 301

50–القاموس المحيط 2 : 19

51–ملاك التأويل 2 : 935–936

52–مجمع البيان 8 : 306

53–التعريفات 41

54–الكشاف 3 : 6

55–مجمع البيان 7 : 72

56–نفسه 7 : 75

57–تفسير القرآن العظيم 3 : 302

58–نفسه 3 : 313

59–الكشاف 3 : 20

60–تفسير القرآنالعظيم 3 : 314

61–الموافقات 416 – 417

62–الكشاف 3 : 27

63–مجمع البيان 7 : 101

64–تفسير القرآن العظيم 3 : 326

65–الكشاف 3 : 31

66–نفسه 3 : 32

67–نفسه

68–ملاك التأويل 2 : 878–879

69–الكشاف 3 : 33

70–مجمع البيان 7 : 109

71–نفسه 7 : 113

72–تفسير القرآن العظيم 3 : 336

73–الكشاف 3 : 40

74–ملاك التأويل 2 : 883

75–مجمع البيان 7 : 116

76–نفسه

77–نفسه 9 : 217

78–مجمع البيان 9 : 215

79–الكشاف 4 : 56

80–نفسه

81- ملاك التأوبل 2 : 1068

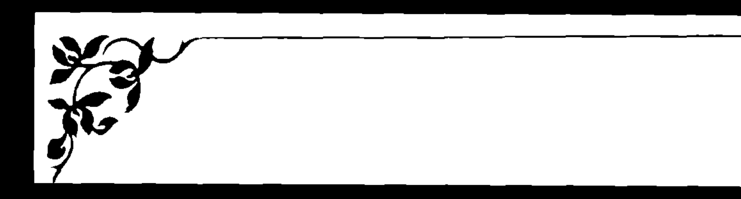
82- مجمع البيان 9 : 224

83- ملاك التأويل 2 : 1068

84- الكشاف 4 : 60

85- مجمع البيان 9 : 228

*




التعقيب والقضية




التعقيب والقضية

تتألف السورة القرآنية من قضية أو أكثر بحسب المقصود الرئيس منها، والقضية آية أو أكثر بحسب طبيعة السورة. فمن السور التي ضمت قضية واحدة سورة الكوثر: ﴿إنّا أعطيناك الكوثر. فصلِّ لربِّك وانْحَر. إنَّ شانِئَك هو الأبتر﴾.

ومنها ماضمت قضيتين كسورة العلق. القضية الأولى: ﴿اقرأ باسمِ ربِّك الذي خلق. خلَق الإنسانَ مِنْ عَلَق. اقرأ وربُّك الأكرم. الذي علَّمَ بالقلم. علّم الإنسانَ ما لم يعلم﴾. والثانية: ﴿كلا إن الإنسانَ ليطغى. أن رآه استغنى. إنَّ إلى ربِّك الرجعى. أرأيت الذي يَنْهى. عبداً إذا صلى....﴾.

وكلما طالت السورة كثرت قضاياها، كما في السور الطوال التي تضم كلٌّ منها عدداً كبيراً من القضايا.

القضية –كما ألمحنا– آية أو أكثر فيها وحدة موضوع، تُظهر بمجموع الآيات على أنها قسم ذو كيان منسق، يندرج مع بقية الأقسام في السورة الواحدة، ويرتبط معها بروابط، ويتناسب معها تناسباً، يتفاعل فيه المعنى واللفظ.

ونأخذ مثلاً طائفةً من قضايا سورة البقرة وردت متسلسلة فيها. هي قوله تعالى في القصاص: ﴿ياأيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القِصاصُ في القتلى الحرُّ بالحرِّ والعبدُ بالعبدِ والأنثى بالأنثى فمن عُفيَ له من أخيهِ شيءٌ فاتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليهِ بإحسان ذلك تخفيفٌ من ربِّكم ورحمةٌ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم. ولكم في القِصاص حياةٌ ياأولي الألباب﴾ البقرة/178–179.

وقوله تعالى في الوصية: ﴿كُتِبَ عليكم إذا حضرَ أحدَكم الموتُ إنْ تركَ خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين بالمعروفِ حقّاً على المتّقين. فمن بدّلَهُ بعدَ ماسمِعُه

فإنّما إثمُهُ على الذين يُبَدّلونه إنَّ الله سميعٌ عليم. فمن خافَ من موصٍ جَنَفاً أو إثماً فأصلحَ بينهم فلا إثمَ عليه إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾ البقرة/180-182. وكذلك قضية الصيام، البقرة/183-187. وقضية النهي عن أكل المال بالباطل، البقرة/188. وقضية الأهلّة، البقرة/189. وقضيةالقتال في سبيل الله، البقرة/190-194. وغير هذا من القضايا التي تتوالى على سياق واحد، هو بيان أحكام الإسلام وتوضيحها أمراً أو نهياً أو زجراً أو تقريراً، بحيث تأتلف، وتأخذ مكانها في نسق واحد.

لم تتفق القضايا في عدد الايات، فمنها ماكان مع التعقيب آية واحدة، كقوله تعالى: ﴿لايتخذُ المؤمنونَ الكافرين أولياءَ من دونِ المؤمنين ومَنْ يفعلْ ذلك فليس من اللهِ في شيءٍ إلاّ أنْ تتَّقوا منهم تقاةً ويحذّرُكم اللهُ نفسَهُ وإلى اللهِ المصير﴾ آل عمران/28. وقوله تعالى: ﴿سبحانَ الذي أسرى بعبدِهِ ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي باركنا حولَه لنريَهُ من آياتِنا إنّه هو السميع البصير﴾ الإسراء/1 . وقوله تعالى: ﴿اللهُ الذي خلَقَ السمواتِ والأرضَ ومابينَهما في ستةِ أيامٍ ثم استوى على العرشِ مالكم من دونِهِ من وليٍّ ولاشفيعٍ أفلا تتذكّرون﴾ السجدة/4.

وقد تكون القضية أكثر من ذلك في عدد آياتها، كقوله تعالى في أول آل عمران: ﴿آلم. اللهُ لاإلهَ إلا هو الحيُّ القيّومُ. نزّلَ عليك الكتابَ بالحقِّ مُصدّقاً لما بينَ يديهِ وأنزلَ التوراةَ والإنجيلَ. من قبلُ هدى للناسِ وأنزلَ الفرقانَ إنَّ الذين كفروا بآياتِ الله لهم عذابٌ شديدٌ واللهُ عزيزٌ ذو انتقام﴾ آل عمران/1-4. وقوله تعالى: ﴿أمْ حسِبتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرقيم كانوا من آياتنا عَجبا. إذ أوى الفتيةُ إلى الكهفِ فقالوا ربَّنا آتنا من لدنك رحمةً وهيِّءْ لنا

من أمرنا رشَدا. فضَربنا على آذانِهم في الكهفِ سنينَ عددا. ثم بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمَدا. نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحقِّ إنّهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هدى. وربَطنا على قلوبهم إذ قاموا.. قل الله أعلمُ بما لبثوا له غيبُ السموات والأرضِ أبصرْ به وأسمعْ مالهم من دونِهِ من وليٍّ ولا يُشرِكُ في حكمهِ أحدا﴾ الكهف/9–26.

إن ملاحظة الاختلاف في عدد الايات تقضي بتقسيم القضايا على قسمين:

القسم الأول: القضايا الصغيرة، وهي التي تأتي في آية أو آيتين، كما مرَّ التمثيل له بما جاء في سورة آل عمران وسورة الإسراء.

القسم الثاني: القضايا الكبيرة، وهي التي تتألف من عدد كبير من الآيات كقضية أصحاب الكهف والرقيم في سورة الكهف.

ولكن نظام القضايا في القرآن الكريم لايقوم على آية صغيرة وآية كبيرة، وإنما ذلك منوط بموضوع القضية، فغالباً ماتكون قصص الأنبياء في قضايا كبيرة كما وردت في السور الطوال، وهي تضم عدداً كبيراً من الآيات، يستوفي سرد تفصيلاتها، وبيان العبرة منها، وربطها بسياق التمثيل بها. كأن يكون تأييد رسالة النبي –صلى الله عليه وسلم–، أو تحذير الناس من عاقبة الكفر أو غير هذا. ذلك كقضية نوح في سورة هود. قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين... تلك من أنباءِ الغيبِ نوحيها إليك ماكنتَ تعلمُها أنتَ ولاقومُك من قبلِ هذا فاصبرْ إنَّ العاقبة للمتقين﴾ هود/25–49 في خمس وعشرين آية.

ومثلها قضية عذاب الكافرين، حيث يتوجب وصف مشاهد العذاب، والتطرق إلى سبب التعذيب،وكيفيته،وأقوال المعذبين، وردود القائمين به عليهم ثم التعقيب، ومنه قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ألم ترَ إلى الذين يجادلون في آياتِ اللهِ أنّى يُصرَفون. الذين كذّبوا بالكتابِ وبما أرسلنا به رُسُلَنا فسوف يعلمون. إذ الأغلالُ في أعناقِهم والسلاسلُ يُسْحَبُون. في الحميم ثم في النار يُسْجَرون. ثم قيل لهم أين ماكنتم تُشرِكون. من دونِ اللهِ قالوا ضلُّوا عنّا بل لم نكنْ ندعو من قبلُ شيئاً كذلك يُضِلُّ اللهُ الكافرين. ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغيرِ الحقِّ وبما كنتم تمرحون. ادخُلوا أبوابَ جهنمَ خالدين فيها فبئسَ مثوى المتكبّرين﴾ غافر/69-76.

كذلك قضية ثواب المؤمنين، حيث يصف تعالى أشكال نعيم المتقين، وما يقدم لهم من طيبات، ويلحق بهم ذريتهم لتكتمل سعادتهم في جو روحاني، يسجل أقوالهم، ويبّين ماقدموا من عمل، ليستحقوا عنه هذا الثواب. قال تعالى في سورة الطور: ﴿إنَّ المتّقينَ في جنّاتٍ ونعيم. فاكهينَ بما آتاهم ربُّهم ووَقَاهم ربُّهم عذابَ الجحيم. كُلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون. متكئين على سُرُرٍ مصفوفةٍ وزوجّناهم بحورٍ عين. والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتُهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتَهم وماألتْناهم من عملِهم من شيءٍ كلُّ امرئ بما كسَبَ رهين. وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمٍ مما يشتهون. يتنازعون فيها كأساً لالغوٌ فيها ولاتأثيمٌ. ويَطوف عليهم غِلمان لهم كأنهم لؤلؤٌ مكنون. وأقبلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءلون. قالوا إنّا كنّا قبلُ في أهلِنا مشفقين. فمنَّ اللهُ علينا ووقانا عذابَ السَموم. إنّا كنّا من قبلُ ندعون إنّه هو البَرُّ الرحيم﴾ الطور/17-28.

إن الغالب في قضايا القرآن الكريم أن يعقب كلاً منها تعقيب واحد. وقد ترد قضايا معقبات بأكثر من واحد، كقوله تعالى في وصف المتقين: ﴿وسارِعُوا إلى مغفرةٍ من رَّبكم وجنةٍ عَرضُها السموات والأرضُ أُعدَّت للمتقين. الذين يُنْفِقون في السرّاءِ والضرّاءِ والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن الناسِ واللهُ يُحبُّ المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغروا لذنوبهم ومَنْ يغفرُ الذنوبَ إلا اللهُ ولم يُصِرُّوا على مافعلوا وهم يعلمون﴾ وتعقيبها ﴿أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربِّهم وجناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ونِعْمَ أجرُ العاملين﴾ آل عمران/133-136.

ويتألف التعقيب من شيئين: اسم الإشارة (أولئك) وأسلوب المدح بـ(نعم) وهما على سياق واحد، وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أن ذلك جزاء واجب على عمل، وأجر مستحق عليه(1).

وكذا سائر القضايا المعقبة بأكثر من تعقيب، فإن لها أسباباً من أهميتها، ومن نسقها في السياق، ومن التأكيد عليها، تجعل تعقيبها متعدداً. فقد يأتي التعقيب بعد القضية، وهو متمم لها ثم يردفه تعقيب آخر فيه وعيد لمن يتجاوز ماشُرِّع في القضية، فكأن التعقيب الثاني تفريعاً لأصل القضية، وذلك كقوله تعالى في قضية الطلاق: ﴿الطلاقُ مرتان فامساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان ولايَحِلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنَّ شيئاً إلا أنْ يخافا ألاّ يقيما حدودَ اللهِ فإنْ خفتم ألاّ يقيما حدود اللهِ فلاجُناحَ عليهما فيما افتدتْ به﴾ وتعقيبها ﴿تلك حدودُ اللهِ فلاتعتدوها﴾ ثم عُقبت مرة أخرى ﴿ومَنْ يتعدَ حدودَ اللهِ فاولئك هم الظالمون﴾ البقرة/229.

وقد يكون التعقيب الأول لتخصيص شيء، ويكون التعقيب الثاني لتعميم شيء آخر، وذلك كتخصيص النبوة بمن شاء سبحانه، وتعميم فضله العظيم على عباده في قوله تعالى: ﴿مايَوَدُّ الذين كفروا من أهلِ الكتابِ ولاالمشركين أنْ يُنزَّلَ عليكم من خيرٍ من رَّبكم والله يختصُّ برحمتِهِ مَنْ يشاءُ والله ذو الفضلِ العظيم﴾ البقرة/105.

فالمراد بالرحمة النبوة، وهو يجعلها فيمن شاء. (والله ذو الفضل العظيم) معناه أن كل خير نال عباده في دينهم ودنياهم، فإنه من عنده ابتداء منه إليهم، وتفضلاً عليهم من غير استحقاق منهم لذلك عليه، فهو عظيم الفضل ذو المن والطول(2).

وقد يكون تعدد التعقيب لتعدد الصفات كتعقيب قوله تعالى: ﴿ليس البرَّ أنْ تُولُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكنَّ البرَّ مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتبِ والنبيينِ وآتى المالَ على حبِّهِ ذوي القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفون بعهدِهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساءِ والضرّاءِ وحينَ البأسِ﴾ بـ﴿أولئك الذين صَدَقوا﴾ و﴿أولئك هم المتقون﴾البقرة/177.

أي الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم، لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، وهم المتقون، لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات(3).

ومن القضايا ماعقب بثلاثة تعقيبات،وفيها من الأسباب ماوجد في القضايا ذوات التعقيبين. إذ تتعلق التعقيبات الثلاثة بأسباب مختلفة ترجع إلى علاقتها بالقضية، ففي قضية أموال اليتامى، كان المسلمون يعزلون طعامهم من

طعام اليتيم، وشرابهم من شرابه بعد أن نهاهم الله سبحانه أن يقربوا مال اليتيم، واشتد ذلك عليهم، وسألوا عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- فنزل قوله تعالى: ﴿.. ويسألونك عن اليتامى قلْ إصلاحٌ لهم خيرٌ وإنْ تخالطوهم فإخوانُكم﴾ وعُقّبت بثلاثة تعقيبات يزيد كل منها توضيح القضية الرئيسة وهي قوله تعالى: ﴿والله يعلمُ المفسدَ من المُصْلِح﴾ أي أن الله يعلم من كان غرضه من مخالطة اليتامى إفساد مالهم أو اصلاحه. وقوله: ﴿ولو شاءَ اللهُ لأعنَتَكم﴾ أي لضيّق عليكم في أمر اليتامى ومخالطتهم والزمكم ماكنتم تجتنبونه من مشاركتهم. وقوله: ﴿إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم﴾ البقرة/220. أي: يفعل بعزته مايحب، لايدفعه عنه دافع، وهو حكيم في تدبيره وأفعاله، ليس له عما توجبه الحكمة مانع(4).

ومنها قوله تعالى في المنافقين: ﴿وإذا رأيتَهم تعجبُك أجسامُهم وإنْ يقولوا تسمعْ لقولِهم كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ يحسَبون كلَّ صيحةٍ عليهم هم العدوُّ﴾ وتعقيباتها أمر ودعاء وتوبيخ في قوله تعالى: ﴿فاحذرْهم قاتَلَهم اللهُ أنَّى يُؤْفَكون﴾المنافقون/4.

ولعل مجيء التعقيب متعدداً للتنبيه على خطورة الأمر الذي اشتملت عليه القضية، وهي أن المنافقين كانوا ذوي أشكال حسنةوفصاحة ولسن، وإذا سمعهم السامع اصغى إلى قولهم لبلاغتهم(5). وربما غشي ذلك منهم على المسلمين، وأخفى عداوتهم لهم ومكرهم بهم، فنبّه سبحانه على هذا بتعدد التعقيب.

إن سبب تعدد التعقيب لايتصل بأهمية القضية، لأن قضايا القرآن على قدر جليل واحد من الأهمية، لاتمتاز واحدة من أخرى في أهميتها، وإنما تعدد التعقيب موكول إلى السياق الذي جاءت عليه القضية وائتلافها مع أخواتها،

وإلى المقصود منها حين تأتلف. ولتوضيح هذا نتبين سبب تعدد التعقيب في قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم.. ﴾ النساء/ 59–68. وتعقيبها ﴿ومَنْ يُطعِ الله والرسولَ فاولئك مع الذين أنعمَ الله عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحسُن أولئك رفيقاً. ذلك الفضلُ من اللهِ وكفى باللهِ عليماً﴾ النساء/96–70 وهو مكون من الشرط وصيغة التعجب واسم الإشارة وصيغة (كفى).

لقد أشارت القضية إلى المنافقين الذين لايرضون بحكم الله ورسوله الذي يتضمن وجوب الطاعة. قال تعالى: ﴿وماأرسلنا من رسولٍ إلا ليطاعَ بإذنِ الله..) النساء/64. وأخبرت عن سرائرهم وأنهم لايطيعون أوامر الله إلا قليل منهم، ولو أنهم فعلوا ذلك لكان لهم الخير والأجر، ولكانوا على الصراط المستقيم، ثم جاء التعقيب يبين جزاء الطاعة بأن يكون ممن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. والتعجب على سبيل المدح والثناء ممن يكون هؤلاء رفقاء. والإشارة إلى أن رفقة هؤلاء هي الفضل من الله، تفضّل به على من أطاع ما يؤمر به. والإخبار أنه سبحانه عليم بالعصاة والمطيعين والمنافقين والمخلصين ومن يصلح لمرافقة هؤلاء ممن لايصلح(6).

في مواضع أخرى من القرآن لم تعقّب قضية الطاعة كما عقّبت هنا، كقوله تعالى في بيان المنافقين من المؤمنين: ﴿ويقولون آمنّا باللهِ وبالرسولِ وأطعنا ثم يتولّى فريقٌ منهم من بعدِ ذلك وما اولئك بالمؤمنينَ﴾ النور/47. ثم قال تعالى في المؤمنين: ﴿إنّما كانَ قولُ المؤمنين إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ ليحكمَ بينهم أنْ يقولوا سَمِعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ النور/51.

وعقب هذه القضية بقوله تعالى: ﴿ ومنْ يطع الله ورسوله ويخش الله ويتّقه فاولئك هم الفائزون﴾ النور/52. وكان التعقيب باشرط فحسب، ولم يتعدد كما تعدد هناك. ولعل ذلك بسبب كون القضية الأولى في الأمر بالطاعة طاعة الله ورسوله وأولي الأمر، وفي بيان كيفية فض المنازعات بين المؤمنين على سبيل التفصيل والتوضيح. وقد وردت القضية في سورة احتوت على كثير من الأحكام.

أما في سورة النور فقد جاءت القضية في سياق بيان قدرة الله سبحانه على كل شيء، وأنه أنزل آيات، يهدي بها من يشاء، ولايخفى عليه مايفعله المنافقون من التولي والصدود، ومن أعراضهم عن حكم الرسول بينهم. وهذا السياق يختلف عن سياق مامضى لذلك اختلف التعقيب.

قضية الجنة والنار:

استأثرت قضية الجنة والنار بنصيب وافر من آيات القرآن، وشغلت مساحة كبيرة من قضاياه بالإضافة إلى القضايا الأخرى، وذلك لأنها كانت مآل أحكام القرآن وتشريعاته وأوامره ونواهيه، فغلب على هذه الأمور أن تذكر نتائج الالتزام بها أو التخلي عنها، بعد تمام تفصيلها وتشريعها، على شكل ثواب بنعيم الجنة أو عذاب بجحيم النار. واتبع القرآن في عرض الأحكام ونتائجها أسلوباً يقوم على ذكر النقيضين:الجنة والنار مقرونتين في غالب الأمر، حتى غلب ذلك وصار سمة مميزة.

إن لذكر الجنة والنار فائدة جليلة تتضح في كون ثواب الجنة يثير في الناس جانب الترغيب إليها، بما يصفه القرآن من ألوان النعيم وأشكاله، ومايلذ

ويطيب ويريح ويسعد ويفرح. حتى تكون صور النعيم المعروضة هي المثل العليا والنماذج البالغة الغاية، وعلى النقيض يثير عذاب جهنم في الناس جانب الترهيب من كل ماوصفه القرآن من ألوان العذاب وأشكاله، وذلك كي تشفع البشارة بالإنذار، فينشط الإنسان إلى اكتساب مايؤول جزاؤه إلى الجنة، ويتجنب ما يؤول جزاؤه إلى جهنم(7).

إن قضية الجنة والنار ترد في السور الطوال خاصةً، بجملة موجزة، لاتوضح من الأوصاف الكثير إلا اللمحة الدالة والإشارةالسريعة، ربما كان سبب هذا أن السور الطوال جاءت لتوضيح الأحكام والتشريعات، فهي تعلم الناس الفرائض والحدود والأحكام، وتفصّل شرحها،وتوضح تفرعاتها وتشعباتها، بحيث لايشذ عنها حال من أحوال البشر، وهي تعلمهم -كذلك- الآداب وقواعد السلوك، وتذكر لهم من واقع الأديان السماوية السالفة أشياء مفصلة، ومن الكفر والشرك قبل الإسلام أشياء أخرى، وذلك كله يستدعي الإيجاز في عرض الجزاء، وعليه ماجاء في سورة البقرة التي نتخذها مثلاً لسائر السور الطوال، ونتبين من خلالها اقتران الجنة بالنار.

أول ذلك ورد بعد تحدي الناس بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن، والحكم عليهم بأنهم لايقدرون على ذلك في حاضرهم ومستقبلهم. قال تعالى: ﴿فإنْ لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التي وَقُودُها النَّاسُ والحجارةُ أُعِدتْ للكافرين. وبشِّرْ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ أنَّ لهم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ كلّما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رُزقْنا من قبلُ وأُتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواجٌ مطهَّرةٌ وهم فيها خالدون﴾ البقرة/24-25.

إن ذكر النار تقدم على ذكر الجنة، لأن سياق الكلام في المرتابين في أمر القرآن، وهو منزل على الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم.

وبعد قضية خلق آدم وسكنه وزوجه الجنة وإغواء إبليس وخروجهما منها وقبوله تعالى التوبة. قال تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ البقرة/38-39. فقدم الثواب على العقاب، لأن الكلام جاء بعد قبول التوبة وبيان رحمة الله سبحانه وتعالى. والتعقيب بالثواب هنا مشروط بأن يأتي الله سبحانه الهدى، وهو الأنبياء والرسل، فمن تبع الهدى فثوابهم (لاخوف عليهم) أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة (ولاهم يحزنون) على مافاتهم من أمور الدنيا، ومن لم يتبع الهدى فهم مخلدون في النار، لامحيد لهم عنها ولامحيص(8).

وبعد زعم اليهود أنهم لاتمسهم النار إلا أياماً قلائل، ولم يكن بينهم وبين الله سبحانه عهد على ذلك، أجابهم تعالى بالنفي لما يقولون. قال تعالى: ﴿بلى منْ كسَب سيئةً وأحاطت به خطيئاتُهُ فاولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ أولئكَ أصحابُ الجنّةِ هم فيها خالدون﴾ البقرة/81-82. وقدم ذكر جزاء أصحاب النار، لأن الكلام الماضي كان في زعم اليهود أنهم بعيدون عن عذاب النار، ويلاحظ أن هذا التعقيب مشروط، كالتعقيب السالف، وفيه مشاكلة من حيث التركيب. أي أن جملة الشرط والجملة المعطوفة عليها وجملة الجواب (من كسب سيئة وأحاطت به خطيئاته فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) تقابل (الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

وفي معرض الأسئلة التي كان الرسول الكريم يُسأل عنها والإجابة عنها بما يوضح طريق الرشاد أمام الناس، كالسؤال عن الانفاق،وعن القتال في الشهر الحرم، يأتي التعقيب بذكر الجزاء. إلا أنه في قضية القتال ذكر حال محتملة، وهي ارتداد بعض المسلمين وموتهم على الكفر. قال تعالى: ﴿ومَنْ يرتددَ منكم عن دينِهِ فيمتْ وهو كافرٌ فاولئك حبطَتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرةِ واولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾ وقرنه بقوله تعالى ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيلِ اللهِ اولئك يرجون رحمةَ اللهِ واللهُ غفورٌ رحيم﴾ البقرة/217—218. وجزاء المرتد بإحباط عمله في الدنيا والآخرة يعني أنه يفوّت على نفسه بالردة، ماللمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وباستدامتها والموت عليها من ثواب الآخرة(9). مع الخلود في النار، ومعنى ثواب المثابين أنهم يأملون نعمة الله في الدنيا والمثوبة في العقبى، والله يغفر ذنوبهم ويرحمهم(10).

وفي قضية تحريم الربا تفصيل لكثير من تفرعها، وبيان لوجوه تحريمها،وفيها إشارة إلى ماقد مضى منها. قال تعالى: ﴿ومَنْ عادَ فاولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾ وقال ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وأقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ لهم أجرُهم عند ربِّهم ولاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾ البقرة/275—277.

الملاحظ على تعقيب الجنة والنار في سورة البقرة أنه إشارةإلى الجنة أو إلى النار موجزة. ليس فيها تفصيل ولاشرح. وتكاد صيغ التعقيب بالنار تكون واحدة هي الإشارة إلى الكافرين بأنهم أصحاب النار ثم وصفهم بالخلود فيها (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أما صيغ التعقيب بالجنة فكانت مختلفة.

في السور الأخرى تأخذ قضية الجنة والنار مساحة أوسع مما كان لها في السور الطوال، فنجد التفصيل والإطناب في الوصف، والتمهل والتأني في عرض الأحداث، والحجج القارعة تشق رؤوس المعذبين، وأقوال الملائكة، وهم يعذبونهم والردود المكبوتة تصدر من الأفواه المملوءة بالنار، ومشاهد العذاب الأخرى التي يُحسُّ بوقعها قارئ القرآن وسامعه. وكذا الأمر في مشاهد النعيم، وتفصيل صفة الجنة، وما أعدَّ الله سبحانه للمؤمنين من أنواع الثواب.

نقرأ في سورة ابراهيم، بعد أنْ قال الرسل لأقوامهم إنّهم بشر مثلهم، وإنَّ الله يختار بشراً لتبليغ رسالاته، وبعد أنْ ردَّ الذين كفروا ذلك وهدّدوا الرسل. أوحى سبحانه إلى رسله أنه سيهلك الظالمين، وذكر خيبة كل جبار عنيد. ثم قال تعالى: ﴿من ورائهِ جهنمُ ويُسقى من ماءٍ صديد. يتجرَّعُه ولايكادُ يُسيغُهُ ويأتيه الموتُ من كلِّ مكانٍ وماهو بميتٍ ومن ورائِهِ عذابٌ غليظ. مَثَلُ الذين كفروا بربهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدتْ به الريحُ في يومٍ عاصفٍ لايقدرون مما كسَبوا على شيءٍ ذلك هو الضلالُ البعيد. ألم ترَ أنَّ الله خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ إن يشأْ يذهبْكم ويأتِ بخلْقٍ جديد. وماذلك على اللهِ بعزيز. وبرزوا للهِ جميعاً فقال الضعفاءُ للذين استكبروا إنا كنّا لكم تَبَعاً فهل أنتم مُغنون عنّا من عذابِ اللهِ من شيءٍ قالوا لوهدانا اللهُ لهديناكم سواءٌ علينا أجزِعْنا أم صَبَرْنا مالنا من مَحيص. وقال الشيطانُ لما قُضي الأمرُ إنَّ الله وعَدكم وعدَ الحقِّ ووعدتُكم فأخلفتُكم وماكان عليكم من سلطانٍ إلاّ أنْ دعوتُكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسَكم ماأنا بُمصرِخكِم وماأنتم بمصرخيَّ إني كفرتُ بما أشركتموني من قبلُ إنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم﴾ ابراهيم/16–22.

في هذه الآيات التي تصور مشهداً من مشاهد العذاب الذي وُعد به الكافرون، نجد أن الوصف تناول تفصيلات كثيرة منها صفة الماء الصديد، وكيفية تجرعهِ، فالكافر لايقرب من إساغته، ويشتد عليه الموت والعذاب ثم كلام الكافرين الضعفاء مع الأقوياء، وحكاية قول الشيطان، وهو يقول لمن أغواه قبلاً أنه لايملك من الأمر شيئاً، وأنهم يتحملون مااكتسبوا من اتباعه وغوايته. ثم قُرن ذلك إلى ثواب المؤمنين. فقال تعالى: ﴿وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها بإذنِ ربِّهم تحيَّتُهم فيها سلام﴾ ابراهيم/23.

ويلاحظ أن ذكر ثواب المؤمنين قليل بالمقارنة بذكر عذاب الكافرين وكذلك التعقيب في قضية المؤمنين. وسبب ذلك أن السياق جرى في الكفّار الذين أعرضوا عن دعوة الرسل إلى الايمان، فأطنب مع الكافرين وأوجز مع المؤمنين.

في سورة الحجر اختلف السياق فاختلف التعقيب. وذلك يتضح بعد ذكر قضية خلق آدم وعصيان ابليس وآبائه السجود له، وقعوده في الصراط المستقيم، يغوي عباد الله المؤمنين ويزين لهم. فقال تعالى: ﴿إنَّ عبادي ليسَ لك عليهم سلطانٌ إلاّ من اتّبعك من الغاوين، وإنَّ جهنم لموعُدهم أجمعين. لها سبعةُ أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسوم﴾ الحجر/42–44.

فالكلام في عباد الله المخلصين، وقد أُستثني منهم، على سبيل الاستثناء المنقطع، من أغواه ابليس، وعقبه بجزائهم، وهو جهنم التي لها سبعة أبواب مقسمة عليهم. ثم ذكر سبحانه جزاء عباد الله المخلصين على وجه التفصيل والشرح بأكثر مما كان للغاوين. وذلك لأن الكلام فيهم. قال تعالى:

﴿إنَّ المتقين في جناتٍ وعيون. ادخلوها بسلامٍ آمنين، ونزعنا ما في صدورِهم من غِلٍّ على سُررٍ متقابلين. لايَمَسُّهم فيها نَصبٌ وماهم منها بمُخرَجين. نبِّئ عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم﴾ الحجر/45-49.

وهذا تفصيل لمشهد النعيم. فهم في جنات وعيون. يقال لهم: ادخلوها بسلام من الأنات والمكاره. آمنين من الاخراج منها، ساكني النفس، وقد أزيلت من صدورهم أسباب العداوة، إخواناً على سررٍ متواجهين، ينظر بعضهم إلى وجه بعض، ليس يصيبهم فيهاعناء،وكل النعم حاصلة بين أيديهم، وهم على هذه الحال خالدون(11).

في سورة الكهف يضع سبحانه وتعالى ميزان العدل أمام الناس، فيبلغ رسوله الأمين ويأمره ﴿قل الحقُّ من ربّكم فمَنْ شاءَ فليؤمنْ ومَنْ شاءَ فليكفر﴾، ويعقبه بذكر مآل الكفر ﴿إنّا اعتدنا للظالمين ناراً أحاطَ بهم سرادقها وإنْ يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمُهْلِ يشوي الوجوهَ بئسَ الشرابُ وساءتَ مرتفقا﴾ ويقرنه بذكر مآل الايمان ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ إنّا لانضيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً. أولئك لهم جناتُ عدنٍ تجري من تحتِهم الأنهارُ يُحلّون فيها من أساورَ من ذهبٍ ويلبسون ثياباً خضراً من سندسٍ وإستبرقٍ متكئين فيها على الأرائكِ نعْمَ الثوابُ وحسُنت مرتفقا﴾ الكهف/29-31.

فجاء ذكر العذاب والثواب متساوياً، كأنّه يشير إلى الميزان العدل الذي أقامه سبحانه لكلٍ من الكافرين والمؤمنين. إن كل نوع من العذاب يقابله نوع من الثواب، فالنار المحيطة بالمعذبين تقابل جنات عدن، حيث تجري الأنهار من تحت المؤمنين. والتعذيب بالماء المذاب فيه الرصاص والنحاس، الذي يشوي الوجوه لفرط حرارته، يقابل نعيم المؤمنين في حلي الذهب ولبس الثياب الخضر

المصنوعة من الحرير المنسوج بالذهب، وأضاف للمؤمنين أنهم متكئون والاتكاء دلالة على حالة الأمن والسلامة. ثم تشاكل التعقيب مع تناقض الدلالة: (بئس الشراب وساءت مرتفقا) في مقابل (نعم الثواب وحسنت مرتفقا).

ومثله ماجاء في سورة الحج، حيث فصّل تعالى أمر الفريقين الذين اختصموا في دين الله. قال تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربِّهم فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثيابٌ من نارٍ يُصبُّ من فوقِ رؤوسهم الحميم. يُصهرُ به ما في بطونهم والجلود. ولهم مقامعُ من حديدٍ. كلّما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق. إنَّ الله يُدخِلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ يُحلَّون فيها من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤاً ولباسُهم فيها حرير. وهُدُوا إلى الطيبِ من القول وهُدُوا إلى صراطِ الحميد﴾ الحج/19-24.

فجاء جزاء المؤمنين في مقابل جزاء الكافرين في التفصيل والإيضاح، وهما كذلك متقابلان من حيث ذكر النعمة هنا وذكر العذاب هناك.

*

إن اقتران ذكر الجنة بذكر النار يفصح في كل موضع من القرآن عن شيء، لانجده في الموضع الآخر. ففي المواضع التي مرَّ ذكرها يتكفل كل شاهد بإيراد أمر خاص بذلك الموضع. أو له صلة بالسياق الذي جاء الكلام عليه، وبهذا يتلون اقتران الجنة بالنار بحسب المقام. فيحقق ماترمي إليه بلاغة القرآن من مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وفي سورة الزمر يأتي الاقتران في سياق بيان قدرة الله المطلقة، وأن المشركين لم يقدروا الله حق قدره ﴿والأرضُ جميعاً قبضتُهُ يومَ القيامةِ والسمواتُ مطوياتٌ بيمينِهِ سبحانَه وتعالى عمّا يشركون﴾ الزمر/67. فيرسم

الاسلوب القرآني صورة ليوم القيامة الذي هو من تلك القدرة الفائقة. صوت هائل يعم الآفاق، فيموت بأثره من في السموات ومن في الأرض إلا ماشاء الله، استثناه من الموت. وياله من صوت شديد غريب، لم تألفه الأذان، ماأن ينتشر في الهواء حتى يكون الموت علامة كل شيء. ثم يقوم صوت آخر، فيحيا بأثره من في السموات ومن في الأرض قائمين ناظرين، فهم، إذن، أحياء ولكنهم ليس لهم إلا النظر إلى مايُفعل بهم، وأشرقت الأرض بنور ربها، وليس بنور الشمس، ووضع عمل كل إنسان في يده، يقرأ ما مضى من عمله مسجلاً، وأُحضر النبيون والشهداء، وهؤلاء الدرجة الرفيعة من الثواب، ويُقضى بين الجميع بالحق. فلا ينقص أحد شيئاً مما يستحقه من الثواب، ولايُفعل به مالا يستحقه من العقاب، وتوفّى كل نفسٍ ماعملت، والله أعلم من كل أحدٍ بماكان الناس يفعلون من الطاعة أو المعصية. ثم يأتي جزاء كل فريق بما قدم، ويتشاكل في العرض ويتضاد في الدلالة. ونعْرض له على الشكل الآتي:

جزاء الذين كفروا	جزاء الذين اتقوا ربهم
﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمَراً حتى إذا جاءوها فُتِحتْ أبوابُها...﴾	﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمَراً حتى إذا جاءوها وفُتِحتْ أبوابُها.....﴾

شمل السوق، وهو الحث على السير، كلا الفريقين، وهنا تظهر القدرة الإلهية الفائقة على بعث الناس كلهم، سواء منهم الكافرون والمتقون، ولكن الكافرين يساقون سوقاً عنيفاً إلى جهنم، في حين يساق المتقون سوقاً كريماً إلى الجنة.

﴿وقال لهم خزنتُها ألم يأتِكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آياتِ ربِّكم وينذرونكم لقاءَ يومِكم هذا قالوا	﴿وقال لهم خزنتُها سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين. وقالوا الحمدُ لله الذي صدقنا وعدَهُ وأورثنا

بلى ولكن حقّتْ كلمةُ العذابِ على الكافرين   الأرضَ نتبوّأُ من الجنةِ حيثُ نشاءُ.....﴾
قيل ادخلوا أبوابَ جهنمَ خالدين فيها...﴾.

إن قول خزنة جهنم للكافرين على وجه التهجين، لفعلهم والانكار عليهم، إذ أعرض هؤلاء عن دعوة الرسل، وهم بشر مثلهم، يعرفونهم ويعلمون أمرهم، وجوابهم بالاثبات (بلى) تحقيق لما أُوعدوا به من العذاب الأليم.

أما قول خزنة الجنة فهو لزيادة السرور، وليس قول المتقين إجابة لسؤال، وإنما هو اعتراف بنعم الله عليهم، حيث وعدهم بها وأوفى لهم بها، وهم في الجنة أحرار، حيث يشاءون.

﴿فبئس مثوى المتكبّرين﴾ الزمر/71–72   ﴿فنعم أجرُ العاملين﴾ الزمر/73–74.

تعقيب قضية الكافرين بالذم وقضية المتقين بالمدح وصيغتهما واحدة.

ويتم المشهد بعد ذلك برؤية الملائكة يسبحون لله بالحمد والثناء، وهم حول العرش. وقد انتهى أمر الجزاء بالحق بين الفريقين. ونال كل منهم حقه، والحمد في ذلك كله لله الذي ملك أمر كل العوالم وملك أمر كل فرد فيها. قال تعالى: ﴿وترى الملائكةَ حافين من حولِ العرشِ يُسبِّحون بحمدِ ربِّهم وقُضي الأمرُ بينَهم بالحقِّ وقيل الحمدُ للهِ ربِّ العالمين﴾ الزمر/75.

وهذا مايكمل أجزاء السياق الذي أشرنا إلى أنه في الدلالة على قدرته سبحانه.

في سورة ص جاءت قصص الأنبياء: داود وسليمان وأيوب وإشارات سريعة إلى ابراهيم واسحق ويعقوب، وفي هذه القصص تسلية للرسول الكريم، وتثبيت لفؤاده، وشد لعزيمته أمام إعراض الكافرين عنه، وتكذيب بدعوته، وجعلت تلك القصص بحيث تؤدي تلك الغاية ببنائها على ثواب الأنبياء، وجزائهم عمّا لاقوه من مشقة في تبليغ الرسالات، فكانت قصصهم مردفة ببيان الثواب، وهو رفعة الدرجة عند الله سبحانه، وحسن المآب في الجنة. إذ هم المصطفون الأخيار عند الله، ثم جاء جزاء المتقين. والرابطة واضحة بين هؤلاء وأولئك. قال تعالى: ﴿هذا ذكرٌ وإنَّ للمتقين لَحُسنَ مآب. جناتِ عدنٍ مُفتّحةً لهم الأبوابُ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهةٍ كثيرةٍ وشراب. وعندهم قاصراتُ الطرفِ أتراب. هذا ماتُوعَدون ليومِ الحساب. إنَّ هذا لرزقُنا مالهُ مِنْ نَفَاد﴾ ص/49-54.

وقرنه بجزاء الطاغين. قال تعالى: ﴿هذا وإنَّ للطاغين لشرُّ مآب. جهنمَ يَصْلَونها فبئسَ المِهاد. هذا فليذوقوه حميمٌ وغَسّاق. وآخَرُ من شكلِهِ أزواج. هذا

فوجٌ مقتَحمٌ معكم لامرحباً بهم إنّهم صالو النار. قالوا بل أنتم لامرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئسَ القرار. قالوا ربّنا من قدَّمَ لنا هذا فزدْهُ عذاباً ضِعْفاً في النار. وقالوا مالنا لانرى رجالاً كنّا نعدُّهم من الأشرار. أتّخذناهم سِخرياً أم زاغتْ عنهم الأبصار. إنَّ ذلك لحقٌّ تخاصمُ أهلِ النار﴾ ص/55–64.

فالثواب بالجنة مقدم على عذاب النار، لأن السياق في الثواب الذي أجزله سبحانه لأنبيائه ورسله، عليه ثواب المتقين. والجزاءان متشاكلان من حيث البناء، بينهما تقابل في العرض، وتناقض في الدلالة، فللمتقين حسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، وللطاغين شر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد. ولأولئك جلسة الملوك، يستندون فيها، فيرتاحون ويتخيرون مايشتهون مما لذَّ وطاب. ولهم الأزواج اللواتي لايرغبن إلا فيهم.ويقال لهم القول الجميل: إن هذا مما كنتم توعدون به، فيقولون اتراقاً بذلك: إنه رزق دائم لاينقص منه شيء، ولاينقطع عنهم منه شيء. وهؤلاء الماء الحار، يعذبون بحرارته، والماء البارد يعذبون ببرودته، مع أنواع من العذاب متشابهة في الألم والشدة، ثم تُسمع أقوالهم بعضهم لبعض،وهي أقوال خصومة ونزاع بين التابعين والمتبوعين، ودعواته بعضهم علىبعض بزيادة العذاب، وهم يعترفون بضلالهم، ويتشكّون من عذاب جهنم،وهي تكويهم بأنواع شديدة منه.

*

وفي السور القصار، حيث يوجز الأسلوب القرآني، فيرسل دلالات واضحة، وإشارات إلىالمعنى دون إطناب. كأنها تخاطب قلب الإنسان، فتوحي إليه بالدلالة بلا كلمات، في هذه السور يقصر ذكر الجزاء، ليتلاءم مع السورة،

ولكنه، شأنه شأن مامضى منه في ملاءمة السياق وفي تشكيل العرض، بحيث نجده في موضع مختلفاً عما نجده في موضع آخر.

في سورة النبأ تمضي مشاهد القيامة سراعاً: ﴿يومَ يُنفخُ في الصُّور فتأتون أفواجاً. وفُتِحت السماءُ فكانت أبواباً. وسُيِّرت الجبالُ فكانت سَراباً﴾ النبأ/18-20.

وكل آية، وهي صغيرة، تتكفل بالإشارة إلى مشهد عظيم، وتوضح أمراً فظيعاً، وتظهر بدءه وتمامه في لمحات خاطفة.

ثم يأتي مشهد الجزاء، وقد تقدم فيه عرض جهنم، لأن السورة في الأخبار عن الذين يختلفون في أمر البعث، وهو النبأ العظيم، فيكون تقديم العذاب متناسباً مع ذكر هؤلاء، قال تعالى: ﴿إنَّ جهنمَ كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لابثينَ فيها أحقابا. لايذوقون فيها برداً ولاشرابا. إلا حميماً وغَسّاقا. جزاءً وفاقا﴾ النبأ/21-26.

وقرنه بثواب المتقين. فقال تعالى: ﴿إن للمتقين مفازاً. حدائقَ وأعنابا. وكواعبَ أترابا. وكأساً دِهاقاَ. لايسمعون فيها لغواً ولاكِذّابا. جزاءً من ربِّك عطاءً حسابا﴾ النبأ/31-36.

اقتصرت الآيات في الجزاءين على جزء من المشهد، ذلك هو الشراب، فجعلت شراب الطاغين بالضد من شراب المتقين. وختمتهما بالنص على كل جزاء بما يناسبه، فجزاء الطاغين (جزاء وفاقا). أي وافق عذاب النار الشرك، لأنهما عظيمان، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولاعذاب أعظم من النار(12). وجزاء المتقين (جزاء من ربك عطاء حسابا): أي أعطاهم الله عطاء كافياً على حسب عملهم.

سورة الغاشية تبدأ بخطاب الرسول الكريم بأمر القيامة دون تمهيد، وتذكر الجزاء بشكل مغاير لما مرَّ. إذ تعرج على الوجوه، وجوه الناس في ذلك اليوم. والوجه صفحة بارزة تنعكس عليها الآثار، فتظهرها الملامح والسمات. قال تعالى: ﴿هل أتاك حديثُ الغاشية. وجوهٌ يومئذٍ خاشعة. عاملةٌ ناصبة. تَصْلى ناراً حامية. تُسقى من عينٍ آنية. ليس لهم طعامٌ إلاّ من ضريع. لايُسمِنُ ولايُغني من جوع﴾ الغاشية/1-7.

وهذا جزاء الكفار الذي أعقبه جزاء المؤمنين. قال تعالى: ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناعمة. لسعيها راضية. في جنّةٍ عالية. لاتسمع فيها لاغية. فيها عينٌ جارية. فيها سُرُرٌ مرفوعة. وأكوابٌ مصنوعة. ونمارِقُ مصفوفة. وزرابيُّ مَبْثوثة) الغاشية/8-16.

لقد رافقت الوجوه الذليلة العمل والتعب في النار التي تتلظى، والسقي من العين المتناهية الحرارة، والأكل من السم القاتل، في جزاء الكافرين.

ورافقت الوجوه المنعمة بأنواع النعيم والسرور الرضا عن العمل في الجنة حيث لايسمعون كلمة ساقطة، وحيث أُعدت لهم أنواع الراحة والسعادة من الماء الجاري والسرر المرتفعة والأكواب والوسائد والبسط وكلها في غاية الكمال والجمال.

قضية عاد:

قضية عاد كغيرها من قصص الأمم التي بادت وانتهت منذ زمن بعيد، وأخبر بها القرآن، وكان الإخبار بها على التفصيل في وصف الأحداث والشخصيات والحوار، وذكر المنتهى ومآآل إليه أمرها من الإهلاك والتلاشي،

حتى كأنّ القضية تحدث والراوي، وهو فيها، يروي مجرياتِها، وهذا كلُّه من وجوه إعجاز القرآن، حيث لايتأتى ذلك، على تلك الصفات، إلا للعليم سبحانه وتعالى. وهي، وغيرها كذلك، لم ترد في القرآن الكريم مقصوداً بها قصُّ الأحداث، وإنما وراء هذا غرض. أشار القرآن إليه في سورة هود حيث قال تعالى: ﴿وكلاًّ نقُصُّ عليك من أنباءِ الرسل مانثبِّتُ به فؤادَكَ وجاءَك في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾ هود/120.

أي أن الأخبار التي قصّها –عز شأنه– على رسوله الأمين، من أنباء الرسل المتقدمين مع أممهم، وكيف نصر الله المؤمنين وخذل الكافرين. كل هذا مما يثبت الله به فؤاد النبي، ليكون له بمن مضى من إخوانه المرسلين أسوة(13). ثم إن في تلك القصص (موعظة) تعظ الجاهلين بالله، وتزجر الناس عن المعاصي (وذكرى للمؤمنين) تذكرهم الآخرة(14). فللقصص القرآني غاية ذات ثلاثة أوجه، تؤتي ثمرها للنبي وللمؤمنين، كل حسب موقفه ومسؤوليته أمام دعوة الحق.

وردت قضية عاد في عشرين موضعاً من القرآن الكريم. ثمانيةمنها على سبيل الإشارة، وهي مقرونة فيها مع أمم أخرى، وليس في هذه المواضع الثمانية سرد لأحداث، أو رواية أقوال، أو وصف مدائن، وإنما إشارة إلى أمر جامع، اشتركت فيه الأمم السالفة، كإرسال الرسل إليهم وظلمهم أنفسهم بالكفر، كما في قوله تعالى: ﴿ألم يأتِهم نبأُ الذين مِنْ قبلِهم قومُ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ إبراهيمَ وأصحابِ مدينَ والمؤتفكاتِ أتتْهم رُسُلهم بالبيِّنات وماكان الله ليظلِمَهم ولكنْ كانوا أنفسَهم يظلمون﴾ التوبة/70(15).

أو تكذيب الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿وإنْ يكذّبوك فقد كذّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ وعادٌ وثمودُ. وقومُ إبراهيمَ وقومُ لوطٍ وأصحابُ مِدْينَ وكُذّبَ موسى فأمليتُ للكافرين ثم أخذتُهم فكيفَ كانَ نكيرِ﴾ الحج/42-44(16).

في المواضع الأخرى التي وردت فيها قضية عاد، نجد أن القضية تخضع لعاملين: عامل السياق، ويتمثل في إيراد القضية متصلة بالموضوع الرئيس الذي عليه الكلام في السورة. فتدخل في الجو العام للسورة، من حيث الوعد أو الوعيد مثلاً. ومن حيث قصر الآيات أو طولها، وإيقاعها وفاصلتها، وغير هذا من الأمور التي تكوّن السورة بكيان مستقل. العامل الثاني: إيراد جزء محدد من القضية في كل موضع. ولانجد القضية مسرودة بكاملها في موضع واحد،وإنما مجموع مواضعها في القرآن يشكل كلية القضية. ولاتختص قضية عاد بهذه الميزة، فهي، كغيرها من قصص الأمم، تكررت تكريراً ظاهراً، وامتاز كل موضع بما يحولها من التكرير إلى الجدة.

لقد تقدم في مفتتح سورة الأعراف خطاب الرسول الكريم بقوله تعالى: ﴿المص. كتابٌ أُنزل إليك فلايكنْ في صدرِك حَرجٌ منه لتُنذِرَ به وذكرى للمؤمنين﴾ الأعراف/1-2.

وفيه إشارةإلى الانذار بالقرآن، وهو آية محمد -صلى الله عليه وسلم- على نبوته، وفيها وردت قضية عاد مرتبطة بتلك الإشارة. فتبدأ بإرسال هود إلى عاد وإنذارهم بأن يعبدوا الله وحده، فهي من هذا الوجه تتعلق بسياق الموضوعات في السورة كلها. قال تعالى: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال ياقومي اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيرُهُ أفلا تتّقون. قال الملأُ الذين كفروا من قومِه أنّا لنراك في سفاهةٍ وإنّا لنظنّك من الكاذبين. قال ياقومي ليس بي سفاهةٌ ولكني

رسولٌ من ربِّ العالمين. أُبلِّغُكم رسالاتِ ربي وأنا لكم ناصحٌ أمين. أوَ عَجِبْتم أنْ جاءكم ذكرٌ من ربِّكم على رجلٍ منكم لينذرَكم واذكروا إذ جعلكم خلفاءَ من بعدِ قومِ نوحٍ وزادكم في الخَلْقِ بسطةً فاذكروا آلاءَ اللهِ لعلَّكم تتّقون. قالوا أجئتَنا لنعبدَ اللهَ وحدَهُ ونذرُ ماكان يعبدُ آباؤنا فآتِنا بما تَعِدنا إنْ كنتَ من الصادقين. قال قد وَقَع عليكم رِجْسٌ وغَضَبٌ أتجادلونني في أسماءٍ سمّيتموها أنتم وآباؤكم مانزّلَ اللهُ بها من سلطانٍ فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين. فأنجيناه والذين معه برحمةٍ منا وقَطَعنا دابرَ الذين كذّبوا بآياتِنا وماكانوا مؤمنين﴾ الأعراف/65–72.

ونستطيع أن نحدد الخطوط الرئيسة في القضية بما يأتي:

1– ارسال هود ودعوته إلى توحيد الله.

2– إعراض سادة قومه، وهم كافرون، عنه.

3– رده عليهم بأنه رسول من الله ناصح لهم وهو منهم.

4– تذكيره بنعم الله عليهم حيث أخلفهم في الأرض بعد نوح وجعلهم أقوياء.

5– إنكارهم التوحيد وترك عبادة الأصنام ومطالبتهم إياه بآية.

6– وعيده بإيقاع عذاب الرجس والغضب.

7– تعقيب القضية بنجاة هود والمؤمنين معه وهلاك الكافرين المكذبين.

إن أسلوب عرض القضية في سورة الأعراف يتفق مع عرض قضايا قوم نوح وثمود ولوط في غالب الخطوط الرئيسة. ويختلف في بعضها، مما يتيح لكل قضية أن تتخذ سمات، تميزها مما يرد في المواضع الأخرى. وإن هذه القضية قدمت لنا جانباً من قصة عاد، و لم تقدم القصة كاملة.

في سورة هود حيث تبدأ بالدعوة إلى توحيد الله والإنذار من عذابه، والتبشير بثوابه، وإلى استغفاره والتوبة إليه، والتحذير من عذاب الآخرة. قال تعالى: ﴿آلر. كتابٌ أُحكِمتْ آياتُهُ ثم فُصِّلتْ مِنْ لدنْ حكيمٍ خبير. ألاّ تعبدوا إلاّ اللهَ إنّني لكم منه نذيرٌ وبشير. وأنْ استَغْفِروا ربَّكم ثمَّ تُوبوا إليه يُمتِّعْكم مَتاعاً حَسَناً إلى أجلٍ مُسمَّى ويؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَهُ وإنْ تَوَلَّوا فإنّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبير﴾ هود/1-3.

وجاءت قضية عاد، وهي ناظرة إلى الموضوع الرئيس في السورة، وتقدم كذلك، معلومات جديدة عن قصة عاد. نعرضها بحسب الخطوط الرئيسة فيها:

1- ارسال هود إلى عاد، ودعوته إلى توحيد الله. قال تعالى: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال ياقومي اعْبدوا اللهَ مالكم مِنْ إلهٍ غيرُهُ إنْ أنتم إلاّ مُفْتَرون﴾ هود/50.

2- ليس لهود من دعوته تلك شيء من أمور الدنيا، مما حرصوا عليه، وصرفوا جهدهم فيه، وإنما يأمل أجر الله الذي خلقه في الآخرة. قال تعالى: ﴿ياقومي لاأسألكم عليه أجراً إنْ أجري إلاّ على الذي فَطَرني أفلا تَعْقِلون﴾ هود/51.

3- أمرهم بالاستغفار والتوبة، وأن الله يرسل المطر إليهم، ويزيدهم قوةً إلى قوتهم. قال تعالى: ﴿وياقومي استغفروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه يُرسلِ السماءَ عليكم مِدْراراً ويَزِدْكم قوةً إلى قوّتِكم ولاتَتَولّوا مُجرمين﴾ هود/52.

وقد قصد استمالتهم إلى الإيمان، وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة، لأن القوم كانوا أصحاب زورع وبساتين وعمارات حرّاصاً عليها أشد الحرص،

فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا كذلك فخورين بما أُوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة(17).

4- مضايقتهم بآية، وإصرارهم على عبادة إلهتهم وإعراضهم عن هود، وتعليل ماجاء به بسوء أصابه، لقدرة آلهتهم على ذلك، ورده عليهم. قال تعالى: ﴿قالوا ياهودُ ماجئتنا ببيِّنةٍ ومانحن بتاركي آلهتِنا عن قولِكَ ومانحن لك بمُؤمنين. إنْ نقولُ إلاّ اعْتراك بعضُ آلهتِنا بسُوء قال إنْي أُشهِدُ الله واشْهَدوا أنِّي بَريء مّما تُشركون. مِنْ دونِهِ فكيدوني جميعاً ثم لاتُنظرون. إنِّي توكلتُ على اللهِ ربّي وربِّكم مامن دابَّة إلاّ هو آخذٌ بناصيتِها إنَّ ربِّي على صِراطٍ مستقيم. فإنْ تَوَلّوا فقد أبلغتُكم ماأُرسلِتُ به إليكم ويستخلفُ ربِّي قوماً غيرَكم ولاتضرُّونَه شيئاً إنَّ ربي على كلِّ شيءٍ حفيظ﴾ هود/53-57.

5- مجيء أمر الله ونجاة هود والمؤمنين معه. قال تعالى: ﴿ولّما جاء أمرُنا نجّينا هوداً والذين معه برحمةٍ منا ونجّيناهم من عذابٍ غليظ﴾ هود/58.

6- الإشارة إلى أن عاداً كفروا وعصوا وعُذّبوا عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة،وتعقيب القضية بـ (إلا) حيث أن تكرارها مع الدعاء عليهم تهويل لأمرهم، وتفظيع له، وبعث على الاعتبار بهم، والحذر من مثل حالهم(18). قال تعالى:﴿ وتلك عادٌ جَحَدوا بآيات ربِّهم وعَصَوا رسلَهُ واتّبعوا أمرَ كلِّ جبارٍ عنيد. وأُتْبِعُوا في هذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامةِ ألا إنَّ عاداً كفروا ربَّهم ألا بعداً لعادٍ قومِ هود﴾ هود/60.

إن ملاحظة القضية في سورة الأعراف وسورة هود تنبئ بالفرق بين التعقيبين، فالقضية في الأعراف، تقوم على الدعوة إلى توحيد الله، دون ترغيب

بشيء، فكأنها على الأصل، أمرٌ بعبادة الله، وإعراض عن ذلك، فجاء تعقيبها خبراً فيه فائدة إكمال القضية، وتتمة أحداثها.

أما في سورة هود فإن القضية اشتملت على بيان فائدة الاستغفار والتوبة، وإنها ستعطيهم ماهم بأمس الحاجة إليه: المطر الغزير. وستزيد في قوتهم قوة، وهم متنعمون بها، عارفون سلطانها. واشتملت كذلك، على ذكر جحودهم، وعصيانهم، ولحاق اللعنة بهم في الدنيا والآخرة، فجاء التعقيب مصوراً لهول القضية وفظاعتها، ومعناه دعاء عليهم بالبعد عن رحمة الله سبحانه، فناسب كل تعقيب موضعه.

في سورة الشعراء بُدئت القضية بالتكذيب، وهو المناط الذي علقت به، وهو، أيضاً، في سياق الكلام على تكذيب الأمم رسلها، وفي هذا تسلية للرسول الكريم، بأن شأن الذين يكذبونه شأن أسلافهم في الأمم الماضية. قال تعالى: ﴿كَذَّبتْ عادٌ المُرسلين. إذْ قالَ لهم أخوهم هودٌ ألا تتّقون. إنّي لكم رسولٌ أمين. فاتّقوا الله وأطيعون. وماأسألكم عليه من أجرٍ إنْ أجري إلاّ على ربِّ العالمين. أتبْنون بكلِّ رِيعٍ آيةً تعْبَثون. وتَتخذون مصانعَ لعلّكم تَخْلُدون. وإذا بَطَشْتم بطشتم جبّارين. فاتّقوا الله وأطيعون. واتّقوا الذي أمَدَّكم بما تَعْلَمون. أمَدَّكم بأنعامٍ وبنين. وجنّاتٍ وعيون. إنّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم. قالوا سواءٌ علينا أوعظتَ أم لم تكن من الواعظين. إنْ هذا إلا خُلُق الأولين. ومانحن بمُعذّبين. فكذّبوه فأهلكناهم إنَّ في ذلك لآيةً وماكان أكثُرهم مؤمنين. وإنَّ ربَّك لهو العزيز الرحيم﴾ الشعراء/123–140.

وفيها من الخطوط الرئيسة، بالإضافة إلى مامضى في سورة هود:

1- أنهم يبنون البناء المرتفع عبثاً. إذ لايحتاجون إليه لسكنهم، ويتخذون البروج المشيدة إرادةً للخلود فيها.

2- أن الله سبحانه أنعم عليهم بالأنعام والبنين والجنات والعيون.

3- إنكارهم البعث والعذاب.

وجاء التعقيب يبين أن في إرسال هود إليهم،ودعوته إلى توحيد الله، ونعم الله عليهم آية لهم. ولكن أكثرهم ماكانوا مؤمنين. إذ أعرضوا عن الدعوة وكانوا يعبثون ببناء الأبنية والبروج، ويتخذونها لخلودهم، ويبطشون في القتال. وإن الله هو العزيز الرحيم، يهلك الكافرين ويثيب المؤمنين.

في سورة العنكبوت معلومات جديدة أخرى. ففيها إشارة إلى أن الناس على بينةٍ من مساكن عاد، فهي ليست بعيدة عنهم، بحيث لايعرفون عنها شيئاً، وقد صدَّ عاداً الشيطان عن عبادة الله الحق، وكانوا عقلاء يمكنهم التمييز بين الحق والباطل، ولكنهم أدبروا عن دعوة الحق. قال تعالى: ﴿وعاداً وثمودَ قد تبيَّنَ لكم مِنْ مساكنِهم وزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فصدَّهم عن السبيلِ وكانوا مُستبصرين﴾ العنكبوت/38.

وجاءت قضية عاد في سورة فُصِّلت لبيان كيفية إهلاك المعرضين، وقد أعرض كثير ممن دعاهم -محمد صلى الله عليه وسلم- قال تعالى في أوائل السورة: ﴿... فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون﴾ فصلت/4.

وكانت قضية عاد على السياق نفسه فبُدئت بذكر الصاعقة، وهي العذاب المهلك. قال تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقلْ أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ. إذ جاءتْهم الرسلُ من بينِ أيديهم ومن خلفِهم ألاّ تَعْبدوا إلاّ الله قالوا لو شاءَ ربُّنا لأنزلَ ملائكةً فإنّا بما أُرسِلتم به كافرون. فأمَّا عادٌ فاستكبروا في الأرضِ

بغيرِ الحقِّ وقالوا مَنْ أشدُّ منّا قوةً أوَ لم يروا أنَّ الله الذي خلَقَهم هو أشدُّ منهم قوةً وكانوا بآياتنا يجحَدون. فأرسَلْنا عليهم ريحاً صَرْصراً في أيامٍ نَحِساتٍ لِنُذيقَهم عذابَ الخِزْي في الحياةِ الدنيا ولَعذابُ الآخرةِ أخزى وهم لايُنْصَرون﴾ فصلت/13-16.

في هذا الموضع نجد أنهم كفروا بدعوة هود إلى عبادة الله، لأنه بشر منهم، وذلك أنهم اعتقدوا أن الرسل ملائكة وليسوا بشراً، وأنهم استكبروا بقوتهم،ولم يعلموا أن الله أشد منهم قوة، ثم بينت الآيات نوع العذاب الذي لحق بهم، وهو أن الله سبحانه أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة ذات الصوت المزعج، استمرت عليهم أياماً متتابعات وأوعدهم الله بعذاب آخر أخزى من هذا، حيث لايجدون من الله من واقٍ يقيهم عذابه(19).

وأخبر سبحانه في سورة الأحقاف أن الذين كفروا يعرضون عادةً عما أُنذروا به فقال: ﴿والذين كفروا عمّا أُنذِرُوا مُعْرِضون﴾ الأحقاف/3.

وأمر رسوله الكريم بقوله: ﴿قلْ ماكنتُ بِدْعاً من الرسلِ وماأدري مايُفْعَلُ بي ولابكم إنْ أتَّبعُ إلاّ مايُوحى إليَّ وماأنا إلاّ نذيرٌ مُبين﴾ الأحقاف/9.

وجاءت قضية عاد تشير إلى ذلك وتركز عليه. قال تعالى: ﴿واذكرْ أخا عادٍ إذْ أنذرَ قومَهُ بالأحقافِ وقد خلَتِ النُذُرُ من بين يديهِ ومن خلفِهِ ألاّ تعبُدوا إلاّ الله إنّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم. قالوا إجئتَنا لِتأْفِكَنا عن آلهتِنا فأْتِنا بما تَعِدُنا إنْ كنت من الصادقين. قال إنّما العلمُ عندَ اللهِ وأُبَلِّغُكم ماأُرسِلْتُ به ولكني أراكم قوماً تجهلون. فلما رأَوْهُ عارضاً مُستقبِلَ أوديتِهم قالوا هذا عارضٌ مُمْطِرُنا بل هو مااستعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ عظيم تُدمِّرُ كلَّ شيءٍ بأمرِ ربِّها فأصبحوا لايُرى إلا مساكنُهم كذلك نَجْزي القومَ المجرمين﴾ الأحقاف/21-25.

إن الخطوط الرئيسة في هذه القضية هي:

1- أمر الله تعالى محمداً -صلى الله عليه وسلم- بأن يذكر إنذار قوم عاد بالأحقاف، وفي هذا تحديد لمكان القصة، كما تحدد زمنها بأنها بعد نوح(20).

2- ردهم عليهم ومطالبتهم مستهزئين أن يأتي بما يخوّفهم به من عذاب اليوم العظيم.

3- قول هود أنه ليس عنده علم بذلك، وهو مكلف بالتبليغ فحسب.

4- اعتقادهم أن العذاب الواقع بهم هو مطر يأتي إلى أرضهم، وقد فرحوا، واستبشروا به أولاً، وكانوا قوماً ممحلين محتاجين إلى المطر(21). ولكنه عذاب بالريح التي تدمر كل شيء.

5- التعقيب بأن هذا هو حكم الله سبحانه، فيمن كذّب الرسل وخالف الأمر، وهو متسق مع مابُنيت عليه السورة.

وجاء في سورة الذاريات تفصيل للريح المهلكة،وهي في سياق بيان آيات الله في خلقه، إذ هو قادر على كل شيء،ومنه هذه الريح. قال تعالى: ﴿وفي عادٍ إذْ أرسلْنا عليهم الريحَ العقيم. ماتَذَرُ من شيءٍ أتتْ عليه إلاّ جعلتْه كالرميم﴾ الذاريات/41-42.

والريح العقيم هي التي عقمت عن أن تأتي بخير من تنشئة سحاب أو تلقيح شجر أو تذرية طعام أو نفع حيوان(22).

وفي سورة القمر التي عقّبت قضاياها تعقيباً متكرراً. قال تعالى: ﴿كذّبتْ عادٌ فكيفَ كان عذابي ونُذُرِ. إنّا أرسَلْنا عليهم ريحاً صَرْصراً في يومِ

نَحْسٍ مُسْتمر. تَنْزِعُ الناسَ كأنَّهم أعجازُ نخلٍ مُنْقَعِر. فكيفَ كـاَ عذابي ونُـذُرِ. ولقد يسَّرْنا القرآنَ للذكرِ فهل من مُدّكر﴾ القمر/18–22.

وقد بُدئت القضية بالإخبار عن تكذيـب عـاد، وقرنتـه بتعظيـم العـذاب الواقع بهم، وأشارت إلىالريح الصرصر. وأنها تقتلع الناس ثـم ترمـي بهـم علـى رؤوسهم، فتدقّ رقابهم، فيصيرون كأسافل نخـل منقلـع، لأن الـرؤوس سـقطت عن الأبدان(23).

وفي سورة الحاقة بيّن سبحانه وتعالى أن عاداً كذّبوا بيوم القيامة، وأنهـم أهلكوا بالريح وكانت مدة إهلاكهم سـبع ليـال وثمانيـةأيام كاملـة. قـال تعـالى: ﴿كذّبتْ ثمودُ وعادٌ بالقارعة. فأمَّا ثمودُ فـأُهلِكوا بالطاغيـة. وأمَّـا عـادٌ فـأُهلِكوا بريحٍ صَرْصرٍ عاتية. سَخَّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسوماً فترى القومَ فيها صرعى كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاوية. فهل ترى لهم من باقية﴾ الحاقة/5–9.

وعقبت بأن لم يبق منهم أحد، على سبيل الاستفهام الإنكاري.

هكذا نجد أن قضية عـاد تتنـوع في كـل موضـع بما يبعـد عـن أسـلوب القرآن الكريم التكرار الممـل، وفي كـل موضـع إضافـة تضـيء جانبـاً مـن مجمـل القصة، ويختلف تعقيبها في كل موضع بما يلائم القضية.

*

هوامش (التعقيب والقضية)

1- الكشاف 1 : 465

2- مجمع البيان 1 : 179

3- تفسير القرآن العظيم 1 : 285

4- مجمع البيان 2 : 317

5- تفسير القرآن العظيم 4 : 546.

6- مجمع البيان 3 : 72.

7- الكشاف 1 : 252 وملاك التأويل 2 : 1129.

8- تفسير القرآن العظيم 1 : 113-114.

9- الكشاف 1 : 357.

10-مجمع البيان 2 : 313.

11-نفسه 10 : 424.

12-تفسير القرآن العظيم 2 : 633.

13-مجمع البيان 5 : 204.

14-وكذا في ابراهيم/9.

15-وكذا في الفرقان/37-38. ص/12-13. غافر/31. ق/12-14. الفجر/6-8.

16-الكشاف 2 : 275.

17-نفسه 2 : 277.

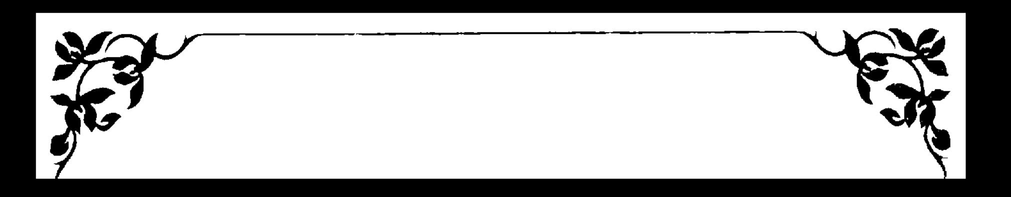
18-تفسير القرآن العظيم 4 : 140.

19-الأعراف/79.

20-تفسير القرآن العظيم 4 : 237.

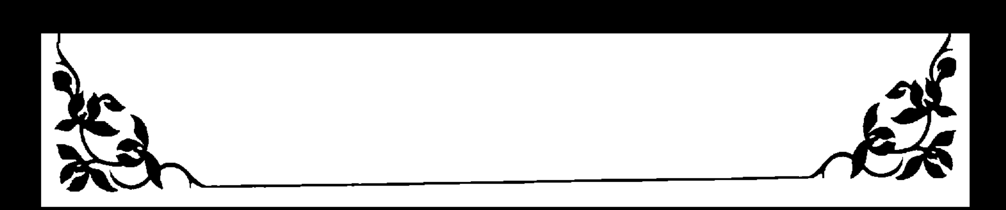
21–مجمع البيان .159

22–نفسه 9 : .19[illegible]



القسم الثاني

التعقيب والتركيب والدلالة



التعقيب والتركيب والدلالة

لاشك في أن أي تغيير يطرأ على تركيب الكلام يلحقه تغيير في الدلالة، وإذا كان الكثير من مدار إعجاز القرآن حول مراعاة الفروق التركيبية وصولاً إلى دلالات مطابقة لمقتضى الحال، فإن ذلك تحقق بشكل لايتهيأ للبشر، لمحدودية الإحاطة بالمعاني المطابقة للأحوال فيما عرض له القرآن من موضوعات.

وفيما يخص أسلوب التعقيب الذي نحن بصدده، ارتأينا تحليل التعقيب تركيباً ودلالة، ونحن نعلم أن التركيب والدلالة لايمكن التفريق بينهما أبداً، لأنهما متفاعلان في وحدة حية، تنتسب إلى القضية التي يقفّيها التعقيب انتساباً أصيلاً، فسلكنا في ذلك التصنيف الهجائي، لتسهيل رصد التعقيبات المختلفة.

الاستدراك بـ(لكن):

معنى الاستدراك أن تنسب حكماً لاسم (لكن) يخالف المحكوم عليه قبلها، وهي لاتكون إلا بعد كلام ملفوظ به، أو مقدر،وتقع بين متنافيين(1).

وجاءت (لكنَّ) مشددة في التعقيب على الآتي:

- لكنَّ + اسمها + خبرها جملة فعلية.

قال تعالى: ﴿تلك الرسلُ فضَّلْنا بعضَهم على بعضٍ منهم مَنْ كلَّمَ اللهُ ورَفَع بعضَهم درجاتٍ وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيِّناتِ وأيدناهُ برُوحِ القُدُسِ ولو شاءَ اللهُ مااقتتلَ الذين مِنْ بعدِهم مِنْ بعدِ ماجاءتْهم البيِّناتُ ولكنِ اختلفوا فمنهم مَنْ آمنَ ومنهم مَنْ كَفَر ولو شاءَ اللهُ مااقتتلوا ولكنَّ اللهَ يفعلُ مايُريد﴾ البقرة/253.

سبق التعقيب (لو)،وهي مغنية عن النفي الذي يجب أن يتقدم الاستدراك، وذلك لأنها حرف امتناع لامتناع(2). فدلّت على أن مشيئة الله في كف الاقتتال لم تقع، لأنه يفعل مايريد، وأن فعلية خبر (لكن) تدل على تجدد فعل إرادته سبحانه.

ووردت (لكن) مخففة في قوله تعالى: ﴿إن الذينَ كَفَروا لن تُغني عنهم أموالُهم ولاأولادُهم من الله شيئاً وأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون. مَثَلُ مايُنفِقون في هذه الحياةِ الدنيا كَمثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أصابتْ حَرْثَ قومٍ ظَلَموا أنفسَهم فأهلكتْه وما ظَلَمهم الله ولكنْ أنفسَهم يظلِمون﴾ آل عمران/116-117.

وقوله تعالى: ﴿هل يَنْظُرون إلا أنْ تأتيَهم الملائكةُ أو يأتيَ أمرُ ربِّك كذلك فَعَل الذين مِنْ قبلِهم وماظَلَمهم الله ولكنْ كانوا أنفسَهم يظلِمون﴾ النحل/33.

وجاء الفعل (كان) في آية النحل و لم يجئ في آية آل عمران. وذلك لأن آية آل عمران نزلت في المعاصرين لرسول الله، الحاضرين عند نزول الآية، فورد الإخبار مساوقاً لحالهم في وقت النزول، فلم يكن لدخول (كان) التي تقتضي وقوع الشيء فيما تقدم من الزمان، معنى تحرزه، وأما آية النحل فإخبار عمن تقدم زمنهم بدليل قوله تعالى ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ فناسبها مجيء (كان)(3).

*

الاستفتاح بـ (ألاَ):

تتضح دلالة الاستفتاح في استعمال (ألاَ) في أنها تدخل على كل كلام مكتفٍ بنفسه، فتفيد التنبيه على تحقيق مابعدها وتقريره(4). ففي قوله تعالى: ﴿ومن الأعرابِ مَنْ يؤمنُ با للهِ واليومِ الآخر ويتخذُ مايُنْفِقُ قُرُباتٍ عندَ اللهِ وصلواتِ الرسولِ ألاَ إنَّها قُرْبةٌ لهم سيُدْخِلُهم اللهُ في رحمتِهِ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم﴾ التوبة/99.

دلّت (ألاَ) على صحة مااعتقد المتصدّق من كون نفقته قُرُباتٍ وصلوات، على طريق الاستئناف والاستفتاح. مع التنبيه والتحقيق المؤذنَيْنِ بثبات الأمر وتمكنه(5).

وجاءت استعمالات (ألاَ) في التعقيب على تراكيب مختلفة متعددة منها:

- ألاَ + جملة اسمية.

قال تعالى: ﴿ومَنْ أظلمُ مِمَّن افترى على اللهِ كَذِباً أولئك يُعرَضُون على ربِّهم ويقولُ الأشهادُ هؤلاءِ الذين كَذَبوا على ربِّهم ألاَ لعنةُ اللهِ على الظالمين﴾ هود/18.

وقد تقدم وصف المفترين على الله الكذب بأنهم الأظْلم. إذ لاأحد أظلم منهم في فعلهم، وجاء التعقيب بوصف ظالمين، وقد انصبّت عليهم لعنة الله. أي أبعدهم الله عن رحمته(6). فكانت اسمية الجملة تشير إلى ثبات اللعنة عليهم ودوامها.

وجاء التعقيب كذلك في جملة اسمية في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ يُكوِّرُ الليلَ على النهارِ ويُكوِّرُ النهارَ على الليلِ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجلٍ مُسمًّى ألا هو العزيزُ الغفار﴾ الزمر/5.

وفيه الإضمار في (هو) وتعريف الخبر في (العزيز)، أما الإضمار فموافق للسياق، فقد جاء ذكر (الله) جل شأنه في الآيات اللواتي قبل هذه الآية ثماني مرات، و لم يُعبَّر في أي منهن عنه سبحانه بالضمير إلا في هذا الموضع، فصار الإضمار تعظيماً للظاهر سبحانه.

وأما تعريف الخبر (العزيز) فقد أفاد القصر الحقيقي على سبيل المبالغة، ومثله قوله تعالى ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ النساء/13(7).

فيكون قد اجتمع في هذا التعقيب إفادة التحقيق بـ(ألاَ) والتعظيم بالإضمار والقصر الحقيقي في تعريف الخبر. وهذه الأمور مناسبة لوصفه تعالى بالعزيز الغفار. أي الغالب(8) الساتر للذنوب في سياق القضية التي قفّاها التعقيب. إذ أن المراد أن من قدر على خلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، وإدخال الليل في النهار، والنهار في الليل، فهو منزه عن اتخاذ الولد والشريك، لأن ذلك من صفة المحتاجين(9).

ألاَ + فعل ماض للذم.

قال تعالى: ﴿قد خسِرَ الذين كذّبوا بلقاءِ اللهِ حتى إذا جاءتْهم الساعةُ بَغْتةً قالوا ياحسرتَنا على مافرَّطنا فيها وهم يَحمِلون أوزارَهم على ظهورِهم ألا ساءَ مايَزِرون﴾ الأنعام/31.

وأفادت (ألاَ) تحقيق سوء وزرهم بطريقة الفعل (ساء)، حيث تدل فعلية الجملة على تجدد الذم بالسوء وحدوثه. ثم إن فعلية جملة التعقيب متناسبة مع فعلية الموقف الذي تصوره الآية. فهؤلاء الخاسرون يتحسرون أشد التحسر على مافاتهم من أمر القيامة ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ أي يتحسرون في حالة حملهم أثقال ذنوبهم على ظهورهم، والفعل (يحملون) يصور حالة

متجددة للفعل مستمرة، لاينقطع فيها الحاضر عن المستقبل، وفي الطرف المقابل نجد الحكم على تلك الحالة بالسوء، -السوء المتجدد- بالفعل (ساء) ليقع مقابلاً مساوياً للفعل (يحملون). أي أنهم يحملون الأثقال،وأنهم محكوم عليهم بسوء مايحملون في الوقت نفسه. وهذا التركيب بمعنى (بئس). أي بئس شيئاً مايزرون وزرهم(10).

إن هذا التعقيب الذي جاء في سورة الأنعام، له مثيل في سورة النحل وهو يعقب القضية نفسها: وعيد الذين كذّبوا يوم القيامة، وجعلوا القرآن الكريم أساطير الأولين، قال تعالى: ﴿وإذا قيلَ لهم ماذا أنزَلَ ربُّكم قالوا أساطيرُ الأولين. ليحمِلوا أوزارَهم كاملةً يومَ القيامةِ ومِنْ أوزارِ الذين يُضِلُّونهم بغيرِ علمٍ ألا ساءَ مايَزِرُون﴾ النحل/24-25.

وعند المقارنة بين القضيتين يتبين أن ماجاء في سورة النحل سبب لما جاء في سورة الأنعام، فهؤلاء كانوا يصدون الناس عن رسول الله ويضلونهم بالحكم على القرآن بأنه أحاديث الأولين وأباطيلهم(11)، وقد خسروا يوم القيامة وتحسروا على مافاتهم.

ألا + فعل مضارع.

قال تعالى في المطفّفين: ﴿ويلٌ للمُطفّفين. الذين إذا اكتالوا على الناسِ يَستَوْفون. وإذا كالُوهم أو وَزنُوهم يُخسِرون. ألا يَظنُّ أولئكَ أنهم مَبْعوثون. ليومٍ عظيم﴾ المطففين/105.

و(ألاَ) تفيد عرض الظن، أو الطلب برفق ولين إلى أولئك المطففين أن يخطروا بالهم أو يخمنوا تخميناً حتمية بعثهم في يوم عظيم، هو يوم القيامة، حيث

يقوم الناس لرب العالمين. فإن مجرد الظن بالجزاء والبعث يوجب الامتناع عن التطفيف، والفعل المضارع جعل العرض متجدداً بتجدد مانُهوا عنه.

ألا + جار ومجرور مقدمان + فعل مضارع.

قال تعالى في المطيعين: ﴿الذينَ آمنوا وتَطْمئِنُ قلوبُهم بذكرِ اللهِ ألا بذكرِ اللهِ تَطْمئِنُ القلوبُ﴾ الرعد/28.

إذا كان الاستفتاح بألا يفيد التنبيه على تحقق مابعدها، فإن تقدم الجار والمجرور على عاملهما (تطمئن) يفيد قصر اطمئنان القلوب على ذكر الله، أي: أنها لاتطمئن إلا بذكر الله،ومعنى اطمئنان القلوب هو أنها تسكن بذكر الله،وتأنس إليه، إذ تذكر ثوابه وإنعامه وآلاءه. ثم إن في دلالة التعقيب بألا حثاً للعباد على تسكين القلب إلى ماوعد الله به من النعيم والثواب والطمأنينة إليه، فإن وعده صادق، ولاشيء تطمئن إليه النفس أبلغ من الوعد الصادق(12).

ومثله قوله تعالى في هداية الرسول الكريم إلى الصراط المستقيم: ﴿وكذلك أوحينا إليكَ رُوْحاً من أمرِنا ماكنتَ تدري ماالكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلناهُ نوراً نَهدي به مَنْ نشاءُ مِنْ عبادِنا وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم. صراطِ اللهِ الذي له مافي السواتِ ومافي الأرضِ ألا إلى اللهِ تَصيرُ الأمور﴾ الشورى/52-53.

وقد أفاد التعقيبُ التنبيهَ والقصرَ ومعناه: أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره(13).

ألا + إنَّ

قال تعالى: ﴿أم حسِبتم أنْ تدخُلوا الجنّةَ ولمّا يأتِكم مَثَلُ الذين آمنوا مِنْ قبلِكم مسَّتْهم البأساءُ والضَرَّاءُ وزُلْزِلُوا حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه متى نصرُ اللهِ ألا إنَّ نصرَ اللهِ قريب﴾ البقرة/214.

مجيء (إنَّ) التي تفيد التوكيد بعد (ألا) متناسب مع ماقبلها، وذلك أن الذين خلوا من قبل المخاطبين مسّتهم الأهوال والمصائب والبلايا، فقالوا مع رسولهم (متى نصر الله) وهذا استفهام خرج إلى معنى الاستعجال(14). والاستفهام يوجب توكيد الخبر بمؤكد، في حالة تردد السامع وطلبه للخبر(15). فكان التوكيد بأن يدل على أن الله سبحانه ناصرُ أوليائه لامحالة(16).

ألاَ + إن + اللام

قال تعالى: ﴿اللهُ الذي أنزلَ الكتابَ بالحقِّ والميزانَ ومايُدريكَ لعلَّ الساعةَ قريبٌ. يَستعجلُ بها الذين لايُؤمنون بها والذينَ آمنوا مُشْفِقُون منها ويَعلمون أنَّها الحقُّ ألاَ إنَّ الذين يُمارون في الساعةِ لفي ضلالٍ بعيد﴾ الشورى/18.

إن التوكيد بعد (ألا) بأن واللام في خبرها ضرورة، تستدعيها حالة أولئك الذين يكذبون بأمر الساعة وفجأتها، إذ أنهم ينكرونها، وهي حق، فجاء في الخبر عنهم أنهم في ضلال بعيد عن الحق. لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله تعالى، ولدلالة القرآن على أنها آتية، لاريب فيها، ولشهادة العقول على أنه لابد من دار الجزاء(17). وإن اجتماع (إن) واللام إنما يكون عند المبالغة في التوكيد. وذلك عندما يكون المخاطب منكراً أو منزلاً هذه المنزلة(18).

ألا + إن + ضمير الفصل + تعريف الخبر.

قال تعالى في المنافقين: ﴿وإذا قيل لهم لاتُفسِدوا في الأرض قالوا إنَّما نحن مُصْلحون. ألا إنَّهم هم المُفْسِدون ولكنْ لايَشْعُرون﴾ البقرة/11-12.

وفي ادعائهم (إنما نحن مصلحون) قصر لهم على صفة الاصلاح. أي إن صفة الاصلاح خلصت لهم، وتمحضت من غير شائبةٍ قادحٍ فيها، من وجه من وجوه الفساد. وفي التعقيب ردٌّ سبحانه دعواهم تلك أبلغَ رد وأدلَّةٌ على سخطٍ عظيم. فالتنبيه على تحقق مابعد (الا) والتوكيد بـ(ان) وتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل (هم)(19) هي خصائص الرد البليغ الذي رُدّوا به، وإن تعريف الخبر يفيد حصر المسند إليه بالمسند؛ أي أنهم المفسدون الذي تجسد فيهم الفساد، فهم وهو على حد سواء. كما أن توسط ضمير الفصل يفيد توكيد هذا الحصر(20).

ومثله قوله تعالى في المنافقين أيضاً: ﴿وإذا قيلَ لهم آمنوا كما آمَنَ النـاسُ أنُؤْمِنُ كما آمنَ السفهاءُ ألا إنَّهم هم السفهاءُ ولكنْ لايَعْلمون﴾ البقرة/13.

وضمير الفصل (هم) أفاد في الآيتين توكيد القصر على سبيل المبالغة، فإننا نقول: زيد الشاعر. فنقصر صفة الشعر عليه مبالغةً، كأنَّ ماعداه ليس بشاعر ثم نؤكد هذا المعنى فنقول: زيد هو الشاعر.

ومن المعروف في معنى الآيتين أن هناك مفسدين آخرين وهناك سفهاء آخرين، كما في قوله تعالى: ﴿قالوا ياذا القَرْنينِ إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مُفْسِدون في الأرض....﴾ الكهف/94. وقوله تعالى: ﴿ولاتؤتوا السفهاءَ أموالَكم﴾ النساء/5. ولكن الله تعالى قصر الإفساد والسفه على هؤلاء في هذا الموضع، على سبيل المبالغة، على معنى أنهم أولى من يُسمّى هذا الاسم به، أو على أنهم كاملون في هاتين الصفتين(21).

ثم إن تذييل كل من التعقيبين مخالف لما عليه التعقيب الآخر، فالأول ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون﴾ والثاني ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون﴾ وسبب المخالفة مناسب لما يحتويه الكلام من معنى، فقه وُصِفَ المنافقون بأنهم لايشعرون بعد ادعائهم الإصلاح، ونقضه بتوكيد اتصافهم بالفساد والمبالغة فيه. والفساد صفة ظاهرة، تدرك بأول الادراك وهو الشعور والإحساس، فهو مما لايحتاج إلى تفكير وتدبر، ولذلك قال تعالى: ﴿ولكن لايشعرون﴾ البقرة/12.

أما قضية الإيمان فهي مبنية على التصديق الذي لايحصل إلا عن نظر وفكر، ولايكون النظر والفكر إلا من عاقل يعرف الصواب ويميزه من الخطأ، وقد انتبه المنافقون على هذا الأمر في قولهم ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ حيث نسبوا المؤمنين إلى السفه. وهو خفة الحلم وعدم التثبت في الأمور، ونسبوا أنفسهم إلى العلم من خلال نسبة خصومهم إلى السفه. فردَّ الله تعالى ذلك عليهم بقوله ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ ونفى عنهم العلم، فكان أن نفى مانفوه عن غيرهم، ووصفهم بما نسبوه لغيرهم في قوله ﴿ولكن لايعلمون﴾ البقرة/13(22).

في سورة المجادلة دخل تركيب: ألا + أن + ضمير الفصل + تعريف الخبر في سياق الموازنة بين نقيضين: حزب الشيطان وحزب الله. قال تعالى في الحزب الأول: ﴿اسْتَحوذَ عليهم الشيطانُ فأنساهم ذكرَ اللهِ أولئكَ حزبُ الشيطانِ ألا إنَّ حزبَ الشيطانِ هم الخاسرون﴾ المجادلة/19.

فهؤلاء الغاية في الخسران. وقال تعالى في الحزب الثاني: ﴿لاتجدُ قوماً يؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ يُوادُّون مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو

أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم أولئكَ كَتَبَ في قلوبهم الإيمانَ وأيَّدَهم بروحٍ منه ويُدْخِلُهم جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه أولئكَ حزبُ اللهِ ألا إنَّ حزبَ اللهِ هم المُفْلِحون﴾ المجادلة/22.

وهؤلاء الغاية في الفلاح.

ألا + إن + ألا + مصدر منصوب للدعاء

هذا التركيب مؤلف من قسمين: (ألا + إن) و(ألا + مصدر منصوب للدعاء) فدلالته تختلف عن دلالة كل قسم، ويحتم ذلك وجود مناسبة تستوجبه، وقد جاء في سورة هود، ففي قضية قوم نوح كانت النهاية بعذاب الغرق وبعدها قال تعالى: ﴿وقيلَ يا أرضُ ابْلعي ماءَكِ وياسماءُ اقْلعي وغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمرُ واستوتْ على الجُوديِّ وقيلَ بُعْداً للقوم الظالمين﴾ هود/44.

والتعقيب قوله تعالى: ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ وفيه بناء الفعل (قيل) للمجهول فيكون الأصل: قال الله. وسبب العدول من المعلوم إلى المجهول الدلالة على الجلال والكبرياء. وإن تلك الأمور العظام لاتكون إلا بفعل فاعل قادر وأن فاعلها فاعل واحد، لايشارك في أفعاله(23). وفيه أيضاً المصدر المنصوب للدعاء (بعداً) وهو مختص بدعاء السوء، يراد به البعد البعيد من حيث الهلاك والموت(24). وقد انتصب على المصدرية، وحذف فعله، لأنه لايراد به تأكيد الفعل بل معنى المصدرية غير مقدر بزمن ولافاعل، وهو دعاء بالهلاك(24).

وفي قضية عاد من السورة نفسها قال تعالى: ﴿وتلك عادٌ جَحَدوا بآياتِ ربِّهم وعَصَوا رُسُلَهُ واتَّبعوا أمرَ كلِّ جبَّارٍ عنيد. وأُتْبِعوا في هذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامةِ ألا إنَّ عاداً كفروا ربَّهم ألا بُعداً لعادٍ قومِ هود﴾ هود/59–60.

فكان التعقيب (ألا أن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) فجاءت (الا) مكررة مرتين. نبهت الأولى على توكيد كفرهم بربهم، ونبهت الثانية على الدعاء عليهم.

ومثله قوله تعالى في قضية ثمود: ﴿وأَخَذَ الذين ظَلَموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارِهم جاثمين. كأنْ لم يَغْنوا فيها ألا إنَّ ثمودَ كَفَروا ربَّهم ألا بعداً لثمود﴾ هود/67-68.

أما في قضية مدْين فقد قال تعالى: ﴿ولَمّا جاءَ أمرُنا نجّينا شُعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا وأَخذتْ الذين ظَلَموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارِهم جاثمين. كأنْ لم يَغْنوا فيها ألا بُعْداً لمدينَ كما بَعِدتْ ثمود﴾ هود/94-95.

والتعقيب (ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) يختلف من حيث التركيب عما مضى في قضية عاد وفي قضية ثمود. فقد جاء في هذه القضية بعد قضيتين تشابهتا في كثير من تعبيراتهما. فصار واضحاً جلياً أمر الأمم الظالمة المكذبة، وصار إيجاز الكلام أمراً تتطلبه البلاغة، فكان التعبير القرآني موفياً للدلالة حين أشار إشارة موجزة دالة إلى مصير من مضى من الأمم فقال تعالى: ﴿كما بعدت ثمود﴾ وأريد به كل ماقيل في إبعاد ثمود وعاد.

وإن الفعل (بعِدت) بكسر العين متسق الدلالة مع الدعاء بالهلاك، إذ أنه بالكسر بمعنى هلكت(26). وهذه الدلالة تتسق كذلك في كل المواضع التي ورد فيها معنى البعد. وجه اتساق الدلالة أن الفعل (بعُد) بضم العين يكون في الخير والشر، ومصدره (البُعد) بضم الباء. و(بعِد) بكسر العين يكون في الشر خاصة ومصدره (البعَد) بفتح العين(27). فكان كسر العين في (بعِدت) يدل على إرادة الهلاك لاغيره، وهذا مناسب لدلالة تركيب التعقيب في كل موضع.

الاستفهام:

الاستفهام من الإنشاء الطلبي الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب(28). وهو طلب خبر ماليس عندك. أي طلب الفهم(29). وقد جاء في التعقيب كثيراً، كما جاء في مواضع أخرى من القرآن. ولخصوصية الأسلوب القرآني ذهب بعض العلماء إلى أن ماجاء على لفظ الاستفهام في القرآن فإنما يقع في خطاب الله تعالى على معنى أن المخاطب عنده علم بالإثبات أو بالنفي اللذين يأتيان في الاستفهام، فيسأل نفسه، فتخبره بما سأل. إذ قد وضعه الله عندها. وهذا يعني أن الأمور المستفهم عنها في القرآن معلومة للبشر، وأن الله سبحانه لايسألهم الجواب، وإنما يستفهمهم، ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء وهذا أسلوب بديع، انفرد به خطاب القرآن، وهو في كلام البشر مختلف(30).

وللاستفهام في التعقيب صور عدة، تؤدي كل منها دلالة خاصة نتيجة تأثير السياق فيها. منها:

الاستفهام بالهمزة:

قال تعالى في الكافرين: ﴿بل متّعْنا هؤلاءِ وآباءَهم حتى طالَ عليهم العُمُر أفلا يَرَون أنّا نأتي الأرضَ نَنْقُصُها من أطرافِها أفهم الغالبون﴾ الأنبياء/44.

معنى الاستفهام: أفهؤلاء الغالبون أم نحن. أي ليسوا بغالبين ولكنهم المغلوبون، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، الغالب(31). فخرج الاستفهام إلى معنى النفي.

وقال تعالى في عذاب المكذبين: ﴿هـذه النـارُ الـتي كنتـم بهـا تكذّبـون. أفسحرٌ هذا أم أنتم لاتُبْصِرون﴾ الطور/14-15.

والتعقيب يعني: أنكم كنتم تقولون للوحـي: هـذا سـحر. وجـاء التعبـير القرآني (أفسحر هذا) أي: أهذه النار أيضاً سحر(32). والتعقيـب يفيـد التقريـع، أو الإنكار التوبيخي الذي يقتضي أن المخاطب فعل فعلاً، يسـتلزم توبيخـه عليـه وتقريعه(33). وقد تقدم فيه الخبر على المبتدأ للاهتمام والعناية.

وقال تعالى: ﴿إنا جعلنا الشـياطينَ أوليـاءَ للذيـن لايُؤمنـون. وإذا فَعَلـوا فاحشةً قالوا وجدنا عليهـا آباءنـا واللهُ أَمرَنـا بهـا قـلْ إنَّ اللهَ لايـأمرُ بالفحشـاء أتقولون على اللهِ مالاتَعْلمون﴾ الأعراف/27-28.

والاستفهام في التعقيب يفيد الإنكار التوبيخي أيضاً، لأنهم إن قالوا: لا. لنقضوا مذهبهم، من حيث زعموا أن الله أمرهم بها، وإن قالوا: نعم، افتضحـوا في قولهم، لأن الله لايأمر بالفحشاء، ولهذا قيل: إن معنى التعقيب: أتكذبون على الله(34).

وقال تعالى: ﴿ماكان لبشـرٍ أنْ يُؤتيَـهُ اللهُ الكتـابَ والحُكـمَ والنبـوةَ ثـم يقولُ للناسِ كونوا عباداً لي من دونِ اللهِ ولكن كونوا ربّانيين بمـا كنتـم تعلّمـون الكتـابَ وبمـا كنتـم تَدْرُسـون. ولايـأْمُرَكم أنْ تتخِـذوا الملائكـةَ والنبيـين أربابـاً أيأمرُكم بالكفرِ بعد إذ أنتم مسلمون﴾ آل عمران/79-80.

والاستفهام للإنكار الإبطـالي،وهـو الـذي يقـع علـى مـن ادّعـى وقـوع الشيء، والحق أنه غير واقـع(35). ومعنـاه أن الله تعـالى إنمـا يبعـث النبي ليدعـو الناس إلى الإيمان، فلا يبعث من يدعو المسلمين إلى الكفر(36).

وقال تعالى: ﴿إنَّ ربَّكم اللهُ الذي خَلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ثم استوى على العرشِ يُدَبِّرُ الأمرَ مامن شفيعٍ إلا من بعدِ إذنِهِ ذلكم اللهُ ربُّكم فاعبدوه أفلا تذكَّرون﴾ يونس/3.

والاستفهام هنا يدل على مجرد الطلب، أي اذكروا(37). وملاءمة هذا المعنى للقضية أن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم فيه(38). وذلك لأن الناس عجبوا من أن يوحي الله سبحانه إلى رجل منهم، فيقول الكافرون (إنَّ هذا لسحرٌ مبين) يونس/2.

وقال تعالى: ﴿إنّك ميِّتٌ وإنهم ميتون. ثم إنكم يومَ القيامةِ عندَ ربكم تختصمون. فمن أظلمُ ممَّنْ كَذبَ على اللهِ وكذَّبَ بالصدقِ إذ جاءه أليسَ في جهنَّمَ مثوى للكافرين﴾ الزمر/31-32.

وفي التعقيب استفهام يراد به التقرير، معناه إنه لكذلك(39).

في سورة المؤمنون خرج الاستفهام إلى التوبيخ في ثلاث قضايا متتالية، وهو مناسب للتذكير الواقع قبله. فقد قال تعالى: ﴿قلْ لّمن الأرضُ ومَنْ فيها إنْ كنتم تعلمون. سيقولون للهِ قلْ أفلا تذكَّرون﴾.

﴿قل مَنْ ربُّ السمواتِ السبعِ وربُّ العرشِ العظيم. سيقولون للهِ قلْ أفلا تتّقون﴾.

﴿قلْ مَنْ بيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو يُجيرُ ولايُجارُ عليه إنْ كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنّى تُسْحَرون﴾ المؤمنون/84-89.

إن تذكيرهم ورد أولاً بما كانوا يقرون، وهو ملكه سبحانه الأرض ومن فيها. فكأن قد قيل لهم: إذا علمتم بانفراده سبحانه بذلك، فهلا أفردتموه بالعبادة

واستدللتم بالبدء على المعاد. (أفلا تذكّرون) إن من قدر على البدء يقدر على الإعادة والحساب.

ثم ذُكّروا في القضية الثانية بربوبيته وملكه السموات السبع والعرش، فاعترفوا إلى اعترافهم بما تقدم وإقرارهم بملكه، فلما لم يقع منهم التذكر المطلوب، قيل لهم: (أفلا تتقون) والتقوى تجنب العقوبة بالطاعة.

ثم ذُكّروا بعظيم سلطانه تعالى، علو قهره لجميع الموجودات، وكونها في قبضتِه وأنه لاحكم لأحد عليه، ثم ذكر اعترافهم بهذا، ولما تم تقريرهم على جميع ماتقدم، و لم يؤمنوا وينقادوا، كانوا كمن فقد عقله أو سُحر، فاختل نظره وعقله، فقيل لهم: كيف تسحرون، ووبّخوا على فعلهم ذاك(40).

الاستفهام بـ(هل):

قال تعالى: ﴿ربُّ السموات والأرضِ ومابينَهما فاعبدْهُ واصطبرْ لعبادتِهِ هل تعلمُ له سَميًّا﴾ مريم/65.

و(سميا) أي مثلاً وشبيهاً. وهذا استفهام بمعنى النفي، أي: لاتعلم من يُسمى بلفظة (الله) غيره(41).

وقال تعالى: ﴿أمْ يقولونَ افتراهُ قلْ فأتوا بعشرِ سورٍ مثلِه مُفْتريات وادْعوا مَنْ استطعتم من دون اللهِ إنْ كنتم صادقين. فإنْ لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أُنزِلَ بعلمِ اللهِ وأن لاإله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ هود/13-14. ومعنى الاستفهام الأمر، أي: أسلموا(42).

وقد يُستفهم بالهمزة، فتؤدي دلالة الأمر نفسها، كما في قوله تعالى: ﴿إنّ الدينَ عندَ اللهِ الاسلامُ وماختلفَ الذين أُوتوا الكتابَ إلاّ من بعدِ ماجاءَهم

العلمُ بَغْياً بينَهم ومَنْ يكفرْ بآياتِ الله فإنَّ الله سريعُ الحساب. فإن حاجُّوكَ فقلْ أسلمتُ وجهي للهِ ومن اتَّبعني وقلْ للذين أُوتوا الكتابَ والأميين أأسلتم فإنْ أسلموا فقد اهتَدوا وإنْ تولَّوا فإنَّما عليكَ البلاغُ والله بصيرٌ بالعباد﴾ آل عمران/19–20.

فدلالة الاستفهام في (أأسلتم) على الأمر،أي: أسلموا(43). ولكن أيمكن استبدال هل بالهمزة أو الهمزة بهل في الموضعين السالفين؟. الجواب:لا. لأن كلاً منهما جاء على نظم معجز في أسلوب القرآن، وذلك أن الأمر الحقيقي هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والالزام(44). فعندما يقال: أسلموا، فهو طلب الفعل طلباً مباشراً على وجه الاستعلاء والالزام. أما عندما يقال: (أأسلتم) كما في الآية الكريمة، فهنا دخل الاستفهام مع الأمر.

والاستفهام بالهمزة يُستعمل إذا هجس في النفس إثبات مايستفهم عنه(45). والسياق يدل على هذا الهاجس، فقد تقدم في الآية، أن الدين المعهود الواجب عند الله هو الاسلام، وأنه سبحانه أمر نبيه الكريم والمؤمنين بأن يسلموا وجوههم لله، وأن الله قد أزاح العلل، وأوضح السبل. وهذا كما يقول الإنسان لغيره، وقد وعظه بمواعظ: أقبلت وعظي. يدعوه إلى قبول الوعظ(46).

وعندما يقال (فهل أنتم مسلمون) فهنا القضية معروضة للمخاطبين، ويفترض بهم أن يجيبوا، وقد قامت الحجة عليهم بالعجز عن الإتيان بعشر سور مثل القرآن، وإن كنَّ مفتريات، كما زعموا. وكأنه قيل لهم: ألا يكفي ذلك لأن تسلموا.

ومن هنا يتضح الفرق بين أسلموا، و(هل أنتم مسلمون). كما يتضح بين أسلموا و(أأسلمتم). فقد استعمل القرآن كلاً في ماينا سبه أشد مناسبة.

وقال تعالى في عاد: ﴿وأمّا عادٌ فـأُهْلِكوا بريحٍ صَرْصرٍ عاتيـة. سخَّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجـازُ نخلٍ خاوية. فهل ترى لهم من باقية﴾ الحاقة/6-8.

ودلالة الاستفهام هنا، على النفي، ومعناه: لم يبق منهم أحد(47).

وقال تعالى في عقاب الكافرين: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحَكون. على الأرائكِ ينظرون. هل ثُـوِّبَ الكفـارُ ماكـانوا يفعلـون﴾ المطففين/34-36.

أي: هل جوزي الكفار إذا فعل بهم هذا الذي ذكره، على ماكانوا يفعلونه من السخرية بالمؤمنين في الدنيا، وهو استفهام يراد به التقرير(48).

الاستفهام بـ(من):

قال تعالى: ﴿وأنْ احكمْ بينَهم بما أنزلَ اللهُ ولا تتَّبعْ أهواءَهم واحذرْهم أنْ يفتنوكَ عن بعضِ ماأنزلَ اللهُ إليك فإنْ تولّوا فاعلمْ أنما يُريدُ اللهُ أنْ يصيبَهم ببعضِ ذنوبهم وإنَّ كثيراً مـن النـاس لفاسـقون. أفحكـمَ الجاهليـةِ يَبْغون. ومَنْ أحسنُ من اللهِ حكماً لقوم يوقنون﴾ المائدة/49-50.

ودلالة الاستفهام على النفي، ومعناه: لاأحد حكمه أحسن من حكم الله(49).

وقال تعالى: ﴿قلْ أرأيتم ماتَدعونَ من دونِ اللهِ أروني مـاذا خَلَقوا مـن الأرضِ أم لهم شِرْكٌ في السمواتِ ائتوني بكتابٍ من قبلِ هذا أو أَثارةٍ من علمٍ إن كنتم صادقين. ومَنْ أضلُّ ممَّـنْ يدعـو مـن دونِ اللهِ مَنْ لايستجيب له إلى يومِ القيامةِ وهم عن دعائِهم غافلون﴾ الأحقاف/4-5.

ومعنى الاستفهام انكار أن يكونوا في الضلال أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام، حيث يتركون دعاء السميع المجيب، القادر على تحصيل كل بغية ومرام، ويدعون من دونه جماداً لايستجيب لهم، ولاقدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا، وإلى أن تقوم الساعة(50).

وتكرر الاستفهام في التعقيب على تركيب (فمن أظلم ممن افترى على الله...) في ستة مواضع. إلا أنَّ دلالتها تختلف باختلاف السياق وهي:

1- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أظلمُ ممن افترى على اللهِ الكَذِبَ أو كذَّبَ بآياتِه إنّه لايُفلحُ الظالمون﴾ الأنعام/21.

وقد تقدمه قوله تعالى ﴿فقد كذّبوا بالحقِّ لمّا جاءَهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ الأنعام/5. ثم قال تعالى ﴿ ولو أنزلنا عليك كتاباً في قِرْطاسٍ فلَمَسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبين﴾ الأنعام/7، فحصل من هذا افتراؤهم بقولهم: إنه سحر، وتكذيبهم الذي أخبرت به الآية السالفة، وإشراكهم مع الله آلهةً، الذي أخبرت به الآية الكريمة في أول السورة وهي ﴿.. ثم الذين كفروا بربِّهم يعدِلون﴾ الأنعام/1، فجمعوا بين الشرك والتكذيب، فناسبه قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا..﴾ على طريقة التعجب مما ارتكبوا، ومن سوء حالهم، أي: من أظلم، يامحمد، من هؤلاء الجامعين بين الافتراء والشرك والتكذيب، مع وضوح الشواهد، وكثرة الدلائل الواردة في أثناء هذه الآيات، مما لايتوقف فيه أو هو استفهام معناه الإنكار، أي: لاأحد أظلم. لأن جوابه كذلك، فاكتفى من الجواب بما يدل عليه(51).

2- قوله تعالى: ﴿ومَنْ أظلمُ ممَّنْ افترى على الله كذباً أو قال أُوحي إليَّ ولم يوحَ إليه شيءٌ﴾ الأنعام/93.

وقد مرَّ قبله ذكر الرسل وتعقيب ذكرهم بقوله تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ الأنعام/90. ثم قال تعالى: ﴿وماقَدَروا الله حقَّ قدره إذ قالوا ماأنزل الله على بشرٍ من شيء قل من أنزل الكتابَ الذي جاءَ به موسى نوراً وهدى للناس...﴾ الأنعام/92. فأعظم الله ماارتكبوا من تعاميهم عن التوراة، وماتضمنته من الهدى والنور. ثم قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى..﴾ تنزيهاً للرسل عن الافتراء على الله سبحانه، وإدعاء الوحي، فصار الكلام بجملته في قوة أن لو قيل: ألا ترون ماتضمن كتاب موسى من الهدى والنور والبراهين الواضحة، وهل ممكن لأحد أن يفتري أعظم من هذا، فهذا أوضح شيء(52). وهو استفهام في معنى الإنكار، أي: لاأحد أظلم ممن افترى على الله فادّعى أنه نبي وهو ليس بنبي(53).

3- قوله تعالى: ﴿فمَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً أو كذَّب بآياته أولئك ينالهم نصيبُهم من الكتاب...﴾ الأعراف/37.

وقد تقدمه وعيد من كذّب بآيات الرسل، واستكبر عنها، وأنهم أهل الخلود في النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿يابني آدم إمّا يأتينّكم رُسُلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ الأعراف/35-36.

ومعنى التعقيب: لاأحد أظلم منه، وهو استفهام يراد به الإخبار، وإنما جاء بلفظ الاستفهام ليكون أبلغ(54).

4- قوله تعالى: ﴿فمن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته إنه لايُفلحُ المجرمون﴾ يونس/17.

وورد قبله قوله تعالى: ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قال الذين لايرجون لقاءنا ائتْ بقرآنٍ غير هذا أو بدّله قل مايكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا مايُوحى إليَّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ يونس/15.

ولاأظلم ممن قال من فصحاء العرب العالمين بمقاطع الكلام، وجليل النظم وعالي البلاغة (ائت بقرآن غيرِ هذا أو بَدِّلْهُ) مع علمهم بعلو فصاحته، واعترافهم بالعجز عنه، فجمعوا بين إنكار ماعلموا صدقه، وهو الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقولهم في إنكارهم (أو بدله). فلا أظلم من هؤلاء، وفي إنكارهم أوضح إجرام، لأنه كفر على علم، فلهذا عقبت الآية هنا بقوله ﴿إنه لايفلح المجرمون﴾ ولم يقع قبل الآية التي في سورة الإنعام، والتي في سورة الأعراف، مثل هذا الإقدام على مثل هذه الجريمة في القول، وإنما تقدم عداوتهم وظلمهم أنفسهم في ما ارتكبوه، فناسبه قوله ﴿إنه لايفلح الظالمون﴾ الأنعام/21(55).

ومعنى الاستفهام الإنكاري، أي:لاأحد أظلم ممن اخترع ﴿على الله كذباً أو كذّب بآياته إنه لايفلح المجرمون﴾ أي المشركون(56).

5- قوله تعالى: ﴿ومَنْ أظلم ممن افترى على اللهِ كذبا أو كذّب بالحقِّ لمَّا جاءه... ﴾ العنكبوت/68.

وتقدمه قوله تعالى: ﴿أوَ لم يروا أنّا جعلنا حَرَماً آمناً ويُتخطّفُ الناسُ من حولِهم أفبالباطل يُؤمنون وبنعمةِ اللهِ يكفرون﴾ العنكبوت/67.

وكانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضاً، ويتغاورون ويتناهبون، وأهل مكة قارّون آمنون بها، لايُغزون ولايُغارُ عليهم، مع قلتهم وكثرة العرب، فذكّرهم الله بهذه النعمة الخاصة، ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه، ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة، وغيرها من النعم التي لايقدر عليها إلا الله وحده، مكفورة عندهم، وافتراؤهم على الله كذباً، هو زعمهم أن لله شريكاً، وتكذيبهم بما جاءهم هو كفرهم بالرسول والكتاب(57). والاستفهام للإنكار أيضاً.

6- قوله تعالى: ﴿ومن أظلمُ ممن افترى على الله الكذبَ وهو يُدعى إلى الإسلام..﴾ الصف/7.

وتقدمه قوله: ﴿وإذ قال عيسى ابنُ مريم يابني إسرائيلَ إني رسولُ الله إليكم مصدقاً لما بين يديَّ من التوراةِ ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُهُ أحمدُ فلمّا جاءَهم بالبيِّناتِ قالوا هذا سحرٌ مبين﴾ الصف/6.

ومعنى استفهام التعقيب: الإنكار. أي: وأي الناس أشد ظلما ممن يدعوه ربه، على لسان نبيه، إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله بقوله لكلام الله، الذي هو دعاء عباده إلى الحق: ﴿هذا سحر﴾. لأن السحر كذب وتمويه(58).

إن الاستفهامات الستة دلالتها واحدة، وقد مرَّ أنها تحتمل التعجب أو الإنكار، فأما التعجب فهو من الإنشاء، والإنشاء، كما هو معروف، كل كلام لايحتمل الصدق والكذب لذاته، لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به، واقع خارجي يطابقه أو لايطابقه(59). وأما الإنكار فهو النفي، وهو خبر، وإذا كانت الاستفهامات تلك أخباراً، فقد يتوهم بعض الناس أنه إذا أخذت هذه الآيات

على ظواهرها أدّى ذلك إلى التناقض، لأنه، يقال: لاأحد أظلم ممن منع مساجد الله... ولاأحد أظلم ممن افترى على الله كذبا... ولاأحد أظلم ممن ذُكّر بآيات الله فأعرض عنها.

واختلف المفسرون في هذه المسألة، فقيل: يُخصص كل واحد من هذه المواضع بمعنى صلته، فكأنه قال: لاأحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله.... ولاأحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبا....وكذلك باقيها. وقيل: إن التخصيص هو بالنسبة إلى السبق، فمن حكم عليه أنه أظلم في الصلة، فهو أظلم ممن جاء بعده سالكاً طريقه(60).

والذي يبدو لنا أن القضايا الست التي أعقبتها تلك الآيات تستوجب التعجب والإنكار معاً. والتعقيب في كل منها يحتمل التعجب، لأن القضية خارجة عن مألوف القرآن وعن مايدعو إليه، ويحتمل الإنكار، لأن القضية مما يجب على المسلم، وهو مخاطب من خلال القرآن، اجتنابه، ونفيه.

الاستفهام بـ(ما):

قال تعالى: ﴿عَبَس وتولَى. أن جاءه الأعمى. ومايُدريك لعلّهُ يزّكى. أو يذّكّرُ فتنفعَهُ الذكرى﴾ عبس/1–4.

ومعنى الاستفهام: أي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى(61). وربما دلَّ الاستفهام هنا، على التعجيز. إذ لايستطيع أي شيء أن يعلمه نوايا تصرف الأعمى، فهو من الغيب الذي لايعلمه إلا الله.

وقال تعالى: ﴿والتينِ والزيتونِ ... فما يكذّبُك بعدُ بالدين﴾ التين/1–7.

والخطاب للإنسان، أي: فما يجعلك كاذباً بسبب الدين. وإنكاره بعد هذا الدليل، يعني: أنك تكذب، إذا كذّبت بالجزاء، لأن كل مكذب بالحق فهو كاذب، فأي شيء يضطرك إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيب الجزاء(62). وقد خرج الاستفهام إلى التنبيه.

وقال تعالى:﴿كلا والقمر...فمالهم عن التذكرةِ مُعْرضين﴾المدثر/32–49.

ومعنى الاستفهام: الإنكار. أي: أي شيء لهم، ولماذا أعرضوا؟ والمعنى: لاشيء لهم، إذا أعرضوا عن القرآن ونفروا منه(63).

وقال تعالى: ﴿إنَّ الذين يكتمون ماأنزلَ اللهُ من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك مايأكلون في بطونِهم إلا النارَ ولايكلّمُهم اللهُ يومَ القيامة ولايزكّيهم ولهم عذابٌ أليم. أولئك الذين اشتروا الضلالَة بالهدى والعذابِ بالمغفرةِ فما أصبَرهم على النار﴾ البقرة/174–175.

قيل في هذا الاستفهام: إنه للتعجب. وقيل: إنه للاستفهام على معنى: أي شيء أصبرهم. ووجه التلازم بين الاستفهام والتعجب أنك إذا تعجبت من شيء، فبالحريّ أن تسأل عنه(64).

الاستفهام بـ(كيف):

قال تعالى: ﴿ألم ترَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتابِ يُدعَون إلى كتابِ اللهِ ليحكمَ بينهم ثم يتولى فريقٌ منهم وهم مُعْرِضون. ذلك بأنهم قالوا لن تمسَّنا النارُ إلاّ أياماً معدوداتٍ وغرَّهم في دينهم ماكانوا يفترون. فكيف إذا جمعناهم ليومٍ لاريبَ فيه ووُفّيتْ كلُّ نفسٍ ماكسَبت وهم لايُظلمون﴾آل عمران/23–25.

ومعنى الاستفهام استعظامٌ لما أُعد لهم، وتهويل له. وأنهم يقعون فيم لاحيلة لهم في دفعه(65). فخرج الاستفهام بـ(كيف) إلى التعظيم والتهويل.

وقد خرج الاستفهام بـ(كيف) إلى التحذير، وهو على تركيب (فكيف كان نكير) في ثلاثة مواضع، تندرج ضمن سياق واحد. وهو خطاب المكذبين، أيام النزول وتذكيرهم بما جرى للمكذبين الأولين الذين كذّبوا من مضى من الأنبياء والرسل، وهو في قوله تعالى: ﴿وكذَّبَ الذين مِنْ قبلِهم ومابلغوا مِعْشارَ ماآتيناهم فكذَّبوا رُسُلي فكيفَ كانَ نكيرِ﴾ سبأ/45.

ومعنى (كيف كان نكير) أي: للمكذبين الأولين، فليحذروا مثله(66).

وفي قوله تعالى: ﴿وإن يكذِّبوكَ فقد كـذَّبَ الذين مِنْ قبلِهم جاءتهم رُسُلهم بالبيِّناتِ وبالزُّبُرِ وبالكتاب المنير. ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾ فاطر/25-26.

وقوله تعالى: ﴿ولقد كذَّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾ الملك/18.

وجاء تركيب (فكيف كان عقابِ) في موضعين بمعنيين مختلفين:

الأول في قوله تعالى: ﴿ولقد أُستهزِئ برسلٍ من قبلِك فأمليتُ للذين كفروا ثم أخذتُهم فكيف كان عقابِ﴾ الرعد/32. والاستفهام هنا، خرج إلى تفخيم ذلك العقاب وتعظيمه(67).

والثاني في قوله تعالى: ﴿كذَّبتْ قبلهم قومُ نوحٍ والأحزابُ من بعدِهم وهمَّتْ كلُّ أمةٍ برسولِهم ليأخذوه وجادَلوا بالباطلِ ليدحضوا به الحقَّ فأخذتُهم فكيفَ كانَ عقابِ﴾ غافر/5. والاستفهام فيه تقرير وتعجيب(68).

واجتمع تركيب (مالكم كيف) وهو يدل على التوبيخ(69)، في ثلاثة مواضع:

- الأول: في قضية إشراك الأنداد في العبادة من دون الله. قال تعالى: ﴿قلْ هل من شركائكم منْ يَهدي إلى الحقِّ قلْ الله يَهدي للحقّ أفمَنْ يَهدي إلى الحقِّ أحقُّ أنْ يُتّبَع أمْ مَنْ لايَهدِّي إلاّ أنْ يُهدى فما لكم كيفَ تحكمون﴾ يونس/35.
- والثاني: في قضية قسمة الكافرين البنات لله والبنين لهم. قال تعالى: ﴿ ألا إنَّهم من إفْكِهم ليقولون. وَلَدَ الله وإنَّهم لكاذبون. أَصطفى البناتِ على البنين. مالكم كيف تحكمون﴾ الصافات/151-154.
- والثالث: في قضية عدالة الله المطلقة. قال تعالى: ﴿إنَّ للمتقين عندَ ربِّهم جنّاتِ النعيم. أفنجعلُ المسلمين كالمجرمين. مالكم كيف تحكمون﴾ الصافات/34-36.

الاستفهام بـ(أنّى):

قال تعالى في عذاب الكافرين: ﴿ربَّنا اكشفْ عنا العذاب إنّا مؤمنون. أنّى لهم الذكرى وقد جاءَهم رسولٌ مُبين. ثم تولّوا عنه وقالوا مُعَلّمٌ مجنون﴾ الدخان/12-14.

ودلالة الاستفهام: الاستبعاد. أي: يستبعد ذلك منهم بعد أن جاءهم الرسول ثم تولوا(70). وعند تفحص دلالة الاستبعاد يتبين أنها قد تكون من معنى: كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب، وقد جاءهم ماهو أعظم، وأدخل في وجوب الادكار، وهو ماظهر على

يد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من الآيات البينات، فلم يذّكروا وتولوا عنه(71)، وقد تكون من معنى: من أين لهم التذكر والاتعاظ(72)؟ فتحتمل (أنّى) المعنيين، ولو قيل: كيف لهم الذكرى. أو: من أين لهم الذكرى، لأدّى ذلك معنى واحدا(73). وهذا هو وجه الخلاف في استعمالها من غيرها.

وعليه قوله تعالى: ﴿فهل ينظرون إلا الساعةَ أنْ تأتيَهم بغتةً فقد جاء أشراطُها فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ محمد/18. أي: فكيف لهم ذكراهم. أي: تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة، يعني لاتنفعهم الذكرى حينئذٍ(74). وهي تعني أيضاً: من أين لهم الذكر والاتعاظ(75).

وقد تدل (أنّى) على معنى (كيف)، ولكنها تختلف عنها في قوة الاستفهام، وبناؤها اللغوي يوحي بذلك، فالتشديد الذي فيها، والمدة الطويلة في آخرها يرجحان ذلك(76).

ولعل استعمالها في التعقيب في مواضع الاحتجاج لوحدانية الله تعالى، يؤيد قوة الاستفهام بها، فقد قال تعالى: ﴿قلْ مَنْ يرزقُكم من السماءِ والأرضِ أمَّنْ يملكُ السمعَ والأبصارَ ومَنْ يُخرِجُ الحيَّ من الميتِ ويُخرجُ الميتَ من الحيِّ ومَنْ يُدبِّرُ الأمرَ فسيقولون الله فقل أفلا تتّقون. فذلكم الله ربُّكم الحقُّ فماذا بعدَ الحقِّ إلاّ الضلالُ فأنّى تُصْرَفون﴾ يونس/31–32.

أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلىعبادة ماسواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء(77).

وقال تعالى: ﴿قل هل مِنْ شركائكم مَنْ يبدأُ الخلقَ ثم يُعيدُهُ قل الله يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعيدُهُ فأنّى تُؤْفكون﴾ يونس/34.

أي: فكيف تصرفون عن الحق، وتنقلبون عن الإيمان(78).

وقال تعالى: ﴿خلقكم من نفسٍ واحدةٍ ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواجٍ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقٍ في ظلمات ثلاث ذلك الله ربكم له الملك لاإله إلا هو فأنّى تصرفون﴾ الزمر/6.

الاستفهام بـ(أين):

قال تعالى في القرآن: ﴿إنّه لقولُ رسولٍ كريم. ذي قوّةٍ عندَ ذي العرشِ مكين. مُطاع ثمّ أمين. وماصاحبُكم بمجنون. ولقد رآه بالأفقِ المُبين. وماهو على الغيب بضنين. وماهو بقولِ شيطانٍ رجيم. فأين تذهبون﴾ التكوير/19–26.

و... الاستفهام بـ(أين) إلى الاستضلال. وهذا كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً... في بينات الطريق: أين تذهب(79). ومعنى الاستفهام: إلى أين ...

الاستفهام ...

قال تعالى في المكذبين: ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين. فبأي حديثٍ بعدهُ يؤمنون﴾ المرسلات/49–50.

... كتاب بعد القرآن يصدقون. ولم يصدقوا به مع إعجازه، وحسن ... فإن من لم يؤمن به مع مافيه من الحجة الظاهرة، والآية الباهرة، لايؤمن بـ...(81) وقد دل الاستفهام على التوبيخ. ومثله الاستفهام في قوله تعالى: ﴿... فأيَّ آياتِ اللهِ تُنكرون﴾ غافر/81. وهو توبيخ لهم على الجحد(82).

*

الاستقبال:

للاستقبال حرفان، هما السين وسوف، وقد فرق بينهما بعض العلماء، فذهب إلى أن (سوف) يدل على التأخير والتنفيس، وزمانه أبعد من زمان السين، لما فيها من إرادة التسويف(83).

قال تعالى: ﴿والشعراءُ يتّبعهم الغاوون. ألم ترَ أنهم في كلّ وادٍ يَهيمون. وأنهم يقولون مالايفعلون. إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدِ ماظُلِموا وسيعلمُ الذين ظَلَموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون﴾ الشعراء/224–227.

وأدّى التعقيب بالسين معنى الوعيد البليغ. وقال تعالى: ﴿رُبَّما يَودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين. ذرْهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلههم الأملُ فسوفَ يعلمون﴾ الحجر/2–3.

والتعقيب إيذان لهم بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لايجيء منهم إلا ماهم فيه. وربما دلّ السين على الاستقبال القريب في آية الشعراء، لأن الوعيد يأتي بعد ذكر الإثم. أما في آية الحجر، فربما دل سوف على الاستقبال البعيد، لأن الوعيد يكون بعد أن يأكلوا ويتمتعوا ويلهيهم الأمل، فتكون هذه الأمور في زمان، ثم يأتي الوعيد، ولايطرد هذا الفرق في كل موضع.

وقد يكون الفرق في استعمال السين أو سوف من حيث السياق، أو مقتضى الحال، لامن حيث الدلالة على زمن قريب أو بعيد، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿فقد كذّبوا بالحق لمّا جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزئون﴾ الأنعام/5. وقوله تعالى: ﴿فقد كذّبوا فسيأتيهم أنباءُ ماكانوا به يستهزئون﴾ الشعراء/6.

ويتضح الفرق بين الحرفين، في الآيتين، في كون آية الأنعام ترتبت على إطناب في السياق، فالآيات بسطت حمده سبحانه، وأطنبت في بيان انفراده بالخلق والاختراع. فقال تعالى: ﴿الحمدُ لله الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ وجَعَل الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يعدِلون﴾ الأنعام/1.

ثم ذكرت خلقهم من طين، ثم قال تعالى بعده: ﴿وماتأتيهم من آيةٍ من آياتِ ربِّهم إلاّ كانوا عنها مُعرِضين﴾ الأنعام/4. فلما تقدم هذا الإطناب ناسبه سوف.

أما آية الشعراء فقد قال تعالى قبلها: ﴿تلك آياتُ الكتاب المبين﴾ الشعراء/2. ثم جاءت آيتان معترضتان في تسلية الرسول الكريم. ثم جاء قوله تعالى: ﴿ومايأتيهم من ذكرٍ من الرحمنِ مُحدَثٍ إلاّ كانوا عنه مُعْرِضين﴾ الشعراء/5. ثم قال تعالى: ﴿فقد كذّبوا فسيأتيهم....﴾.

حاصل الأمر أن الآيات الماضية كانت موجزة فناسبها السين. فكان حرف الاستقبال منظوراً إليه من جهة السياق. فتناسب السين مع سياق الإيجاز، وسوف مع سياق الإطناب(84).

*

الإشارة:

هي الدلالة على الأشياء الموجودة حسية، وقد تستعمل في

مجازاً لتنزيل الأشياء غير الموجودة حسية منزلة [illegible] الموجودة حسية [illegible]

ورد منها في التعقيب:

1- هذا:

ويستعمل للإشارة [illegible] المفرد المذكر [illegible] قال [illegible]

السموات بغير عمدٍ ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم و[illegible]

كل دابّةٍ وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها [illegible] كل زوج كريم [illegible]

فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين [illegible] لقمان [illegible]

وقد أشار سبحانه إلى ما تقدم ذكره في التعقيب [illegible] هذا [illegible]

من خلق السموات، على عظمتها، و[illegible] [illegible] الأ[illegible] [illegible] هو

الذي أوجده وأحدثه، حيث إن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

أن يشيروا إلى شيء من خلق [illegible](٣).

2- ذلك:

ويستعمل للإشارة إلى البعيد، وقد يستعمل للإشارة إلى القريب [illegible] قال

تعالى في جزاء المؤمنين: ﴿جزاؤهم عندَ ربّهم جناتُ عدنٍ تجري من تحتها [illegible]

خالدين فيها أبداً رضيَ الله عنهم ورضُوا عنه ذلك لمنْ خشي ربّه﴾ [illegible]

(فذلك) إشارة إلى رضا الله سبحانه، وثوابه يوم الحساب.

وقال تعالى في قصة عيسى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريمُ إنَّ الله [illegible]

بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ وجيهاً في الدنيا والآخرةِ ومن [illegible]

وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم والله لا يُحبُّ [illegible]

. هـ . . . ه حسبت من الآيات والذكر الحكيم﴾ آل

ا هنا، على تعريب، وهو هذه الآيات التي ذكرت

بعذاب . . . الذي يدل على البعيد في قوله تعالى: ﴿قل إني

. . . يوم عظيم من يُصرَفْ عنه يومئذٍ فقد رَحِمَهُ

. . . 15 . 1

. . . ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهلكنا

إلا . . . من علم . . . هم إلا يظنون. وإذا تُتلى عليهم آياتنا ما كان

. . . إن كنتم صادقين. قل الله يُحييكم ثم يُميتكم ثم

. . . لاريب فيه ولكنّ أكثر الناس لايعلمون. ولله مُلْكُ

. . . الساعةُ يومئذٍ يخسرُ المُبطلون. وترى كلَّ أمةٍ جاثيةً

. . . م تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابُنا ينطِقُ عليكم

. . . ما كنتم تعملون. فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ

فيدخلهم ربّهم في رحمتِهِ ذلك هو الفوزُ المبين﴾ الجاثية/24-30.

وهنا مسألتان. الأولى زيادة (هو) والثانية سقوط واو العطف. وذلك

لأن . . . قوله تعالى: ﴿قل إني أخاف.... ﴾ وقوله ﴿من يُصرف

عنه. . . إذ: من يُصرف عنه العذاب في الآخرة، فقد رحمه الله ثم عُطف

عليه . . . ذلك . . . وكان الكلام في قوة: فقد رُحم وفاز. والفاء

في . . . رحمه. . . جواب الشرط. والفوز مسبب عن الرحمة، فذكرا معاً

متعاطفين.

وأما من حيث الضمير (هو) فلم يتقدم في سورة الأنعام مايتوهمه العاقل فوزاً، فيحترز منه مما يعطيه الضمير (هو) من المفهوم. فلم يقع الضمير هنا.

أما آية الجاثية فقد ورد قبلها قوله تعالى مخبراً عن قول منكري البعث (ماهي إلا حياتنا...)، فأفهموا أن هذه الحال هي الحاصلة لهم، ولاحياة وراءها. فمن تنعم فيها فذاك فوزه، فأخبروا أن الأمر ليس كما ظنوه. وذكر تعالى أمر الساعة، وتفصيل الأحوال فيها. وقال: ﴿فأما الذين آمنوا...﴾ ثم قال: ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي: لاالحياة التي هي لهو ولعب، فكأن قيل: ذلك الفوز، لاماظننتموه فوزا، فاحرز مفهوم الضمير هذا المقصود، ولم يتقدم في آية الأنعام مايستدعيه، كما لم يتقدم في آية الجاثية مايستدعي العطف، فجاء كل تعبير على مايناسبه(91).

3 - تلك:

للإشارة إلى المؤنث البعيد(92). قال تعالى في قصة ابراهيم: ﴿وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهُنَّ...﴾ وختمها بقوله: ﴿أم كنتم شهداءَ إذ حَضَر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيهِ ماتعبدون من بعدي قالوا نعبدُ إلهَك وإلهَ آبائِك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾. ثم عُقب بقوله: ﴿تلك أمةٌ قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولاتُسْألون عما كانوا يعملون﴾ البقرة/124-134.

وتكرر التعقيب نفسه فيما جاء من آيات في قصة بني اسرائيل. قال تعالى: ﴿أم تقولون إنَّ ابراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقوب والأسباطَ كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلمُ أم الله ومَنْ أظلم ممن كتم شهادةً عنده من الله وماالله

بغافلٍ عما تعملون. تلك أمَّةٌ قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولاتُسْألون عمّا كانوا يعملون﴾ البقرة/140–141.

فكان تكرار التعقيب لتنوع مانص عليه من مرتكبات بني إسرائيل، التي تدور حول جامع واحد، من تخيل التعلق بهم مع مخالفتهم فيما كانوا عليه (93).

وقد يشار بـ(تلك) إلى القريب، كما في قوله تعالى: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذن قسمةٌ ضيزى﴾ النجم/21–22.

4– أولئك:

أولئك اسم إشارة مبهم يصلح لكل حاضر تعرّفه الإشارة، وهو جمع (ذلك) في المعنى قال تعالى في وصف المتقين: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويُقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفِقون. والذين يؤمنون بما أُنزِلَ إليك وماأُنزِلَ من قبلك وبالآخرة هم يُوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ البقرة/3–5.

فجاءت الإشارة إلى الموصوفين بجميع الصفات المتقدمة. وفي تكرار (أولئك) تنبيه على أنهم، كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى، فهي ثابتة لهم بالفلاح. فجعلت كل واحدة من الأثرتين تميزهم عن غيرهم، بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزةً له على حيالها. ولو لم يتكرر (اولئك) فلربما فُهم اختصاصهم بالمجموع، فيكون هو المميز لا كل واحدة(94).

*

الإضراب بـ(بل):

بل حرف إضراب عن أمر وإثبات لأمر ثانٍ. يتلوه جملة أو مفرد، فإن كان الإضراب تركاً للأول ورجوعاً عنه بإبطاله، قيل: حرف ابتداء. وإذا كان

الإضراب انتقالاً من حديث إلى حديث آخر، من غير حو ... الأ... قيل حرف عطف(95). قال تعالى: ﴿حم. والكتابِ المبين. إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنّا مُنذرين. فيها يُفرَقُ كلُّ أمر حكيم. أمراً من عندنا إنّا كنا مُرسلين. رحمة من ربك إنه هو السميع العليم. ربِّ السمواتِ والأرض ومابينهما إن كنتم مُوقنين. لاإلهَ إلا هو يُحيي ويُميت ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين. بل هم في شكٍّ يلعبون﴾ الدخان/1-9.

والإضراب هنا بمعنى إبطال الأمر الأول، وهو أن يكونوا مقرّين بأن الله سبحانه وتعالى (رب السموات والأرض ومابينهما) إقرارا عن علم ويقين، فجاء التعقيب ليبين أن إقرارهم غير صادر عن علم ولاعن يقين، ولا عن جد وحقيقة بل قول مخلوط بهزؤ ولعب(96). وبل هنا حرف ابتداء

وقد يتكرر الإضراب، فيفيد التوكيد،ومنه في القرآن الكريم نوعان:

أحدهما: أن يكون مافيه من الرد راجعاً إلى العباد، ومنه قوله تعالى في قضية تكذيب الرسول: ﴿أفتأتون السحر وأنتم تُبصرون. قال ربّي يعلمُ القول في السماءِ والأرضِ وهو السميعُ العليم. بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراهُ بل هو شاعر.....﴾ الأنبياء/3-5.

فقد أضربوا عن قولهم: هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر(97).

الثاني: أن يكون إبطالاً، ولكنه على أنه قد انقضى وقته، وأن الذي بعده أولى بالذكر(98). ومنه قوله تعالى: ﴿قل لايعلم مَنْ في السموات والأرض الغيب إلا الله ومايشعرون أيّان يُبْعَثون. بل ادّارك علمُهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عَمون﴾ النمل/65-66.

لأحو سكري نيامه،

ويعسون أن تقيامة

كانت والإزالة مستطاعة(٩٩).

الأول

في عزة وشقاق

حيث وهو

عن الأذعان

والا (١٠٠).

الثاني

في عليه الذكر من

بينا شك

الله قوصه

عنه هم يقولون في أنفسهم:

إما وإما، وقولهم هذه الاعتقادهم فيه، يقولون على

الثالث: وهو في

من ص٨.

العذاب زال عنهم

الأمر:

وهو طلب فعل من الأفعال، وله أربع صيغ(102)، وورد منها في التعقيب قوله تعالى في قضية أهل الكتاب: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتابِ من ديارِهم لأول الحشرِ ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتُهم حصونُهم من اللهِ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعبَ يُخرِبون بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار﴾ الحشر/2.

والأمر في التعقيب، يراد به أمرهم حقيقةً بالاعتبار بما دبّر الله، ويسر من إخراجهم، وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال(103).

وقد ورد الأمر المجازي في التعقيب، كما ورد في سائر القرآن الكريم، ودلَّ دلالات مجازية، منها:

1- الوعيد، في قوله تعالى:

﴿إنهم يَكيدون كيدا. وأكيد كيدا. فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا﴾ الطارق/15-17.

2- الإهانة، في قوله تعالى:

﴿إنَّ جهنَم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لابثين فيها أحقابا. لايذوقون فيها برداً ولاشرابا. إلا حميماً وغَسَّاقا. جزاءً وفاقاً. إنَّهم كانوا لايرجون حسابا. وكذّبوا بآياتنا كِذّابا. وكلَّ شيء أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدَكم إلا عذابا﴾ النبأ/21-30.

3- التقرير، في قوله تعالى:

﴿والصافات صفا... فاستَفْتِهِم أهم أشدُّ خلقاً أم مَنْ خلقنا إنا خلقناهم من طينٍ لازب﴾ الصافات/1-11.

4- الإباحة، في قوله تعالى:

﴿وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومِه إنني بَراءٌ مما تعبدون.. فاستمسكْ بالذي أُوحي إليك إنك على صراطٍ مستقيم﴾الزخرف/26-43.

والمعنى:سواء عجلنا لك الظفر والغلبة، أو أخرنا إلى اليوم الآخر، فكن مستمسكاً بما أوحينا إليك، وبالعمل به، فإنه الصراط المستقيم الذي لايحيد عنه إلا ضال شقي(104).

5- الاعتبار، وجاء في التعقيب على تركيب واحد، مختلفة ألفاظه على النحو الآتي:

- ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ الأعراف/103. النمل/14.
- ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ يونس/ 39. القصص/40.
- ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ يونس/73. الصافات/74.

ولاشك في أن في كل موضع من مواضع هذه الآيات مناسبة، استدعت اختلاف المخصوصين بها. فقد جاء التعقيب الأول في قصة موسى. قال تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ الأعراف/103.

وقال أيضاً : ﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً ... فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتْها أنفسُهم ظلماً وعُلُوّاً فانظر كيفَ كان عاقبة المفسدين﴾ النمل/7-14.

التعقيب الثاني جاء في موضع الظن والتكذيب بالحق. ففي سورة يونس قال تعالى: ﴿وما يتّبعُ أكثرُهم إلاّ ظناً إنَّ الظنَّ لايُغني من الحقِّ شيئاً .. بل كذّبوا

بما لم يحيطوا بعلمهِ ولمّا يأتيهم تأويله ... من ...
كان عاقبةُ الظالمين﴾ يونس/39.

وفي السياق نفسه جاء التعقيب ... في قصة فرعون: ﴿واستكبرَ هو وجنودُه في ... بغير ...
لايُرجعون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في ...
القصص/39–40.

والتعقيب الثالث جاء في موضع ... فقوله تعالى ...
نوح إذ قال لقومهِ ياقومي إنْ كان كبُرَ عليكم ...
اللهِ توكلت..﴾ هو في إنذار قومه، وتذكيرهم بآيات الله، ...
وتعقيب القصة في قوله تعالى: ﴿فكذّبوهُ فنجيناهُ ومن معه ...
خلائف و... قنا الذين كذّبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة ...
.73

وفي سورة الصافات يتضح الأمر، إذ ... التعقيب ...
الإنذار فقال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا فيهم مُنذرين. فانظر ... كان عاقبة
المنذرين﴾ الصافات/72–73.

– ﴿اتقوا الله واعلموا أن الله..

وتكرر الأمر في مواضع التشريع من سورة البقرة ... تركيب
واحد مع اختلاف بعض ألفاظه، ففي قضية الشهر الحرام قال ... الشهرُ
الحرامُ بالشهر الحرامِ والحُرُماتُ قِصاصٌ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا ...
مااعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين﴾ البقرة/194.

مع ... إغراء بثواب المتقين الذين لايعتدون ...

...

... وأتموا الحج والعمرة لله.. واتقوا الله

... 196 ...

و ... متجها إلى من خالف ...

...

... وإن عزموا الطلاق فإنّ الله سميعٌ عليم

... سورة البقرة 227-231.

... لله ... الأمور ... الطلاق،

... بكل شيء ... يعني

... الله ...

... والدات يرضعن ...

... واتقوا الله واعلموا ... الله بما تعملون

...

... في التعقيب على نمط واحد، وهو (وعلى الله فليتوكل

و ... عديدة(...). وجاء في سورة ابراهيم

... في ... وهما قوله تعالى: ﴿ قالت لهم رسلهم إنْ

... الله يمنُّ على منْ يشاءُ من عبادهِ وما كان لنا أن

... بإذن ... وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ومالنا الاّ نتوكلّ على

اللهِ وقد هدانا سُبُلَنا ولنصْبِرنَّ على ما آذيتمونا وعلى اللهِ فليتوكَّـلِ المتوكّلون﴾ ابراهيم/11-12.

يشترك التعقيبان بتقديم الجار والمجرور على العامل، وهـذا التقديم يفيد القصر. معناه: ليخصّ المؤمنون ربهم بالتوكل، والتفويض إليه، لعلمهم أنه لاناصر سواه(107). ولكنهما يختلفان في (المؤمنون) و(المتوكلون) وسبب الاختلاف أن التعقيب الأول انصرف إلى أمور الإيمان، وهي التصديق بحكمة الله في المنة على من يشاء، وبقدرته على تصريف الأمور، فلهذا قال (وعلى الله فليتوكل المؤمنون). أما التعقيب الثاني فقد جاء بعد أمور تقع فوق الإيمان، وهي هداية السبل، والصبر على الأذى، ومعلوم أن التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع، أو حفظها بعد حصولها، وفي رفع المضرات ودفعها، وهو من أعلى المقامات(108). فناسبه مجيء (وعلى الله فليتوكل المتوكلون).

- الأمر بالصبر.

الصبر منع النفس عن محابّها، وكفها عن هواها، ومنه الصبر عن المصيبة لكف الصابر نفسه عن الجزع. ويقال: قتل فلان صبراً، وهو أن ينصب للقتل، ويُحبس عليه حتى يُقتل(109).

وللصبر، في التعقيب، دلالات مختلفة، من حيث متعلقات الفعل (اصبر). فقد جاء الفعل مع المصدر الموصوف (اصبر صبراً جميلاً) في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سائلٌ بعذابٍ واقع. للكافرين ليسَ له دافِع. مِن اللهِ ذي المعَارج. تَعرجُ الملائكةُ والروحُ إليهِ في يومٍ كانَ مِقْدارُهُ خمسينَ ألفِ سنةٍ فاصبرْ صبراً جميلاً﴾ المعارج/1-5.

الأمر بالصبر الجميل موافق للمقام، لأن سؤال السائل عن العذاب، كان على وجه الاستهزاء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- والتكذيب بالوحي، وكان ذلك مما يضجر الرسول، فأمر بالصبر الجميل عليه(110). كما أن المقام يستوجب تجديد الصبر مرة بعد مرة، فجاء التعقيب على الفعلية، لاعلى الإسمية.

ومنه قوله تعالى: ﴿إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ ... فاصبرْ إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ. واستغفرْ لذنبِك وسبِّحْ بحمدِ ربِّك بالعَشِيِّ والإبكار﴾ غافر/51-55.

وفيه التعقيب بالفعل (اصبر) مع التوكيد بأن. وقد صارت دلالة التركيب الأمر بالصبر وتعليل الأمر، وذلك لأن (ان) إذا سبقت بأمر تحولت دلالتها إلى التعليل(111).

في مواضع أخرى تعدّى الفعل باللام. كما في قوله تعالى: ﴿أفنجعلُ المسلمين كالمجرمين. مالكم كيفَ تَحكمون... فاصبرْ لحكمِ ربِّكَ ولاتكنْ كصاحبِ الحوتِ إذ نادى وهو مكظوم﴾ القلم/35-36.48.

والأمر بالصبر هنا، معلل بـ(حكم ربك)، وهو إمهالهم، وتأخير نصرتك عليهم(112).

وتعدى الفعل بـ(على)،كما في قوله تعالى: ﴿وقالوا ربَّنا عجّلْ لنا قِطَّنا قبلَ يومِ الحساب. اصبِرْ على مايقولون واذكرْ عبدَنا داودَ ذا الأيدِ إنّه أوّاب﴾ ص/16-17.

ودلالة (على) هنا الاستعلاء المجازي،وقد جاء مع فعل شاق مستقل(113). وهو الأمر بالصبر.

*

التحضيض بـ(لولا):

... التعقيب ... فيه من

معانيها(114). وجاء منه في ... الواقعة ...

تصدقون﴾ الواقعة ...

أي: هلا تعترفون وتصدقون ... قد

تقدم موضع التعقيب ... سياق ...

﴿وكانوا يقو...

وقوله ... فقد ...

وجاءت هذه ... بعد ... وقد ... فوا

بذلك، فعقبت هذه ...

البدء. وعلى ...

وقوله تعالى: ﴿أفرأيتم ...

نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه ... فلولا ...

وهذه ... لجعله ...

فخلقه وجعله ... بحسب ... ويسبقها

التحضيض على الشكر.

*

التحقيق بـ(قد):

تختلف دلالة الجملة المسبوقة بـ(قد) بحسب فعلها ماضياً كان أو مضارعاً، و لم يأت الفعل بعدها في التعقيب إلا ماضياً، وهو يدل على تقريب الماضي من الحال. تقول: قام زيد. فيحتمل الماضي البعيد والماضي القريب. فإن قلت: قد قام. اختص بالقريب(117). قال تعالى: ﴿وقالَ الذينَ لايعْلَمون لولا يُكلِّمنا اللهُ أو تأتينا آيةٌ كذلك قالَ الذينَ من قبلِهم مثلَ قولِهم تشابهتْ قلوبُهم قد بيِّنا الآياتِ لقوم يُوقنون﴾ البقرة/118.

والمعنى: إن في ماظهر من الآيات الباهرات الدالة على صدق النبي – صلى الله عليه وسلم– كفاية لمن ترك التعنت والعناد في ذلك(118).

*

الترجي بـ(لعل):

هي لتوقع شيء محبوب أو مكروه، فتوقع المحبوب يُسمى ترجياً واطماعاً، وتوقع المكروه يُسمى إشفاقاً(119). ولها معان عدة أُخر(120). جاء منها في التعقيب:

1 – الترجي أوالإطماع:

كما في قوله تعالى في قصة موسى: ﴿وإذ قال موسى لقومه إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذُ با للهِ أن أكونَ من الجاهلين... فقلنا اضربوه ببعضِها كذلك يُحيي الله الموتى ويُريكم آياتِه لعلّكم تعقِلون﴾ البقرة/67–73.

ومعنى التعقيب (لعلكم تعقلون) تعملون على قضية عقولكم، وإن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها(121). والمراد من القضية وتعقيبها توقع إعمال العقل والتفكير من بني إسرائيل في أمور القيامة، والإحياء بعد الإماتة.

ومنه قوله تعالى: ﴿شهرُ رمضانَ الذي أُنزِلَ فيه القرآنُ هدى للناسِ وبيِّناتٍ من الهدى والفُرقانِ فمَنْ شَهِدَ منكم الشهرَ فلْيَصمْهُ ومَنْ كان مريضاً أو على سفرٍ فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخرَ يُريد الله بكم اليسرَ ولايُريد بكم العُسرَ ولتكمِلوا العِدَّةَ ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون﴾ البقرة/185.

وفي التعقيب عله الترخيص والتيسير(122). ودلالة علىتوقع الشكر.

إن دلالة التعقيب في القضيتين السالفتين توضح لنا معنى الترجي والتوقع، وهما دلالتان ممكنتا الوقوع، ومن هنا ينشأ الفرق بين الترجي الذي يتوقع القائل حصوله، والتمني الذي لايتوقع القائل حصوله(123).

وأما الإطماع فهو من التوقع، لكنه يختلف عنه من جهة الوقوع والحصول، فالإطماع يكون في الأمور المحققة المحتّمة، وأكثر مايكون على هذا المعنى، في الأمور التي وعد الله بها على سبيل الرمز، ولما كان وعده سبحانه، حقاً، كانت تلك الأمور محققة محتّمة، لأنها إطماع من كريم رحيم، إذا أطمع فعل مايُطمع فيه لامحالة، وذلك لجري إطماعه مجرى وعده المحتوم(124). ومنه قوله تعالى في الهداية: ﴿ومِنْ حيثُ خرجتَ فولِّ وجهَك شطرَ المسجد الحرام وحيثُ ماكنتم فولّوا وجوهَكم شطرَهُ لئلا يكونَ للناسِ عليكم حُجَّةٌ إلاّ الذين ظلموا منهم فلا تخشَوهم واخشَوني ولأُتِمَّ نعمتيَ عليكم ولعلكم تهتدون﴾ البقرة/150.

فالتعقيب يراد به إطماعهم في الاهتداء من خلال (لعل)، وقد أشار سبحانه، إلى وقوع هدايتهم إشارة موجزة. ومثله قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل اللهِ جميعاً ولاتَفرَّقوا واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّفَ بين قلوبِكم فأصبحتم بنعمتهِ إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يُبين اللهُ لكم آياتِه لعلكم تهتدون﴾ آل عمران/103.

2- التعليل:

قال تعالى: ﴿ولقد نَصَركم اللهُ ببدرٍ وأنتم أذلّةٌ فاتّقوا اللهَ لعلكم تشكرون﴾ آل عمران/123. أي اتقوه في الثبات مع رسوله (لعلكم تشكرون) بتقواكم ماأنعم به عليكم من نصرته، فوضع الشكر موضع الإنعام، لأنه سبب له(125).

وقال تعالى: ﴿قل هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقِكم أو من تحتِ أرجلكم أو يُلبسَكم شيَعاً ويذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ انظر كيفَ نُصرِّفُ الآياتِ لعلهم يَفْقَهون﴾ الأنعام/65.

فجاء الأمر بالنظر في تصريف الآيات لكي يعلموا الحق فيتبعوه، والباطل فيجتنبوه(126). ولاشك في أن فعلية الخبر تدل على تجدد الحدث مرة بعد مرة، فالمراد من (تشكرون) تجدد الشكر مرة بعد مرة وكذا (يفقهون) يراد به تجدد الفقه مرة بعد مرة.

ويلاحظ أن الفعل (تفلحون) ارتبط في تعقيب (لعل) بفعل الأمر، فلم يأت (تفلحون) إلا قبله فعل الأمر، بخلاف سائر الأفعال الواردة في هذا التعقيب(127). وكانت أوامر الله تعالى مختلفة، قبل تعقيب الفلاح كقوله تعالى:

- ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ البقرة/189 وآل عمران/130-200.
- ﴿وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ المائدة/35.
- ﴿.... رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ المائدة/9.
- ﴿فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ الأعراف/69.
- وغير هذا(128).

ويبدو أن الأوامر التي أصدرها تعالى قبل التعقيب بـ(لعل) هي سبل الاتصاف بالفلاح(129) وإذا تدبرنا مواضع الأمر بتقوى الله قبل (لعلكم تفلحون) نجد أنه تعالى قال: ﴿وليس البرُّ بأنْ تأتوا البيوتَ من ظهورها ولكنَّ البِرَّ مَنْ اتقى واتوا البيوتَ من أبوابِها واتّقوا اللهَ لعلكم تُفلحون﴾ البقرة/189.

فكانت التقوى سبباً في الفلاح في هذه القضية. والمعنى: ليس البر ومايبنغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البر بر من اتقى ذلك، وتجنبه، و لم يجسر على مثله(130).

ومثله قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تُفلحون﴾ آل عمران/200.

أي: اتقوا أن تخالفوا الله فيما يأمركم به لكي تفلحوا بنعيم الأبد، وقد جاء الفلاح المعلل بالتقوى في قضية اجتمع فيها جميع مايتناوله المكلف من لزوم العبادات، واجتناب المحرمات، ومجاهدة الناس والنفس، والمرابطة في سبيل الذب عن الدين. ويتبع جميع ذلك الفلاح(131).

إن معنى الإطماع أو التعليل في (لعل) منوط بالقضية والسياق الذي عليه الكلام، ويبدو الفرق واضحاً عند تفحص تعقيبين، جاءا متتاليين في موضع من سورة البقرة، هما في قوله تعالى: ﴿وإذا سَألك عبادي عني فإني قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعي إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يَرْشُدون. أُحلَّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفَثُ إلى نسائِكم... تلك حدودُ اللهِ فلا تقربوها كذلك يُبيِّن اللهُ آياتِه للناسِ لعلّهم يتقون﴾ البقرة/185-186.

فالتعقيب الأول للتعليل، ومعناه: ليصيبوا الحق ويهتدوا إليه(132). وذلك بدلالة الأمر في (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي) الذي هو مكون من لام الأمر والمضارع. والتعقيب الثاني للإطماع، ومعناه: إنه تعالى بيّن آياته للناس لكي يتقوا معاصيه وتعدي حدوده، فيما أمرهم به، ونهاهم عنه وأباحهم إياه(133).

*

التوكيد بـ(ان):

(ان) لها معان عدة، منها التوكيد والربط والتعليل(134). وجاءت هذهالمعاني في تعقيبات سورة النبأ. نكتفي بها أمثلة لما نريد.

قال تعالى: ﴿عمَّ يتساءلون. عن النبأ العظيمِ. الذي هم فيه مختلفون.... إن يومَ الفصل كان ميقاتاً﴾ النبأ/1-17.

بُدئت السورة بالاستفهام المراد به تفخيم القضية، وأجيب عنه بقوله (عن النبأ العظيم) الذي هو يوم الفصل. وكانت قضية الاستفهام وجوابه شيئاً عظيماً، ماكان لأحد أن يشك فيه، لذلك قال تعالى (كلا) أي ليس الأمر كما قالوا. وحملت الآيات اللاحقة الوعيد، والاستدلال على قدرته سبحانه، على الإحياء بعد الإماته،وعلى الإعادة يوم البعث، وكان الاستدلال بخلق الأرضْ والجبال وغيرها من المعجزات. ثم أعقبت القضية كلها بـ(إن يوم الفصل كان ميقاتا) أي: إن يوم القيامة كان في تقدير الله وحكمه حداً، توقّت به الدنيا، وتنتهي عنده. أو هو حد للخلائق ينتهون إليه(135). ولما كان الذين يتساءلون عنه في شك من وقوعه، وحقيقته كان التوكيد بـ(إن) مناسباً لإزالة شكهم. ومعنى التوكيد ينصرف إلى زمان وقوع الحدث (الوقت). ثم وصفت الآيات ذلك اليوم، فقال تعالى: ﴿يوم يُنفخ في الصور فتأتون أفواجا. وفُتحت السماء فكانت أبوابا. وسُيِّرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا﴾ النبأ/18-21.

وهذا توكيد ثان. ولكنه هنا توكيد لمكان وقوع الحدث، لأن جهنم محبس يُحبس فيه، أو هي طريق منصوب للعاصين(136). ثم تتوالى الآيات في وصف خلود الكافرين في جهنم. قال تعالى: ﴿للطاغين مآبا. لابثين فيها أحقابا.

لايذوقون فيها برداً ولاشرابا. إلا حميماً وغَسَّاقا. جزاءً وِفاقا. إنهم كانوا لايرجون حسابا﴾ النبأ 22–27.

أي: فعلنا ذلك بهؤلاء الكفار، لأنهم كانوا لايخافون أن يحاسبوا(137).

وإن هنا للتعليل.

ثم عقّب سبحانه، وعيد الكفار بوعد المتقين الأبرار، فقال تعالى: ﴿إن للمتقين مفازا. حدائقَ وأعنابا﴾ النبأ/31–32.

وإن هنا للربط، ولاشك في أنها لاتصفو لمعنى الربط. فقد شابها التوكيد، والتوكيد هو الأصل فيها(138).

في سورتي النحل والروم جملة من التعقيبات المؤكدة بـ(ان) وتركيبها لايختلف فيه إلا كلمة الفاصلة. وهو (إن في ذلك لآية [لآيات] لقوم...) ومعنى (ان) هنا التوكيد، حيث أكدت مضمون الجملة، وجاءت اللام المؤكدة في اسمها لزيادة التوكيد، فهو إذن، توكيد مضاعف:

سورة النحل

1- ﴿هو الذي أنزلَ من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شَجَرٌ فيه تُسيمون.
يُنبت لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كلِّ الثمراتِ
إنَّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون﴾/10-11.

2- وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مُسخَّراتٌ بأمرِهِ
إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾/12.

3- ﴿وماذَرَأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانُهُ
إنَّ في ذلك لآيةً لقوم يَذَّكَّرون﴾/13.

4- ﴿والله أنزلَ من السماء ماءً فأحيا به الأرضَ بعد موتها
إنَّ في ذلك لآيةً لقوم يسمعون﴾/65.

سورة الروم

1- ﴿ومن آياته أنْ خَلَق لكم من أنفسِكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعَلَ بينكم مودةً ورحمةً
إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾/21.

2- ﴿ومن آياتِهِ خَلْقُ السمواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتِكم وألوانِكم
إنَّ في ذلك لآياتٍ للعالمين﴾/22.

3- ﴿ومن آياتِهِ منامُكم بالليلِ والنهارِ وابتغاؤكم من فضلِهِ
إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون﴾/23.

4- ﴿ومن آياتِه يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً ويُنزِّلُ من السماءِ ماءً فيُحيي به الأرضَ بعد موتها
إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾/24.

5- ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نُسقيكم
مّما في بطونِهِ من بين فرثٍ ودمٍ لَبَناً
خالصاً سائغاً للشاربين ومِنْ ثمراتِ
النخيلِ والأعنابِ تتخذون منه سَكَراً
ورزقاً حسناً
إنَّ في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ 66-67.

6- ﴿ثم كُلي من الثمرات فاسْلُكي سُبُلَ
ربِّك ذُلُلاً يَخرجُ من بطونها شرابٌ
مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس
إنَّ في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾68-69.

7- ﴿ألم يرَوا إلى الطير مُسخَّراتٍ في جوِّ
السماءِ مايُمْسِكُهن إلا الله
إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾79.

5- ﴿أوَ لم يروا أنَّ الله يَبْسطُ الرزق لمن
يشاءُ ويقدرُ
إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾37.

في سورة النحل اختلف اسم (ان)، فكان مفرداً (آية) وجمعاً (آيات)، والسبب أن الإشارة في القضية الثانية (ذلك لآيات) إلى خمسة أشياء مختلفة، وهي الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم. وكل واحد من هذه الأشياء تتسع جهات النظر فيه، والاعتبار بعجائبه، فالليل للسكون والراحة، والنهار للاكتساب والتصرف والسياحة، والشمس للإضاءة والحرارة، والقمر للنور، وبهما معرفة الشهور والسنين، والنجوم للاهتداء في ظلمات البراري والبحار. فجهات الاعتبار بهذه الخمس يفوت الإحصاء، لذلك جاءت الإشارة إلى هذه المتعددات جمعاً على (آيات)(139).

وكذلك الإشارة في القضية السابعة، وفيها (الطير مسخرات) بالجمع، أي جموع الطيور بأشكالها، وألوانها وكيفيات طيرانها، فما جاء فيه الجمع فهو للموافقة بين اللفظ والمعنى، وأما التوحيد في القضايا الأخرى فلتوحيد المشار إليه(140).

في سورة الروم كانت الإشارة بـ(ذلك) إلى متعدد في القضايا، وقد سبقها قوله تعالى: ﴿ومن آياته...﴾ فتوافق اللفظ والمعنى. إلا في القضية الخامسة، فلم يسبقها قوله تعالى ذاك. والسبب: أن القضايا الأربع وردت في سياق التذكير بآيات الله، فمن آياته كذا، ومن آياته كذا. ثم ذكر تعالى حال الناس الذين يقنطون من رحمة الله إذا مسَّهم العذاب بما صنعته أيديهم. فقال تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾

وأنكر عليهم ذلك بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض، فما لهم يقنطون من رحمته، ومالهم لايرجعون إليه، تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها، حتى يعيد إليهم رحمته(141).

وأعقبها بـ﴿إن في ذلك لآيات...﴾ فالسياق هو في الإنكار عليهم، وليس في تذكيرهم بآيات الله سبحانه كما قد تقدم، ولذلك لم تُبدأ هذه القضية بقوله:﴿ ومن آياته...﴾.

وفي السورتين تشابه من حيث الفواصل التي خُتمت بها التعقيبات، فقد خُتم تعقيب القضيتين الأولى والسادسة من سورة النحل والقضية الأولى من سورة الروم بـ(يتفكرون). وبناء (تفعّل) يدل على التكلف(142).

إن الوصف بتكلف الفكر يلائم القضية التي أعقبها كل تعقيب ختم بـ(يتفكرون) وذلك لأن إنبات الزرع من الزيتون والنخيل والأعناب، وهو مختلف الثمرات، بالماء المنزل من السماء، مع كونه واحداً، وهو ينبت مختلف الأنواع والطعوم والمنافع، أمر يوصل إلى معرفته وارتباطه باستعمال الفكر مرة بعد مرة، بإطالة التفكير فيه، لإحراز محصول الآية التي أشار إليها سبحانه.

أما القضية السادسة فهي مجال للتفكير، ومتسع للاعتبار، وفيها أعجوبة، تتمثل في انقياد النحل لملكتها، واتخاذها البيوت على أشكال يعجز عنها الحاذق، ثم تتبعها الزهر، ثم خروج ذلك من بطونها لعاباً، هو شفاء، فاقتضى ذلك ذكراً بليغاً فختم الآية بالتفكير(143).

وفي سورة الروم تناسب ختم التعقيب بـ(يتفكرون) مع القضية، إذ أنها تنطوي على حكمته سبحانه في سبب التناسل والتكاثر وخلق الأزواج، ليحصل السكن والائتلاف. ثم غرس سبحانه المودة والرحمة في قلب كل واحد من الزوجين، ليتم الالتئام، ويحصل التعاون على مابه قوام العيش، وجعل في قلبيهما حب الولد والرفق به، ولايحاط بالحكمة في هذه الأمور إلا بمداومة الفكر، وطول الاعتبار(144).

وهكذا الأمر مع سائر التعقيبات والقضايا، ووجوه ختمها بما خُتمت به. مما يدل على تناسب فائق وملاءمة بالغة.

- ﴿إن ذلك على الله يسير﴾.

تكرر هذا التعقيب أربع مرات في القرآن الكريم:

1- ﴿الله يحكمُ بينكم يومَ القيامة فيما كنتم فيه تختلفون. ألم تعلمْ أنَّ الله يعلم مافي السموات والأرضِ إنَّ ذلك في كتابٍ إنَّ ذلك على اللهِ يسير﴾ الحج/69-70.

2- ﴿أوَ لم يَرَوا كيف يُبدئ الله الخلقَ ثم يُعيدُه إنَّ ذلك على اللهِ يسير﴾ العنكبوت/19.

3- ﴿والله خَلَقَكم من ترابٍ ثم من نُطفةٍ ثم جعلكم أزواجاً وماتحملُ من أنثى ولاتَضعُ إلاّ بعلمِهِ ومايُعمَّرُ من مُعمَّرٍ ولايُنقَصُ من عمرِهِ إلاّ في كتابٍ إنَّ ذلك على اللهِ يسير﴾ فاطر/11.

4- ﴿ماأصاب من مصيبة في الأرض ولافي أنفسِكم إلاّ في كتابٍ من قبلِ أن نبرأها إنَّ ذلك على اللهِ يسير﴾ الحديد/22.

وقد دلت (ان) في هذه المواضع على التوكيد الذي أفاد عدم تعذر المشار إليه على الله سبحانه، فالمشار إليه يقع ضمن القدرة الإلهية المطلقة.

في سورة التغابن جاء التركيب بلا توكيد. قال تعالى: ﴿زَعَم الذين كفروا أنْ لن يُبْعَثوا قل بلى وربي لَتَبْعَثُنَّ ثم لَتَنَبَّؤُنَّ بما عملتم وذلك على اللهِ يسير﴾ التغابن/7.

ولم يؤكد التعقيب لتقدم تأكيدات، أغنت عنه، وهي القسم وتأكيده باللام والنون (وربي لتبعثن...). وقال بعده على سبيل الخبر إن ذلك البعث والحساب مع الجمع والجزاء سهل هين، لايلحقه مشقة، ولامعاناة(145). فنلاحظ هنا، انتفاء الحاجة إلى تأكيد التعقيب، لأنه سُبق بتأكيدات، ولأن مجيء الكلام على الخبر يجعله حقيقة واقعة، لاجدال فيها. وهذا خلاف قوله تعالى: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾.

- إن + اللام في خبرها.

من المعروف أن كلاً من (ان) واللام يفيد التوكيد، فاجتماعهما يؤدي إلى الزيادة في التوكيد، وهي أقوى من التوكيد بواحد منهما.

يتضح هذا في المقارنة بين التعقيب في قوله تعالى: ﴿قلْ أغيرَ اللهِ أبغي ربًّا وهو ربُّ كلِّ شيءٍ ولاتكسِبُ كلُّ نفسٍ إلا عليها ولاتزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى ثم إلى ربِّكم مرجعُكم فيُنبِّئكم بما كنتم فيه تختلفون. وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرضِ ورَفَع بعضَكم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليَبْلُوَكم في ماآتاكم إن ربَّك سريعُ العقاب وإنَّه لغفورٌ رحيم﴾ الأنعام/164-165.

حيث جاء بإن وحدها في (إن ربك سريع العقاب...)، والتعقيب في قوله تعالى: ﴿وإذ تأذَّنَ ربُّك ليَبْعَثَنَّ عليهم إلى يومِ القيامةِ مَنْ يسومُهم سوءَ العذابِ إنَّ ربَّك لسريعُ العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ الأعراف/167.

وجاء بأن واللام في (إن ربك لسريع العقاب...). والسبب أن اللام تفيد التوكيد، فأفادت في آية الأعراف تأكيد سرعة العقاب، لأن العقاب المذكور هنا عقاب عاجل، وهو عقاب بني اسرائيل بالذل والنقمة وأداء الجزية بعد المسخ. لأنه في سياق قوله تعالى: ﴿وإذ تأذّن ربكم ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ فتأكيد السرعة أفاد بيان التعجيل، وهو مناسب، بخلاف العقاب المذكور في سورة الأنعام، فإنه آجل بدليل قوله: ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ فاكتفى فيه بتأكيد (ان)، ولما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلاً اختصت بزيادة التأكيد(146).

وقد يشير التوكيد باللام إلى الدلالة على الكثرة لاالزيادة، كما يتضح ذلك من مقارنة التعقيب في الآيات الآتية:

1- ﴿لتُبلَوَنَّ في أموالكم وأنفسِكم ولتسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتابَ مِنْ قبلكم ومِنَ الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتَتقوا فإنَّ ذلك من عزم الأمور﴾ آل عمران/186.

ووقعت الإشارة هنا، إلى أربعة أمور، هي:

- البلاء في الأموال.
- البلاء في الأنفس.
- سماع الأذى.
- الأمر بالصبر.

وكان التعقيب بـ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾.

2- ﴿يابني أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ لقمان/17.

ووقعت الإشارة هنا، إلى أربعة أمور أيضاً، هي:

- إقامة الصلاة.
- الأمر بالمعروف.
- الأمر بالصبر.

وكان التعقيب بـ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾.

3- ﴿فما أُوتَيتم من شيءٍ فَمتاعُ الحياة الدنيا وماعندَ اللهِ خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكّلون. والذين يجْتنبون كبائرَ الإثمِ والفواحشَ وإذا ماغَضِبوا هم يَغفِرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرُهم شورى بينَهم

ومما رزقناهم يُنْفقون. والذين إذا أصابهم البغيُ هم ينتصرون. وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها فمَنْ عفا وأصلحَ فأجرُهُ على الله إنّهُ لايُحِبُّ الظالمين. ولمن انتصرَ بعدَ ظلمِهِ فأولئك ماعليهم من سبيلٍ. إنما السبيلُ على الذين يظلمون الناسَ ويَبْغُون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ أولئكَ هُم عذابٌ أليم. ولمن صَبَر وغَفَرَ إنَّ ذلكَ لِمنْ عزمِ الأمور﴾ الشورى/36-43.

وهنا وقعت الإشارة إلى اثني عشر أمراً:

- التنزه عن متاع الحياة الدنيا.
- التوكل على الله.
- اجتناب كبائر الإثم.
- اجتناب الفواحش.
- المغفرة عند الغضب.
- الاستجابة لله.
- إقامة الصلاة.
- الشورى.
- الإنفاق من الرزق.
- عدم الظلم.
- العفو والاصلاح.

وكان التعقيب بـ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ فناسب كثرة هذه الأمور زيادة اللام للتوكيد.

- إن + لفظة الجلالة.

كثر التعقيب بـ(إن) مع لفظ الجلالة في القرآن كثرة ظاهرة، مما حدا بنا إلى تخصيص هذا المبحث، نتفحص فيه معاني (ان) حين تتركب مع لفظ الجلالة، وعلاقة ذلك كله بالقضايا مع الاهتمام ببيان معاني الأسماء الحسنى. وعلاقتها بالسياق، مكتفين بأمثلة متنوعة، مدركين أن هذه المسألة بحاجة إلى إفرادها ببحث مستقل :

1 – رقيب:

ورد في تعقيبين، في قوله تعالى: ﴿ياأيُّها الناسُ اتّقوا ربَّكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخَلَق منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتّقوا الله الذي تَسَاءلون به والأرحامَ إنَّ الله كان عليكم رقيبا﴾ النساء/1.

وقوله تعالى: ﴿ياأيها النبيُّ إنا أحللْنا لك أزواجَك اللاتي أتيتَ أجورَهن وماملكتْ يمينُك ممَّاأفاءَ الله عليك... لايُحلُّ لك النساءَ من بعدِ ولاأنْ تُبدِّلَ بهن من أزواجٍ ولو أعجبَك حسنُهن إلا ماملكتْ يمينُك وكان الله على كلِّ شيءٍ رقيبا﴾ الأحزاب/50–52.

والرقيب هو الذي لايغفل عما خلق، فيلحقه نقص، أو يدخل عليه خلل من قبل غفلته عنه(147). أو هوالحافظ الذي لايغيب عنه شيء، وجاء على صيغة (فعيل) بمعنى (فاعل). فرقيب بمعنى راقب(148). ولايكون (فعيل) هنا، صفة مشبهة، لأن هذه تدل على الثبوت فيما هو خلقة أومكتسب، كطويل، وقصير، وخطيب، وفقيه(149). وإنما هو صيغة مبالغة للدلالة على الكثرة والمبالغة في الحدث(150).

أي أن صيغ المبالغة تدل على قسمين:

أحدهما: ماتحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل.

الثانـي: بحسب تعدد المفعولات.

ولاشك في أن تعدد المفعولات لايوجب للفعل زيادة، إذ الفعـل الواحـد قد يقع على جماعة متعددين، وعلى هذا التقسيم يجب تنزيل جميع أسماء الله تعالى التي وردت على صيغة المبالغة(151).

فنقول في (رقيباً) في آية النسـاء أن مبالغته مـن حيـث تعـدد المفعـولات فالله سبحانه هو الذي يرقب الرجال الكثـيرين والنسـاء الكثـيرات، وهـو الـذي يرقب جميع الأعمال في طاعته، وفي صلة الأرحام، أي هو مراقب لجميع أموالكم وأعمالكم(152).

وإذا تدبرنا معنى الآية وجدنا أن المراقبة تشمل الناس جميعاً من زمن آدم إلى قيام الساعة، وذلك لأن الناس جميعاً من نفس واحـدة، فهـم مراقبـون أيضـاً، ولهذا قال تعالى هنا (عليكم). إن هذه المعاني توجب استعمال صيغة المبالغة.

وكذا الأمر في آية الأحزاب، فقد ذكر العلماء أن هذه الآية نزلت بمجازاة لأزواج النبي، بحسب صنيعهن في اختيـارهن الله ورسـوله والـدار الآخـرة، فلمّـا اخترن رسول الله كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً(153)، فالقضية خاصة بالرسول الكريم.

إن رقابة الله من حيث أنه مراقب لما في النفوس، لأن قوله تعـالى ﴿ولـو أعجبك حسنهن﴾ لايقع في رقابة البشر، وإنما يقع في رقابة رب العـالمين. وهـذا مما يستدعي المبالغة في الوصف أو الحدث من حيث الزيادة.

2 – سريع الحساب:

السريع فعيل من سُرع فلان فهو سريع، أي صار سريعاً، ومعنى السريع في صفاته تعالى أنه سريع الحساب لعباده، وأن أفعاله تسرع فلا يُبطئ منها شـيء

عما أراد، لأنه بغير مباشـرة ولاعـلاج ولاكلفـة، وإنمـا أمـره لشـيء إذا أراده أن يقول له كن فيكون(154).

فالسريع إذن، صيغة مبالغة تدل على زيادة الفعل، وتعـدد المفعـولات في الوقت نفسه، والسياق القرآني يوضح هذا. قال تعـالى في الحـج: ﴿فـإذا قضيتـم مناسِكَكم فاذكروا الله كذكرِكم آباءَكم أو أشدَّ ذكراً فمن الناسِ مَنْ يقولُ ربَّنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرةِ من خَلاَق. ومنهـم مـن يقـولُ ربنـا آتنـا في الدنيـا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنا عذابَ النار أولئـك هُـم نصيـبٌ ممـا كسَـبوا والله سريعُ الحساب﴾ البقرة/200-202.

ومعنى التعقيب يحتمل أنه تعالى سريع المجازاة للعباد على أعمـالهم، وأن وقت الجزاء قريب، وهذا معنى الزيادة في الفعل أي السـرعة. ويحتمـل أن يكـون المرادبه أنه تعالى يحاسب أهل الموقف يـوم الحسـاب في أوقـات يسـيرة، لايشـغله حساب أحد عن حساب غيره، كما لايشغله شأن عن شأن. وقـد ورد في الخبر أنه تعالى يحاسب الخلائق كلهم في مقـدار لمـح البصـر(155). وهـذا معنـى تعـدد المفعولات.

وقال تعالى في فئة من أهل الكتاب: ﴿وإنَّ من أهـلِ الكتـاب لمـن يُؤمـنُ بالله وماأُنزِلَ إليكم وماأُنزِل إليهم خاشعين للهِ لايَشْـتَرون بآيـاتِ الله ثمنـاً قليـلاً أولئك لهم أجرُهـم عنـد ربهم إنَّ الله سريعُ الحساب﴾ البقرة/199.

فوَصَفَ الحساب بالسـرعة، لأنـه تعـالى لايؤخـر الجـزاء عمـن يسـتحقه بطول الحساب، لأنه لايخفى عليه شيء من أعمـالهم قبـل أن يعملوهـا، وبعـد أن يعملوها. فلا حاجة به إلى إحصاء عدد، فيقع في الإحصاء إبطاء. وقيـل: معنـاه

أنه يحاسب كل الخلق معاً، فإذا حاسب واحداً فقد حاسب الجميع، لأنه قادر على أن يكلمهم في حالة واحدة، كل واحد بكلام يخصه(156).

أما عن التوكيد في التعقيبين السالفين، فالأول في خطاب المؤمنين، وهم يقضون مناسك الحج، فلاحاجة هنا إلى التوكيد. والثاني في خطاب فئة من أهل الكتاب، فالتوكيد لتحقيق الخبر في نفوسهم وإيقاعه، ويتضح هذا من سياق القضية، فقد قال تعالى في الكافرين: ﴿لايَغرنَّك تقلبُ الذين كفروا في البلاد. مَتاعٌ قليلٌ ثم مأواهم جهنّمُ وبئسَ المهاد﴾ آل عمران/196–197.

و لم يؤكد التعقيب. وقال تعالى في المتقين: ﴿لكن الذين اتقوا ربَّهم لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نُزُلاً من اللهِ وماعندَ اللهِ خيرٌ للأبرار﴾ آل عمران/198.

و لم يؤكد التعقيب أيضاً. وقال تعالى في هؤلاء ﴿وإن من أهل الكتاب ... إن الله سريع الحساب﴾ فأكد التعقيب. قيل: إنما خصَّ الله تعالى هذه الطائفة بالوعد، ليبين أن جزاء أعمالهم موفور عليهم، لايضرهم كفر من كفر منهم(157). وهذا يدل على أن في نفوسهم شكاً في أجرهم، فالتوكيد هنا، لإزالة الشك.

3– رحيم:

من صيغ المبالغة والتكرار(158). فهو منقول عن راحم. وفي علاقته بالرحمن آراء متعددة(159). منها: أن الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم، وأسباب معايشهم ومصالحهم، وعمّت المؤمن والكافر، الصالح والطالح. وأما الرحيم فخاص بالمؤمنين. قال تعالى: ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾ الأحزاب/43(160).

وجاء مفرداً في التعقيب مرتين:

الأولى في قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلاّ أن تكونَ تجارةً عن تراضٍ منكم ولاتقتلوا أنفسكم إنَّ الله كان بكم رحيما﴾ النساء/29.

والثانية في قوله تعالى: ﴿ربُّكم الذي يُزجي لكم الفُلكَ في البحر لتبتغوا من فضلِهِ إنّه كان بكم رحيما﴾ الاسراء/66.

ومعنى (ان) التعليل. ففي آية النساء تعليل للنهي عن إفساد الأموال، وللنهي عن قتل الأنفس. أي أنه لم يزل بكم رحيما. وكان من رحمته أن حرّم عليم إفساد الأموال وقتل الأنفس.

وفي آية الإسراء تعليل لسوق السفن في البحر لابتغاء الرزق، حيث أنعم عليكم بهذه النعم(161).

وسياق استعمل (الرحيم) هو تعداد النعم على المؤمنين، وهو موافق لخصوصية دلالة الرحيم. فإذا اختلف السياق اختلف التعقيب وتركيبه بما يؤدي دلالة مناسبة لذلك السياق. وهكذا نجد (أرحم الراحمين) على صيغة اسم التفضيل المضاف إلى المعرفة في سياق الدعاء. قال تعالى في قصة موسى: ﴿قال ربِّ اغفرْ لي ولأخي وأدخلنا في رحمتِك وأنتَ أرحم الراحمين﴾ الأعراف/151.

فهذا التركيب يُذكر عادة، في آخر الدعاء لبيان شدة الرجاء من جهته سبحانه. وهذه الشدة تقتضي الزيادة في الرحمة، فيقال: (أرحم الراحمين) لاستدعاء الرحمة. كما يقال: أجود الأجودين، لاستدعاء الجود من جهته(162).

ومثله ماجاء في قصة يوسف(163)، وقصة أيوب(164).

4 – شهيد:

الشهيد في اللغة بمعنى الشاهد، والشاهد خلاف الغائب، فالله -عزّ وجل، لمّا كانت الأشياء لاتخفى عليه، كان شهيداً لها وشاهداً لها. أي عالماً بها، وبحقائقها علم المشاهد لها، لأنه لاتخفى عليه خافية(165).

إن وجه استعمال صيغة المبالغة (الشهيد) بمعنى الشاهد، أن الشهيد هو المطلع على مالايعلمه المخلوقون إلا بالشهود، وهو الحضور، ومعنى ذلك أنه سبحانه، وإن كان لايوصف بالحضور الذي هو المجاورة والمقاربة في المكان، فإن مايجري ويكون، من خلقه، لايخفى عليه. كما لايخفى على البعيد النائي عن القوم مايكون منهم. وذلك أن النائي إنما يؤتى من قبل قصور آلتهِ، ونقص جارحته، والله -جل شأنه- ليس بذي آلة ولاجارحة، فيدخل عليه فيهما مايدخل على المحتاج إليهما(166). فالشهيد صيغة مبالغة تدل على زيادة الفعل، ولو كانت الزيادة غير مطلوبة لأُستعمل شاهد بدل شهيد، كما أن هذه الصيغة تدل على تعدد المفعولات بدليل ورود قوله تعالى ﴿على كل شيء) في التعقيبات التي ورد فيهن (الشهيد) مقصوداً به الله سبحانه(167).

وقد جاء تركيب هذه التعقيبات على ثلاثة أشكال:

أ - ﴿وهو على كل شيء شهيد﴾.

قال تعالى في خطاب النبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿قل ماسألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾ سبأ/47.

أي: عليم به، لم يغب عنه شيء، فيعلم مايلحقني من أذاكم(168).

وليس هنا داعٍ للتوكيد، فالكلام إخبار ابتدائي عن حقيقة.

ب - ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾.

قال تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوسَ والذين أشركوا إنَّ الله يفصلُ بينهَم يومَ القيامةِ إنَّ الله على كل شيءٍ شهيد﴾ الحج/17.

أي: عليم مطلع على مامن شأنه أن يشاهد، بعلمه قبل أن يكون، لأنه علاّم الغيوب(169). وقد جرى التوكيد هنا، على نسق الكلام في سياق الآية من جهة، وقد قال تعالى قبلها: ﴿وكذلك أنزلناه آياتٍ بيناتٍ وأنَّ الله يَهدي مَنْ يريد. إنَّ الذين آمنوا..إنَّ الله يفصلُ بينهم يوم القيامة إنَّ الله على كل شيء شهيد﴾ الحج/16-17. بالتوكيد المتكرر، وأفاد معنى التعليل من جهة أخرى. وأن هذه الآية تختلف عما جاء في مواضع أخرى في القضية ذاتها، كقوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخرِ وعمِلَ صالحاً فلهم أجرُهم عندَ ربِّهم ولاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾ البقرة/62.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى مَنْ آمن بالله واليومِ الآخرِ وعمِل صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾ المائدة/69.

وسبب ذلك أن آية الحج وردت معرفة بمن يرد في يوم القيامة على ماكان من يهودية أو نصرانية أوغير ذلك. والآيتان الأخريان وردتا فيمن يرد مؤمناً، فافترق القصدان، واختلف مساق الآيات بحسب ذلك(170).

ج- ﴿إن الله كان على كل شيء شهيدا﴾

قال تعالى في المواريث: ﴿ولكلٍّ جعلنا مواليَ مما تركَ الوالدانِ والأقربونَ والذين عَقَدت أيمانكم فآتوهم نصيبَهم إنَّ الله كان على كل شيء شهيدا﴾ النساء/33.

أي: لم يزل سبحانه عالماً بجميع الأشياء، مطلعاً عليها، جليّها وخفيّها(171)، وإن للتعليل. ويبدو أن استعمال (كان) في هذا التعقيب، وفي نظيره: ﴿إنْ تُبدو شيئاً أو تُخفوه فإنَّ الله كانَ بكلِّ شيء عليما. ولاجُناحَ عليهن في آبائِهن ولاأبنائهن ولاإخوانِهن ولاأبناءِ إخوانِهم ولاأبناءِ أخواتهن ولانسائِهن ولاماملَكت أيمانُهن واتّقين الله إنَّ الله كان على كلٍّ شيءٍ شهيدا﴾ الأحزاب/54–55.

هو في مقام التشريع، ومقام التشريع يتفاوت في معرفة عاقبته البشر، فقد يأتمر بالأمر فريق من الناس، وقد ينتهي عنه آخرون. فالعاقبة مجهولة لنا –نحن البشر– ولكنها عند الله معلومة، لأنه يعلم الأشياء قبل وقوعها، وبعد وقوعها. فناسب هذا أن تدل (كان) على ماضٍ مبهم، ليس فيه دليل على عدم سابق، ولاعلى انقطاع طارئ(172).

5– بصير:

البصير بمعنى المبصر، ولكنه صُرِف إلى (فعيل)، وهو المدرك للمبصرات، وهو الحي الذي لاآفة به، فهو ممن يجب أن يبصر المبصرات إذا وُجدت(173)، أو أن البصير المدرك للأشخاص والألوان التي يدركها المخلوقون بأبصارهم، من غير أن يكون له جارحة العين، وذلك راجع إلى انه لايخفى عليه شيء، وإن كان غير موصوف بالحسب المركب في العين، كما أنه سبحانه ليس كالأعمى الذي لما لم تكن له هذه الحاسة، لم يكن أهلاً لإدراك شخص أو لون(174).

قال تعالى: ﴿قل أَؤُنَبِّئكم بخيرٍ من ذلكم للذين اتقوا عندَ ربِّهم جناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها وأزواجٌ مطهَّرةٌ ورضوانٌ من اللهِ والله بصيرٌ بالعباد﴾ آل عمران/15.

أي: بصير بالذين اتقوا، وبأحوالهم، فلذلك أعدَّ لهم الجنات(175). والمبالغة في (بصير) من حيث التكثير، لأن (العباد) متعلق بـ(بصير)، فقيّد دلالته على التكثير، ولم يؤكد التعقيب، لأنه في سياق أمر الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم-.

وقال تعالى: ﴿وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وماتُقدِّموا لأنفسِكم من خيرٍ تجدوه عندَ الله إنَّ الله بما تعملون بصير﴾ البقرة/110.

اي: لايخفى عليه شيء من أعمالكم، سيجازيكم على الإحسان بما تستحقونه من الثواب، وعلى الإساءة بما تستحقونه من العقاب(176). والمبالغة هنا من جهة زيادة الفعل، وتقدم المعمول (بما تعملون) على عامله (بصير) للتخصيص، حيث أن السياق يقتضي ذلك لأنه كان في الأعمال، كإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والخير المعد ليوم القيامة، وإن هنا، تفيد الربط والتوكيد.

6- خبير:

الخبير هو المتحقق لما يعلم، أي كالمستيقن من العباد، لأن الشك غير جائز على الله سبحانه، والشك ينزع إلى الجهل، وحاشا له من الجهل، ومعنى هذا أن العبد قد يوصف بعلم الشيء، إذا كان ذلك مما يوجبه أكثر رأيه، ولاسبيل إلى أكثر منه، وكان العبد يجيز الخطأ على نفسه في ذلك الشيء، والله -جل شأنه- لايوصف بمثل ذلك، لأن العجز غير جائز عليه. والإنسان إنما يؤتى من قبل القصور والعجز(177)، وتختص دلالة الخبير بعلم مايكون قبل أن يكون

(178). فيكون معنى المبالغة فيه من حيث زيادة الفعل على قدرة البشر على ذلك.

جاء الخبير في التعقيب على التراكيب الآتية:

- (والله بما تعملون خبير) - (والله خبير بما تعملون).

قال تعالى في خطاب المؤمنين: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا قيلَ لكم تَفَسَّحوا في المجالسِ فافْسَحوا يَفْسحِ اللهُ لكم وإذا قيل انشُزوا فانشُزوا يَرفعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمَ درجاتٍ واللهُ بما تعملون خبير﴾ المجادلة/11.

بتقديم المعمول (بما تعملون) على العامل (خبير)، وذلك لأن السياق في تشريع أمور مخصوصة، وهذا التشريع يقتضي الطاعة، وقد يمتنع عنها بعض الناس، فصارت المعصية أو الطاعة من نوع الأعمال التي يقوم بها المكلفون، فتقدم (بماتعملون) للاهتمام به في هذا السياق.

وقال الله تعالى بعدها: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسولَ فقدِّموا بينَ يدي نجواكم صدقةً ذلك خيرٌ لكم وأطهرُ فإنْ لم تجدوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم. أأشفقتم أنْ تقدِّموا بين يدي نجواكم صَدَقاتٍ فإذْ لم تفعلوا وتابَ اللهُ عليكم فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأطيعوا اللهَ ورسولَه واللهُ خبيرٌ بما تعملون﴾ المجادلة/12-13.

فتقدم العامل على المعمول أي (الخبير) على (بما تعملون)، لأن السياق في الإخبار عن الله تعالى:

- (إن الله كان بما تعملون خبيرا).

جاء هذا التركيب في تعقيب قضيتين، الأولى في مقام التشريع، وهي قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا ضَربتم في سبيلِ الله فتبيَّنوا ولاتقولوا لمن ألقى

إليكم السلامَ لستَ مؤمناً تبتغون عَرَضَ الحياةِ الدنيا فعندَ الله مغانمُ كثيرةٌ كذلك كُنتمْ من قبلُ فَمَنَّ اللهُ عليكم فتبيَّنوا إنَّ اللهَ كان بما تعملون خبيرا﴾ النساء/94.

وإن للتعليل، والقضية في خطاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ويلاحظ أن الدلالة الدقيقة للخبير، وهي اختصاصه بعلم ما لم يكن، يمكن تلمسها في القضايا التي عُقبت بالخبير مع الفعل المضارع الدال على الحاضر والمستقبل (تعملون).

- الخبير البصير:

جُمع الخبير والبصير في التعقيب بـ(ان) في أربعة مواضع:

1 - قوله تعالى: ﴿إنَّ ربَّك يبْسِطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويَقْدِرُ إنَّه كان بعبادهِ خبيراً بصيراً﴾ الإسراء/30.

والقضية إخبار عنه تعالى بأنه هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى: ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾. أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى، ومن يستحق الفقر(179).

2 - قوله تعالى: ﴿قلْ لو كان في الأرضِ ملائكةٌ يمشون مطمئنين لنزَّلنا عليهم من السماءِ مَلَكاً رسولاً. قلْ كفى بالله شهيداً بيني بينكم إنَّه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ الاسراء/95-96.

ومعنى التعقيب أنه تعالى عليم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة، ولهذا قال بعد ﴿ومَنْ يهدِ اللهُ فهو المهتدِ ومَنْ يضللْ فلن تجدَ لهم أولياءَ مِنْ دونه... ﴾ الإسراء/97.

3- قوله تعالى: ﴿والذي أوحينا إليك من الكتابِ هو الحقُّ مصدِّقاً لما بينَ يديهِ إنَّ الله بعبادِهِ لخبيرٌ بصيرٌ﴾ فاطر/31.

والخطاب موجّه إلى الرسول الكريم، والمعنى أن القرآن هو الحق، وهو مصدّق لما تقدّمه من الكتب، كما شهدت هي له بالتنويه، وأنه منزل من رب العالمين، ومعنى التعقيب أنه خبير بالعباد بصير بمن يستحق مايفضله به على من سواه، ولهذا فضّل الأنبياء والرسل على جميع الناس، وفضّل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد -صلى الله عليه وسلم- فوق جميعهم(180).

4- قوله تعالى: ﴿ولو بَسَطَ اللهُ الرزقَ لعبادهِ لبَغَوا في الأرضِ ولكنْ يُنزِّل بقَدَرٍ مايشاءُ إنّه بعبادِهِ خبيرٌ بصيرٌ﴾ الشورى/27.

ومعنى التعقيب أنه سبحانه يرزقهم من الرزق مايختاره، مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر(181).

وفي هذه التعقيبات الأمور الآتية:

- تقديم المعمول (بعباده) على عامله، وذلك لأن السياق في العباد في جميع القضايا.
- معنى (ان) التعليل. حيث بينت سبب الكلام المتقدم عليها، مثل هذا في القضية الأولى، إنه سبحانه، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، لأنه كان بعباده خبيراً بصيراً.

- جاءت (كان) في التعقيبين الأولين للدلالة على اتصافه سبحانه، بالخبير البصير في زمن ماضٍ مبهم، ليس فيه انقطاع. أي استمرار اتصافه بذلك من الماضي إلى الوقت الحاضر، وإلى المستقبل.
- جاءت اللام المؤكدة مع (ان) في (الخبير) في التعقيب الثالث، وإذا علمنا أن مجيئها يفيد زيادة التوكيد فإن سببه سياق الآيات المتقدمة، وقد كان السياق في بيان تفاوت الناس في تقبل الدعوة وفي الإيمان بها، فقال تعالى: ﴿ومايستوي الأعمى والبصيرُ. ولاالظلماتُ ولاالنورُ. ولا الظّلُ ولا الحَرَورُ. ومايستوي الأحياءُ ولاالأموات إنَّ الله يُسمعُ مَنْ يشاءُ ومأأنتَ بمسمعٍ مَنْ في القبور﴾ فاطر/19-22.

ثم قوله تعالى: ﴿وإنْ يكذّبوك فقد كذّبَ الذين من قبلهم ...﴾ فاطر/25.

ثم قوله تعالى: ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾ فجاء بتوكيد متصل بـ(خبير) لتوكيد ما اختصت به صفة (خبير) من علم مايكون. أي علم ما في المستقبل. ووجه التناسب أن التكذيب أو الإيمان بالقرآن معلوم لله سبحانه قبل أن يقع ويحصل. ولهذا جاء بعده قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادِنا فمنهم ظالمٌ لنفسِهِ ومنهم مُقْتصدٌ ومنهم سابقٌ للخيرات بإذنِ اللهِ ذلك هو الفضلُ الكبير﴾ فاطر/32.

فبيّن أحوال الناس، وتفاوتهم أمام الإيمان والكتاب.

- اجتماع الخبير والبصير في هذه المواضع وتقديم الخبير على البصير فيها، له علاقة بالقضايا. ويلاحظ أن لتلك القضايا علاقة بالمستقبل، ففي الأولى ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ في الحال والمستقبل من حيث الزمن. والتعقيب بالخبير مناسب لعلم مايكون في المستقبل، والبصير مناسب لعلم

مايكون الآن في الحال، وفي المستقبل. أي أنه سبحانه مدرك لما في المستقبل، ومدرك لما في الحال من غير جارحة، وكذلك الأمر في القضايا الباقية.

7- عالم وعلاّم وعليم:

العالم اسم فاعل من (علم) وهو من يدرك الأشياء على ماهي عليه(182). وقد جاء في قوله تعالى: ﴿قل إنْ أدري أقريبٌ ماتُوعَدون أمْ يجعل له ربي أمَداً. عالمُ الغيبِ فلايُظهِرُ على غيبِهِ أحداً﴾ الجن/26.

والتعقيب لقضية أمر الله سبحانه لرسوله الكريم بأن يقول أنه لايعلم موعد القيامة، فكان علىمعنى أن الله سبحانه هو عالم يعلم متى تكون القيامة(183).

أما العلام فهو صيغة مبالغة للعالم بأصناف المعلومات على تفاوتها، فهو يعلم الموجودن ويعلم ماهو كائن، وأنه ذا كان كيف يكون، ويعلم ماليس بكائن، وأنه لو كان كيف يكون(184).

الفرق بين (عالم الغيب) و(علام الغيوب) إن صيغة المبالغة تدل على تكرار الفعل مرة بعد مرة(185). بخلاف اسم الفاعل -ولهذا جاء بالغيب، وهو مفرد، مع عالم. وجاء بالغيوب، وهي جمع، مع علاّم(186).

أما العليم فهو صيغة مبالغة بمعنى المدرك لما يدركه المخلوقون بعقولهم وحواسهم، ومالو يستطيعون إدراكه، من غير أن يكون موصوفاً بعقل أو حس. وذلك راجع إلى أنه لايغيب عنه شيء، ولايعجزه إدراك شيء، كما يعجز عن ذلك من لاعقل له أو لاحسّ له من المخلوقين. ومعنى ذلك أنه لايشبههم ولايشبهونه(187). وهو في المبالغة يدل على تكرار الفعل حتى يُصبح كأنه خلقة وطبيعة(188). ومن هنا يأتي الفرق بينه وبين اسم الفاعل، ففي قوله تعالى: ﴿إنَّ

اللهَ عالمُ غيبِ السمواتِ والأرضِ إنّه عليمٌ بذاتِ الصدور﴾ فاطر/31، ورد التعقيب بـ(عليم) كالتعليل، لأنه إذا علم مافي الصدور، وهو أخفى مايكون فقد علم كل غيب في العالم(189). وهذا يدل على مبالغة الوصف في (عليم) وأنه أكثر مما هو عليه في (عالم).

في سورة النساء جاء التعقيب بالتوكيد مع (كان) مرة، وغير مؤكد خالياً من (كان) مرة أخرى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ولاتَتَمنوا مافضَّلَ اللهُ بهِ بَعْضَكم على بعضٍ للرجالِ نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساءِ نصيبٌ مّما اكتسبنَ واسألوا اللهَ من فضلِه إنَّ اللهَ كان بكلِّ شيءٍ عليما﴾ النساء/32.

وأفادت (ان) التعليل، إذ عللت وجه سؤال الله الفضل، وأفادت (كان) معنى: لم يزل. أي اتصافه سبحانه بالعلم، فيكون معنى التعقيب من خلال علاقته بالقضية: إن الله عليم بكل شيء، و لم يزل كذلك، فيعلم ماتظهرونه وماتضمرونه من الحسد(190).

وقال تعالى في قضية الكلالة التي سُئل عنها الرسول الكريم: ﴿يَسْتفتُونكَ قلِ اللهُ يُفتيكم في الكَلالةِ إنْ آمرؤ هَلَكَ ليسَ له ولدٌ وله أختٌ فلها نصفُ ماتركَ وهو يَرثها إنْ لم يكنْ لها ولدٌ فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثانِ مما ترك وإنْ كانوا إخوةً رجالاً ونساءً فللذكرِ مثلُ حظِّ الأنثيينِ يُبينُ اللهُ لكم أنْ تَضلّوا واللهُ بكلِّ شيءٍ عليم﴾ النساء/176.

فجاء التعقيب غير مؤكد وخالياً من (كان) فهو خبر ابتدائي. فائدته بيان كونه سبحانه عالماً بجميع مايحتاج إليه عباده من أمر معاشهم، ومعاجهم، على ماتوجبه الحكمة(191).

– عليم خبير:

في المواضع التي ائتلف فيها (عليم) و(خبير) نلاحظ مناسبة دلالة كل منهما مع القضية التي جمعا في تعقيبها. مع العلم أن بينهما فرقاً في الدلالة، فالعلم صفة تعم جميع المعلومات. والخبير صفة تختص بأن يعلم مايكون قبل أن يكون(192).

في قضية الاصلاح بين الزوجين قال تعالى: ﴿وإنْ خِفتم شِقاقَ بينهما فابعثوا حكماً من أهلهِ وحكماً من أهلها إنْ يُريدا اصلاحاً يُوفقِ الله بينهما إنَّ الله كان عليماً خبيراً﴾ النساء/35.

ومعنى (عليما) يتعلق بما يريد الحكمان من الاصلاح والإفساد. و(خبيرا) يتعلق بما فيه مصالحكم ومنافعكم(193).

وفي قضية مفاتيح الغيب التي استأثر تعالى بها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها(194). قال تعالى: ﴿إنَّ الله عنده علمُ الساعةِ ويُنزِّلُ الغيثَ ويعلمُ مافي الأرحامِ وماتدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وماتدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ﴾ لقمان/34.

فالله سبحانه (عليم) بهذه الأشياء علماً يعمها ويعم غيرها و(خبير) بها إذا كانت قبل أن تكون.

وفي قضية التفاضل في التقوى قال تعالى: ﴿ياأيها الناسُ إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم إنَّ الله عليم خبير﴾ الحجرات/13.

أي (عليم) بأعمالكم (خبير) بها قبل أن تكون.

– عليم حكيم:

الحكيم الذي لايقول، ولايفعل إلا الصواب. ووصف تعالى بذلك لأن أفعاله سديدة وصنعه متقن، ولايظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم.وهو بمعنى المحكم لخلق الأشياء صُرف عن (مفعل) إلى (فعيل) للمبالغة في الوصف ومعنى الأحكام لخلق الأشياء إنما ينصرف إلى اتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها(195).

وإذا كان العليم يعم جميع المعلومات، فإن الحكيم يختص بأن يعلم دقائق الأوصاف(196). لأن الفاعل للأشياء المتقنة المحكمة لايجوز أن يكون جاهلاً بها، فيكون (حكيم) على هذا التأويل مبالغة في الوصف بالعلم والحكمة(197).

اجتمع (العليم) و(الحكيم) بتقديم (العليم) في التراكيب الآتية:

- (والله عليم حكيم).
- (وكان الله عليما حكيما).
- (إن الله كان عليماً حكيماً).

وجاءت في سورة النساء، وهي تناسب القضايا التي أعقبتها، فقد قال تعالى: ﴿يريد اللهُ لِيُبيِّنَ لكم ويهديَكم سُنَنَ الذين من قبلكم ويتوبَ عليكم واللهُ عليمٌ حكيم﴾ النساء/26.

وردت الآية بعد فرض بعض من أحكام الحلال والحرام في الإسلام، فيكون معنى التعقيب أن الله سبحانه يريد أن يبين لكم -أيها المؤمنون- ماأُحل لكم، وماحرم عليكم مما تقدم ذكره، ويرشدكم إلى طرائق من سبقكم التي يحبها ويرضاها، ويتوب عليكم مما تقدم ذكره، ويرشدكم إلى طرائق من سبقكم التي يحبها ويرضاها، ويتوب عليكم من الإثم والمحارم، وأعقبها بقوله ﴿والله عليم حكيم﴾. أي:في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله(198). وعند التمعن في وجه

ارتباط التعقيب بالقضية نجد أن (عليم) يناسب (ليبين لكن)، لأن التبيين لايكـون إلا من (عليم)، فهو يبين دقـائق الأمـور الـتي تخـص التشـريع في الحـلال والحـرام لكماله في العلم، وأن (حكيم) يناسب ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم﴾ لأن حكمته اقتضت الهداية والتوبة فهو لايفعل إلا الصواب ممـا تقتضيـه المصلحة.

وقال تعالى: ﴿إنّمـا التوبـةُ علـى الله للذيـن يعملـون السـوءَ بجهالـةٍ ثـم يتوبـون مـن قريـبٍ فـاولئك يتـوب اللهُ عليهـم وكـان اللهُ عليمـاً حكيمـاً﴾ النساء/17.

بزيـادة (كـان)، والخـبر مـن الله، في هـذه الأشـياء، بالمـاضي كالخـبر بالاستقبال والحال. لأن الأشياء عند الله في حال واحـدة، مـامضى، ومـايكون، وماهو كائن. وأن وجه تناسب (عليم) مع القضية يتضح في أن الله سبحانه يعلم الذين يعملون السوء بجهالة أو بغيرها، ويعلم الذين يتوبون مـن قريـب أو غـيره. ووجه تناسب (حكيم) أنه يقبل توبة التائبين.

وقال تعالى في المواريث: ﴿يوصيكم اللهُ في أولادِكم للذكـرِ مثـلُ حـظِّ الأنثيين. فإنْ كـنَّ نسـاءً فـوق اثنتيـن فلهـن ثلثـا مـاترك وإنْ كـانت... آبـاؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيُّهـم أقـربُ لكـم نفعـاً فريضـةً مـن الله إنَّ الله كـان عليمـاً حكيما﴾ النساء/11.

وقوله (فريضة مـن الله) أي: هـذا الـذي ذكرنـاه، مـن تفصيـل الميراث وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض، هو فرض من الله حكـم بـه وقضـاه، وهـو الذي يضع الأشياء في محالها، ويعطي كلاً مايستحقه، ولهذا قـال: ﴿إن الله كـان عليماً حكيماً﴾(199). و(ان) هنا تعلل سبب الفرض، وتبين الوجه في فريضة الله

بأن ذلك سببه (إن الله كان عليماً حكيماً) أي: لم يزل عليماً بمصالحكم حكيماً فيما يحكم به عليكم في هذه الأموال وغيرها(200).

– حكيم عليم:

في المواضع التي يتقدم فيها (الحكيم) على (العليم)، ومنها قوله تعالى في قضية ابراهيم: ﴿وحاجَّهُ قومُهُ قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولاأخافُ ماتُشركون به إلاّ أنْ يشاءَ ربي شيئاً وسِعَ ربِّي كلَّ شيءٍ علماً أفلا تتذكَّرون. وكيف أخاف ماأشركتم ولاتخافون أنّكم أشركتم بالله مالم يُنزِّل به عليكم سلطاناً فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمنِ إنْ كنتم تعلمون. الذين آمنوا و لم يَلبِسوا أيمانَهم بظلمٍ أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون. وتلك حُجَّتُنا آتيناها ابراهيمَ على قومِهِ نرفعُ درجاتٍ منْ نشاءُ إنَّ ربَّك حكيمٌ عليم﴾ الأنعام/80–83.

نجد أن تقديم (حكيم) مناسب لتقديم الهداية (أتحاجوني في الله وقد هداني...) ثم جاء مايتعلق بـ(عليم) في (وسع ربي كل شيء علماً...) ثم قال تعالى: ﴿الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾، وهو يتعلق بالهداية أيضاً. ثم أجمل تعالى تلك الأمور ووصفها بالحجة التي أعطاها ابراهيم ﴿وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم..﴾ وهذا كله من الحكمة الإلهية، لذلك عقبها بتقديم (حكيم). أي (حكيم) في أقواله وأفعاله (عليم) بمن يهديه ومن يضله(201).

*

توكيد القلة:

يتألف هذا التركيب من نعتٍ منصوبٍ (قليلاً)، عامله الفعل الذي بعده، ومن (ما) الزائدة للتوكيد. وتقدير النصب أنه نعت لمصدر محذوف، أو لظرف محذوف(202). وجاء في التعقيب على تركيب واحد هو (قليلاً ما...).

قال تعالى: ﴿اتبعوا ماأُنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه من أولياء قليلاً ماتذكّرون﴾ الأعراف/3.

أي: تذكرون تذكراً قليلاً. وما مزيدة لتوكيد القلة(203). ولاشك في أن تقديم نعت المصدر (قليلاً) على عامله، أفاد تخصيص الدلالة بالقلة. ثم جاءت (ما) لتوكيدها، فصارت القلة في معنى العدم(204).

في سورة الحاقة ورد توكيد القلة لأمرين مختلفين. قال تعالى في حقيقة القرآن: ﴿إنّه لقولُ رسولٍ كريم. وماهو بقولِ شاعرٍ قليلاً ماتؤمنون. ولابقولِ كاهنٍ قليلاً ماتذكّرون﴾ الحاقة/40–42.

واختلف ماأراد الله توكيد قلته، وهو انعدام الإيمان في التعقيب الأول، وانعدام التذكر في التعقيب الثاني. وذلك لأن نفي الإيمان عنهم مناسب لما تقدمه، وهو ادعاؤهم القرآن شعراً. وهذا الادعاء يوهم الجاحد المتعامي عن النظر، فهو يتعلق بأدنى شبهة، يستريح إليها. فناسب هذا نفي الإيمان عنهم. أما نفي التذكر فقد ناسب ماتقدمه أيضاً، وهو ادعاؤهم القرآن سجع كاهن. وهذا الأمر لايحتاج إلى نظر كبير، ولااستعمال فكر طويل. بل يوصل إلى ذلك بأدنى التفات، فناسبه نفي التذكر(205).

وجاء توكيد القلة على تركيب واحد في مواضع مختلفة من القرآن، وهو ﴿قليلاً ماتشكرون﴾ وذلك في سياقات الإنعام الذي تفضل به الله تعالى، ففي

سورة الأعراف قال تعالى: ﴿ولقد مكنّاكم في الأرضِ وجعلنا لكم فيها معايشَ قليلاً ماتشكرون﴾ الأعراف/10.

أي: جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً ، ومايُعتاش به من المطاعم والمشارب وغيرها. أو مايتوصل به إلى ذلك(206).

وفي سورة المؤمنون قال تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلاً ماتشكرون﴾ المؤمنون/78.

وإنما خصَّ السمع والأبصار والأفئدة بالذكر، لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية مالا يتعلق بغيرها، ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم. ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها، وأن لايُجعل له ند ولاشريك(207).

وفي سورة السجدة قال تعالى: ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ وبدأ خلْقَ الإنسانِ من طين. ثم جعل نسْلَهُ من سُلالةٍ من ماءٍ مهين. ثم سوَّاه ونَفَخَ فيه من روحِهِ وجعلَ لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدة قليلاً ماتشكرون﴾ السجدة/7-9.

ومثله في سورة الملك: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجَعَلَ لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلاً ماتشكرون﴾ الملك/23.

*

الثناء:

الثناء قسمان: إثبات لصفات المدح مثل (تبارك)، ونفي وتنزيه عن صفات النقص مثل (سبحان)(208). وجاء الثناء بقسميه في التعقيب على الوجه الآتي:

– تبارك.

و(تبارك) تفاعل من البركة التي تكتسب وتنال بذكر الله، وهو فعل مختص بالله تعالى، لم يُنطق له بمضارع(209). قال تعالى: ﴿إنَّ ربَّكم اللهُ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في ستة أيامٍ ثم استوى العرش يُغشي الليلَ النهارَ يطلبُه حثيثاً والشمسُ والقمرُ والنجومُ مُسخَّراتٌ بأمرِهِ ألا له الخلْقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمين﴾ الأعراف/54.

معنى التعقيب: تعالى بالوحدانية فيما لم يزل ولايزال، فهو بمعنى تعالى بدوام الثبات(210)، في الخلق والأمر. ويلاحظ أن التعبير أسند البركة إلى الله سبحانه، ووصفه بأنه رب العالمين في التعقيب. وهذا مناسب للقضية التي نصت على خلقه السموات والأرض وأمره الكواكب وكذلك هو مناسب لاشتماله على كلمة (رب) التي تشير إلى (ربكم) في أول الآية.

ومثله قوله تعالى: ﴿اللهُ الذي جَعَلَ لكم الأرض قراراً والسماءَ بناءً وصوَّركم فأحسَنَ صورَكم ورَزَقكم من الطيباتِ ذالكُمُ اللهُ ربُّكم فتباركَ اللهُ ربُّ العالمين﴾ غافر/64.

– سبحان:

الأصل في (سبحان) أنه اسم يقوم مقام المصدر تسبيح، وقد استعمل في القرآن للدلالة على تنزيه الله سبحانه، وجاء في التعقيب على النحو الآتي:

– سبحانه:

قال تعالى: ﴿وقالوا اتّخذَ الله ولداً سبحانَهُ بل له مافي السموات والأرضِ كلٌ له قانتون﴾ البقرة/116.

وتنزيهه سبحانه هنا، بنفي الولد عنه، إذ له مافي السموات والأرض ملكاً. والولد لايكون ملكاً للأب، حيث أن البنوة والملك لايجتمعان، وفي التعقيب تنبيه على بطلان دعوى اليهود الذين قالوا: عزيز ابن الله، ودعوى نصارى نجران الذين قالوا: المسيح ابن الله، ودعوى مشركي العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله(711).

- سبحانه عما يشركون:

قال تعالى في اليهود والنصارى: ﴿اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دونِ اللهِ والمسيحَ ابن مريم وماأُمِروا إلا ليعبدوا الهاً واحداً لاإلهَ إلا هو سبحانه عما يُشركون﴾ التوبة/31.

والتنزيه هنا، عن الإشراك به واستبعاد له(212). وقيّد التنزيه بـ(عما يشركون) ليتناسب مع واقع إشراكهم الأحبار والرهبان والمسيح في الألوهية.

- سبحانه عما يصفون:

قال تعالى في المشركين: ﴿أم اتخذوا آلهةً من الأرضِ هم ينشرون. لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا فسبحانَ اللهِ ربِّ العرشِ عما يَصِفون﴾ الأنبياء/21-22.

والتنزيه عن وصف المشركين، وهو أنهم اتخذوا آلهة أصناماً من الأرض، وادعوا عليها أنها وحدها تنشر الموتى يوم البعث. فأبطل الله تعالى دعواهم بأن لو كان في الأرض والسماء غير الله لفسدتا، ثم عُقبت القضية بتنزيه الله عن أن

يكون له شريك على وفق ماوصفوا. و(رب العرش) يعني أنه رب أعظم المخلوقات، ومن قدر على أعظمها كان قادراً عل مادونها(213).

- تعالى:

قال تعالى في المشركين: ﴿أفحسِبتم أنّما خلقناكم عَبَثاً وأنّكم إلينا لاتُرجَعون. فتعالى الله المَلِكُ الحقُّ لاإلهَ إلا هو ربُّ العرشِ الكريم﴾ المؤمنون/115-116.

أفاد التعقيب تنزيه الله سبحانه، عما جاء في حسبان المشركين، من أن الله خلق الناس عبثاً، وأنهم لايرجعون إليه في الآخرة.

- سبحانه وتعالى عما يصفون:

وجاء التنزيه في مواضع أخرى باقتران (سبحانه) و(تعالى) على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاءَ الجنَّ وخَلَقهم وخَرَقوا له بنينَ وبناتٍ بغيرِ علمٍ سبحانَه وتعالى عما يصفون﴾ الأنعام/100.

إن اقتران صيغتي التنزيه أفاد نفي ماوصفوا، وهو أمران: أن الجن شركاء لله وقد خلقهم. وأن له بنين وبنات بغير حجة. فجاء التعقيب بصيغتين في مقابل دعوييهم.

- سبحانه وتعالى عما يقولون:

قال تعالى: ﴿أفأصْفاكم ربُّكم بالبنينَ واتخَذَ من الملائكة إناثاً إنّكم لتقولون قولاً عظيما. ولقد صرَّفنا في هذا القرآن لِيذّكروا ومايزيدُهم إلا نُفُورا. قل لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابتَغَوا إلى ذي العرشِ سبيلا. سبحانَه وتعالى عما يقولون عُلُواً كبيرا﴾ الإسراء/40-43.

والتنزيه عن أمرين أجملهما قوله (عما يقولون)، وقد قالوا: إن لهم البنين، ودرجتهم العليا في عرفهم. وأن لله الملائكة البنات، ودرجتهن الدنيا، فأضافوا إلى الله سبحانه ما لم يرضوه لأنفسهم، وجعلوا الملائكة، وهم أرفع خلق الله، أدونهم. ثم أنهم قالوا بوجود آلهة مع الله، فاجتمع لقولهم جهتان، ردهما التعقيب بالجمع بين صيغتي (سبحانه) و(تعالى).

– سبحانه وتعالى عمّا يشركون:

قال تعالى: ﴿ويَعبدونَ من دونِ اللهِ ما لايضرُّهم ولايَنْفعهم ويقولون هؤلاءِ شفعاؤنا عندَ اللهِ أتنبِّئون اللهَ بما لايعلمُ في السمواتِ ولافي الأرضِ سبحانَه وتعالى عما يشركون﴾ يونس/18.

إن صيغتي التنزيه في التعقيب تقابلان أمرين جاءا في القضية:

أولهما : أنهم عبدوا الأصنام، وهي لاتضرهم، ولاتنفعهم.

ثانيهما : أنهم ادعوا أنها شافعة لهم عند الله. أي أنهم يخبرون الله بما لايعلم من حسن عبادة الأصنام(214).

*

الجواب بـ(بلى):

(بلى) حرف جواب مختص بالنفي، فلا يقع إلا بعد نفي في اللفظ، أو في المعنى، وهو ردٌّ له سواء اقترنت به أداة الاستفهام أو لا(215). وقد جاء في التعقيب على النحو الآتي:

- بلى + الشرط.

قال تعالى: ﴿وقالوا لن تمسَّنا النارُ إلاّ أياماً معدودةً قلْ أتخذتم عندَ اللهِ عهداً فلن يُخلِفَ اللهُ عهدَهُ أمْ تقولونَ على اللهِ مالا تعلمون. بلى مَنْ كسَبَ سيئةً وأحاطت به خطيئاتُه فأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾البقرة/80-81.

معنى (بلى) إثبات لما بعد حرف النفي (لن). أي: بلى. تمسكم أبداً بدليل ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾(216). وهذا الموضع يخرج (بلى) عما جعلوه لها من الجواب. إذ ليس قبلها مايصح أن يكون سؤالاً. ولذلك قيل: اعلم أن هناك سؤالاً مقدراً، لفظه لفظ الجواب، ولكنه اختصر وطويَ ذكره علماً بالمعنى، فتكون (بلى) هنا، ليست جواباً لشيء قبلها. بل ماقبلها دال على ماهي جواب له. والتقدير: أليس من كسب سيئة وأحاطت به خطيئاته خالداً في النار، أو يخلد فيها. وجوابه الحق: بلى(217). وليس للشرط علاقة ببلى إلا من حيث اقترانه بجملتها.

- بلى + إنّ.

قال تعالى: ﴿أوَ لم يرَوا أنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السموات والأرضَ و لم يعيَ بخلقِهن بقادرٍ على أنْ يُحيي الموتى بلى إنَّه على كلِّ شيءٍ قدير﴾ الأحقاف/33.

أفادت (بلى) الجواب برد النفي، وقد سُبقت باستفهام، وقررت قدرة الله على كل شيء من البعث وغيره، لا لرؤيتهم(218). وجاءت (ان) للتوكيد بعدها، ومضى في أول القضية مجئ (ان) للتوكيد ﴿أو لم يروا أن الله....﴾ قبلها.

- بلى + وهو.

قال تعالى: ﴿أوَ ليسَ الذي خلَقَ السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أنْ يخلقَ مثلَهم بلى وهو الخلّاق العليم﴾ يس/81.

والاستفهام في القضية للتقدير. أي: من قدر على خلق السموات والأرض واختراعهما، مع عظمهما وكثرة أجزائهما، يقدر على إعادة خلق البشر، والتعقيب بـ(بلى) يعني أنه قادر على ذلك، وعطف عليها (هو الخلّاق العليم)، وفي العطف إشارة إلى الخلق، وقد تقدم ذكر الخلق في القضية، فأضفى العطف الانسجام على القضية والتعقيب.

*

الدعاء:

الدعاء شعبة من الأمر، لكنه من الأدنى إلى الأعلى، لطلب الفعل على سبيل التضرع(219)، ومنه قوله تعالى في قصة ابراهيم: ﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعلْ هذا البلد آمنا..﴾ وتعقيبها بدعائه أيضاً ﴿ربَّنا اغفرْ لي ولوالدي وللمؤمنين يومَ يقومُ الحساب﴾ ابراهيم/35–41.

وورد الدعاء في التعقيب على الشكل الآتي:

– ويل.

قال تعالى في اليهود: ﴿ومنهم أمِّيُّون لايعلمون الكتابَ إلا أمانيَّ وإنْ هم إلاّ يظنُّون. فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عندِ اللهِ ليْشتَروا به ثمناً قليلاً فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسِبون﴾ البقرة/78–79.

والتعقيب بـ(ويل) لإفادة التقبيح(220)، وهي في الأصل مصدر منصوب سد مسدَّ فعله، وعُدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه(221).

– لعنة الله.

قال تعالى في اليهود: ﴿وقالوا قلوبُنا غُلْفٌ بل لعنَهم اللهُ بكفرهم فقليلاً مايؤمنون. ولمّا جاءهم كتابٌ من عندِ اللهِ مصدِّقٌ لما معهم وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ماعَرَفوا كفروا به فلعنةُ اللهِ على الكافرين﴾ البقرة/88–89.

وفي التعقيب دعاء عليهم بلعنة الله، وهي إبعادهم عن رحمته تعالى. وكان ذكر (الكافرين) وضعاً للظاهر موضع المضمر للدلالة على أن اللعنة لحقتهم

لكفرهم واللام فيه للعهد(222). وهذا ينسجم مع سياق المعنى، إذ هم المخصوصون به لكفرهم، وقد سبق قوله تعالى: ﴿لعنهم الله بكفرهم﴾ و﴿كفروا به﴾ في القضية. وجاء التعقيب تحقيقاً لوقوع اللعنة عليهم فنصَّ على ذكر صفتهم تلك.

- سحقاً وبعداً.

قال تعالى: ﴿وللذين كفروا بربهم عذابُ جهنَّمَ وبئسَ المصيرُ. إذا أُلقُوا فيها سمِعوا لها شَهيقاً وهي تفور. تكاد تَميَّزُ من الغيظِ كلما أُلقِيَ فيها فوجٌ سألهم خزنتُها ألمْ يأتِكم نذير. قالوا بلى قد جاءَنا نذيرٌ فكذَّبنا وقلنا مانَزَّل الله من شيءٍ إنْ أنتم إلاّ في ضلالٍ كبير. وقالوا لو كنّا نسمَع أو نعقِل ماكنّا في أصحاب السعير. فاعترفوا بذنوبهم فسُحْقاً لأصحابِ السعير﴾ الملك/6-11.

والتعقيب دعاء عليهم. أي: اسحقهم الله وأبعدهم من النجاة سحقاً، وهو مصدر محذوف الفعل، وجاء على غير لفظه. إذ أن لفظه (اسحاقاً)(223).

ومثله قوله تعالى: ﴿... فبعداً للقوم الظالمين﴾ المؤمنون/41. و﴿...فبعداً لقوم لايؤمنون﴾ المؤمنون/44.

إلا أن بين هذين التركيبين اختلافاً من حيث تعريف المجرور باللام وتنكيره نعرض له على الشكل الآتي:

- بعداً + القوم الظالمين.

ورد هذا التركيب في تعقيب قضية رسول أُرسل بعد نوح. والمعروف أن الذي أرسل بعد نوح هو إما هود، وقد أرسل إلى عاد. وإما صالح وقد أرسل إلى ثمود(224).

وجاء في القضية أنه أرسل إليهم ليعبدوا الله، وقد كذبه الملأ من قومه بدعوى أنه بشر مثلهم، وإذا أطاعوه فإنهم سيخسرون، لأنه يدعوهم إلى الإيمان بالبعث، وهم لايعتقدون إلا بالحياة الدنيا، فدعا ربه أن ينصره عليهم بسبب تكذيبهم، فأخذهم العذاب بالصيحة، وعقبت القضية بقوله تعالى: ﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾ بتعريف القوم ووصفهم بالظلم، وذلك لأنهم صاروا بمنزلة المعرفة. بسبب الدلائل التي أقامتها القضية على تعريفهم، وبسبب الاطناب في تفصيل قصتهم وبأمر الرسول وتكذيبهم وبسرد دعواهم وبوعيدهم وجزائهم.

- فبعداً + لقومٍ لايؤمنون.

ورد هذا التركيب في تعقيب قضية أخرى، جاءت موجزة بعد القضية السالفة قال تعالى: ﴿ثم أنشأْنا من بعدِهم قُروناً آخرين. ماتسبقُ مِنْ أمَّةٍ أجلَها ومايستأخرون. ثم أرسلنا رُسُلَنا تَتْرا كلَّما جاءَ أُمَّةً رسولُها كذَّبوه فأتْبعنا بعضَهم بعضاً وجعلناهم أحاديثَ فبعداً لقومٍ لايؤمنون﴾ المؤمنون/42-44.

والقضية موجزة هنا، تلمح إلى إرسال أكثر من رسول إلى أكثر من أمة، ولاتسرد تفاصيل قصة كل رسول، كما فعلت القضية الماضية، وإنما هي تحمل قصصاً كثيرة. وتجمعها على أمر مشترك، وهو تكذيب الرسل، وإهلاك الأمم وجعلهم أحاديث. وجاء التعقيب بتنكير (قوم) ووصفهم بأنهم (لايؤمنون) على نسق إيجاز الإشارة إلى الرسل والأمم. فتناسب الاتيان بالمعرفة مع تفصيل القضية، وبالنكرة مع إيجازها.

- قاتلهم الله.

قال تعالى: ﴿وقالت اليهودُ عزيزٌ ابنُ اللهِ وقالت النصارى المسيحُ ابنُ اللهِ ذلك قولُهم بأفواههم يضاهئون قولَ الذينَ كفروا من قبلُ قاتَلهم اللهُ أنّى يُؤْفِكون﴾ التوبة/30.

معنى التعقيب: لعنهم الله. وأصل المقاتلة من القتل، فإذا أُخبر عن الله بها كانت بمعنى اللعنة. وذلك لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك(225).

ومثله قوله تعالى: ﴿فقُتِل كيف قدّر﴾ المدثر/19.

الذم بـ(بئس):

في الذم بـ(بئس) دلالة بخلاف دلالة (نعم)، ولكن طريقة الذم مثل طريقة المدح، والمراد بالذم في: بئس الرجل زيد. إنك جعلته فوق جنسه فيما يوجب النقيصة والذم(226). وقد ورد الذم في التعقيب على الوجه الآتي:

- بئس + الفاعل.

قال تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستُغلَبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ آل عمران/12. ومخصوص الذم محذوف، وهو مامهدوا لأنفسهم(227).

- لام الابتداء + بئس.

قال تعالى في صفة المنافقين: ﴿ومِنَ الناس مَنْ يُعجبكَ قولُه في الحياةِ الدنيا ويشهدُ الله على مافي قلبهِ وهو ألدُّ الخِصام. وإذا تولّى سعى في الأرض لِيُفسدَ فيها ويُهلِكَ الحرث والنسلَ والله لايُحبُّ الفسادَ. وإذا قيل له اتّقِ الله أخذتْه العزةُ بالإثمِ فحسبُهُ جهنّم ولبئسَ المهاد﴾ البقرة/ 204-206.

واللام دلت على توكيد ذم قرار المنافقين، ومخصوص الذم محذوف تقديره: جهنم، لتقدم ذكره. وسُميت جهنم مهاداً، لأنها بدل منه، وهو الموضع الذي يتمهد فيه. اي: ينام فيه مثل الفراش(228).

- تكرار (بئس).

قال تعالى: ﴿ومن الناس مَنْ يَعبدُ الله على حرفٍ فإنْ أصابه خيرٌ اطمأنَّ به وإنْ أصابته فتنةٌ انقلبَ على وجههِ خسِرَ الدنيا والآخرةَ ذلك هو الخسرانُ المبين. يدعو من دونِ اللهِ مالايضرُّهُ ومالاينفعُهُ ذلك هو الضلالُ البعيد. يدعو لمن ضرَّهُ أقربُ من نفعِه لبئسَ المولى ولبئسَ المصير﴾ الحج/11-13.

ومن معاني المولى الناصر والعشير والصاحب(229). ومخصوص الـذم في كل منهما، محذوف لدلالة ماتقدم عليه، وإذا كان طريق الذم كطريق المدح مـن حيث الـتركيب، فإن دلالتيهما على طرفي نقيض، وقـد استخدمهما القـرآن استخداماً يبين أمرين:

أولهما: الدلالة الموضعية لكل منهما.

ثانيهما: الدلالة المستخلصة من اقتران الدلالتين المتناقضتين في التعقيبين، مما سُـمّي بالمشاكلة. وهذا مايتضح في قضية النار وتعقيبها في قوله تعالى: ﴿وقل الحـقُّ مـن ربّكم فمَنْ شاءَ فليؤمنْ ومن شاءَ فليكفـرْ إنّـا أعتدنـا للظلمـين نـاراً أحـاط بهـم سرادقُها وإنْ يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهْلِ يَشوي الوجوهَ بئـس الشـرابُ وسـاءت مرتفقا﴾ الكهف/29.

فقد عقّبت القضية بـذم شـرابهم، وهـو المـاء كـالمهل ومرتفقهـم، وهـو المتكأ من المرفق، وجاءت بعدها قضيـة جنـات عدن. فقـال تعـالى: ﴿إنَّ الذيـن آمنوا وعملوا الصالحاتِ إنّا لانضيعُ أجرَ مَنْ أحسـنَ عمـلاً. أولئـك لهـم جنـاتُ عدن تجري من تحتها الأنهارُ يُحلّون فيها مـن أسـاورَ مـن ذهـبٍ ويلبَسـون ثيابـاً خُضْراً من سندسٍ واستبرقٍ متكئـين فيهـا على الأرائـكِ نِعْـمَ الثـوابُ وحسُـنت مرتفقا﴾ الكهف/30-31.

وقد عقبت القضية بمدح ثوابهم، وهو جنات عدن. والتعقيبان على نمط تركيبي واحد، من حيث التماثل في زنة الكلمات، وتمـاثل الأصـوات، كالبـاء في (الشراب) و(الثواب) والتـاء في (سـاءت) و(حسـنت) وتكـرار (مرتفقـا) وتغير معناه في كل موضع.

*

الردع والزجر بـ(كلا):

الأصل في دلالة (كلا) أنها حرف ردع وزجر، وقد تؤول بمعنى (حقاً) فتكون قريبة من (الا) الاستفتاحية، وتساوي معنى (إي) في الاستعمال(230)، ويرجع الاختلاف في دلالتها إلى موضعها من لكلام، حيث تكون لرد ماقبلها أو لرد مابعدها(231). وجاءت في التعقيب على التراكيب الآتية:

- كلا + ان.

قال تعالى مخاطباً النبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وأمَّا من جاءَك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تَلَّهى. كلاَّ إنَّها تذكرة﴾ عبس/8-11.

ودلت على الردع عن المعاتب عليه،وعن معاودة مثله، مع توكيد أن آيات القرآن تذكير وموعظة للخلق(232).

- كلا + بل.

قال تعالى في الإنسان: ﴿فأمّا الإنسانُ إذا ماابتلاه ربُّهُ فأكرمَه ونعَّمهُ فيقولُ ربِّي أكرمنِ. وأما إذا ماابتلاه فقَدَر عليه رزقَهُ فيقولُ ربِّي أهاننِ. كلا بل لاتُكرمون اليتيم. ولاتحاضُّون على طعامِ المسكين. وتأكلون التُراثَ أكلاً لَمّا. وتُحبُّون المالَ حُبّاً جَمّا﴾ الفجر/15-20.

والتعقيب بـ(كلا) يدل على ردع الإنسان عن قوله ذاك مقروناً بالاضراب عنه. أي: هناك شر من قوله، وهو أن الله يكرمهم بكثرة المال، فلا يؤدون مايلزمهم فيه، من إكرام اليتيم بالتفقد وحض الأهل على طعام المسكين. بل هم يأكلونه أكل الأنعام، ويحبونه، فيشحون فيه(233).

- كلا + إذا.

قال تعالى: ﴿كلا بل لاتُكرمون اليتيم. لاتحاضُّون على طعـام المسـكين. وتأكلون التراث أكلاً لماً. وتُحبون المال حبـاً جمـاً. كـلاَّ إذا دُكَّـتِ الأرضُ دكـاً دكّاً. وجاء ربُّك والملكُ صفاً صفاً...﴾ الفجر/17-22.

هـذه القضيـة جـاءت بعـد القضيـة الماضيـة، وعُقبـت بـ(كـلا) المقترنـة بالشرط، لردعهم عن فعلهم، وهو عدم إكرام الضيف وإطعام المسـكين وأكلهـم الحـرام. وجـاء الشـرط يبـين أنهـم يتحسـرون علـى أفعـالهم هـذه يـوم لاتنفـع الحسرة(234).

- كلا + القسم.

قال تعالى: ﴿ويلٌ لكلِّ هُمَزةٍ لُمَزَة. الذي جمعَ مالاً وعدَّده. يَحْسَـبُ أنَّ مالَه أخلده. كلاَّ لَيُنْبَذنَّ في الحطمة ﴾ الهمزة/1-4.

أفـادت (كـلا) معنـى رد الحسـاب الآنـف(235). أي أن المـال لايخلـد ولايبقى لصاحبه، وابتدأ القسـم دلالـة أخـرى، لهـا صلـة بـالمعنى المـاضي. وهـو القذف بالهمزة اللمزة، وطرحه في جهنم. وجاء بهـا علـى اسـم الحطمـة، لأنهـا تحطم العظام، وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب(236).

- كلا مكررة مرتين.

يفيد تكرار (كلا) التوكيد كسائر المؤكدات المكررة، وقد جاء منه قوله تعالى: ﴿عمَّ يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلاَّ سيعلمون. ثم كلا سيعلمون﴾ النبأ/1-5.

وفي هذا التعقيـب (كـلا)، وهـي ردع للمتسـائلين استهزاءً، ومابعدهـا وعيد لهم، بأنهم سوف يعلمون أن مايتساءلون عنه، ويضحكون منه حـق. لأنـه واقع لاريب فيه، وقد كرر الردع مع الوعيد للتشديد في ذلك(237).

ومثله قوله تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر. كلاّ سوفَ تعلمون. ثُمَّ سوف تعلمون﴾ التكاثر/1-4.

وفي التعقيب تكرار، وهو تأكيد للردع والإنذار عليهم(238). ولكن دلالة الاستقبال تختلف في كل من التعقيبين. وإلا لأمكن وضع السين مكان سوف. وهذا محال في لغة القرآن التي تنزّل كل حرف فيها منزلة.

والذي يبدو في وجه مجيء السين أو سوف كلاً في موضعه، أن الاختلاف بينهما من حيث المقام، لامن حيث القضية، إذ أنهما في وعيد الكافرين في السورتين. والمراد بالمقام أثر السياق إطناباً أو إيجازاً، فقد يكون المقام مقام إطالة فيؤتى بـ(سوف). أو مقام إيجاز فيؤتى بالسين. وذلك لزيادة حروف الأولى على الثانية(239).

وأن مقام الكلام في سورة النبأ الإيجاز في الوعيد، لأن السورة لم تفصل في القضية والتعقيب: وصف الوعيد، وإنما ذكرته موجزاً في التعقيب فحسب، أما في سورة التكاثر فقد كان التفصيل في الوعيد في الآيات اللاحقة، حيث قال تعالى: ﴿كلاّ لو تعلمون علمْ اليقين. لَتَرَوُنَّ الجحيم. ثم لَتَرَوُنّها عينَ اليقين. ثم لَتُسألُنَّ يومئذٍ عن النعيم﴾ التكاثر/5-8.

إن ملاحظة استعمال (كلا) في سياق واحد يعين على تبيّن معانيها، إذ أن هذه المعاني مرهونة بمواضعها. وقد تكررت (كلا) في صدر سورة المطففين باستعمالات مختلفة وهي توضح لنا مانريد. فالقضية الأولى في السورة هي الدعاء بالويل (الهلاك) على المطففين، وتذكيرهم بالبعث والحساب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ويل للمطفّفين. الذين إذا اكتالوا على الناس سيتوفون. وإذا كالوهم أو

وزنوهم يُخسِرون. ألا يظنُّ أولئك أنّهم مبعوثون. ليومٍ عظيم. يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين. كلا إنَّ كتابَ الفجار لفي سِجِّين﴾ المطففين/1-7.

وفي التعقيب أمران:

الأول: ردعهم عما كانوا فيه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب.

الثاني: تنبيههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه، ويندم عليه(240).

وجاء معنى التنبيه من تضمن (كلا) معنى (حقاً) أو (الا)، حيث يُفهم من الابتداء بها تحقيق مابعدها، ومابعدها قوله تعالى: ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾. أي أن ماكتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان، وفي هذا المعنى وعيد لهم عما يأتونه من قبيح الأعمال في الدنيا، وكذلك ردع لهم عن إتيانه.

القضية الثانية في السورة هي الدعاء بالويل على المكذبين بيوم القيامة. قال تعالى: ﴿ويل يومئذٍ للمكذّبين. الذين يكذّبون بيوم الدين. ومايكذّبُ به إلا كلُّ مُعْتدٍ أثيم. إذا تُتلى عله آياتُنا قالَ أساطيرُ الأولين. كلاّ بل رانَ على قلوبِهم ماكانوا يكسبون. كلا إنّهم عن ربِّهم يومئذ لمحجوبون﴾ المطففين/10-15.

وأفادت (كلا) ردع المعتدي الأثيم عن قوله (أساطير الأولين)(241). وهي تقتصر على معنى الردع دون التنبيه أو الاستفتاح. حيث تكفلت (بل) بالمعنى الجديد، وهو (ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون). أي: ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها، وهو أن يصرَّ على الكبائر، ويسوّف التوبة حتى يطبع على قلبه، فلا يقبل الخير، ولايميل إليه(242). ثم كان التعقيب الثاني (كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون) يؤدي وظيفة التأكيد على انهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون.

أما قوله تعالى: ﴿كلا إنَّ كتاب الأبرار لفي عِلّيين﴾ المطففين/18. **فهو** تعقيب آخر لقضية التكذيب الواردة في صدر السورة. أي: ردع عن التكذيب(243). وفيه مثل ما في قوله تعالى: ﴿كلا إن الفجار لفي سجين﴾ ولكن دلالته تختلف من حيث الوعد الوعيد.

الشرط:

الشرط، كما هو معروف، تركيب من أداة وجملتين، تسمى الأولى شرطاً، والثانية خبراً أو جواباً، والأصل فيه أن يتوقف الجزاء على الشرط، ولايتعلق إلا بالمستقبل(244). وله حروف وأسماء وردت في التعقيب، فمن الحروف:

- إنْ.

إن الشرطية هي أم أدوات الشرط(245). وذلك لأنها تدل على معنى الشرط المحض، بخلاف غيرها، حيث يتركب من معنى إن وزيادة معه(246). ورد منها في التعقيب مايأتي:

- إن + فعل الشرط + جواب الشرط المؤكد بأن.

قال تعالى في القتال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتَعْتدوا إنَّ الله لايُحبُّ المعتدين. واقتلوهم حيثُ ثَقِفْتموهم واخرجوهم من حيثُ أخرجوكم والفتنةُ أشدُّ من القتل ولاتقاتلوهم عندَ المسجدِ الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإنْ قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاءُ الكافرين. فإنْ انتهوا فإنَّ الله غفورٌ رحيم﴾ البقرة/190-192.

الفعل الماضي (انتهوا) بمعنى (ينتهوا) المستقبل المعنى، وتوكيد الجواب بأن يدل على إثبات المغفرة والرحمة لله جل شأنه. ونفي الشك في ذلك، وفي التعقيب كله إيجاز لدلالة ماتقدم من الشرط(247).

- إن + فعل الشرط + جواب الشرط المؤكد بأن + اللام في خبرها.

قال تعالى في قصة موسى: ﴿وإذ تَأذَّنَ ربّكم لئن شكرتم لأزيدَنّكم ولئنْ كفرتم إنَّ عذابي لشديد. وقال موسى إنْ تكفروا أنتم ومَنْ في الأرض جميعاً فإنَّ الله لغني حميد﴾. ابراهيم/7–8.

ومجيء الجواب مؤكداً بأن واللام يعني أن الجملة مؤكدة ثلاث مرات، لأن (إن) أفادت التكرير مرتين، فإذا دخلت اللام صارت ثلاثا(248). هذا التأكيد في مقابل الكفر المذكور في جملة الشرط حيث تأكد بانفصال الضمير (أنتم) و(من) التي تدل على العموم وكلمة (جميعاً).

– إن + فعل الشرط + جواب الشرط فعل أمر.

قال تعالى: ﴿وإنْ كنتم في ريبٍ مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثلِه وادعوا شهداءكم من دونِ اللهِ إنْ كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وَقودُها الناسُ والحجارة أعدَّتْ للكافرين﴾ البقرة/23–24.

التعقيب (فإن لم تفعلوا ...) وفيه جواب الشرط فعل أمر. وهذا الفعل كناية عن ترك العناد وإنكار النبوة، فكأن المعنى: أن استبنتم العجز فاتركوا العناد. فوضع (فاتقوا النار) موضعه، لأن اتقاء النار لصيقة وضميمة ترك العناد من حيث أنه من نتائجه، لأن من اتقى النار ترك المعاندة(249).

قال تعالى: ﴿قل أغيرَ اللهِ أتَّخِذُ ولياً فاطرِ السمواتِ والأرضِ وهو يُطعِم ولايُطعَم... من يُصرَف عنه يومئذٍ فقد رحمه وذلك الفوز المبين﴾ ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بضرٍّ فلا كاشفَ له إلاّ هو وإنْ يَمْسَسْكَ بخيرٍ فهو على كل شيءٍ قدير﴾ الأنعام/14–17.

والشرط في التعقيب نوعان: نوع جوابه جملة (فلا كاشف له إلا هو....) ونوع جوابه (فهو على كل شيء قدير). والشرط الثاني تمام التعقيب، وجوابه يعني أنه سبحانه قادر على إدامة الخير أو إزالته(250).

- إن + ما + فعل الشرط + جواب الشرط جملة شرطية.

قال تعالى في قضية خلق آدم: ﴿وإذ قالَ ربُّك للملائكةِ إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً ... قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينَّكم مني هدى فمَنْ تبِعَ هداي فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والذين كفروا أو كذّبوا بآياتنا أولئك أُصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ البقرة/30-39.

في هذا التعقيب دخلت (ما) على (إن) وهو أبلغ في الشرط من (إن)، ولذلك أردف المضارع المتصل بنون التوكيد، وهي تفيد التوكيد(251). وجواب الشرط يحتوي على جملة شرط أداته (من) هي (فمن تبع هداي...) وفيه استعمال (تبع). وجاء في سورة طه قوله تعالى: ﴿.... فأما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولايشقى﴾ طه/123.

وفيه استعمال (اتّبع)، قيل في وجه استعمال كل من الفعلين إنما اختار في سورة طه (اتبع) موافقة لقوله تعالى فيها ﴿يومئذٍ يتّبعون الداعي لا عوج له وخشّعت الأبصار للرحمن﴾ طه/108(252). وقيل: إن (تبع) على صيغة (فعِل) بكسر العين، وهو الأصل، وأما (اتبع)، فهو على صيغة (افتعل)، وهو فرع، لأنه يزيد عليه، وهو منبئ بزيادة في معنى (فعل) بمقتضى التضعيف، فعلى هذا تقدم الأصل على الفرع في ترتيب السور في المصحف.(253)

ومن الأسماء:

- مَنْ:

جاءت (من) الشرطية في التعقيب في غير التراكيب الماضية على الوجه الآتي:

- من + فعل الشرط المضارع + جواب الشرط المضارع.

قال تعالى في النهي عن الدفاع عن أهل الخيانة: ﴿ولاتجادلْ عن الذين يختانون أنفسَهم إنَّ الله لايُحبُّ مَنْ كان خوّاناً أثيما .. ومَنْ يعملْ سوءاً أو يَظلِمْ نفسَهُ ثم يستغفرِ اللهَ يَجدِ اللهَ غفوراً رحيماً﴾ النساء/107-110.

هذا التركيب جارٍ على الأصل في الشرط، فهو يتعلق بالمستقبل، وأفعاله متتالية في الجزاء، فالذي يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يطلب المغفرة من الله سبحانه يجد الله غفوراً رحيماً. وقد تعلق الجزاء بالشرط فلا فاء بينهما.

- من + فعل الشرط المضارع + (قد) في جواب الشرط.

قال تعالى: ﴿اليومَ أُحلَّ لكم الطيِّباتُ وطعامُ الذين أُوتوا الكتابَ حِلٌّ لكم وطعامُكم حِلٌّ لهم والمحصَناتُ من المؤمنات من الذين أُوتوا الكتابَ من قبلِكم إذا آتيتموهن أجورَهن مُحصِنِين غيرَ مسافحين ولامتخذي أخدانٍ ومَنْ يكفرْ بالإيمان فقد حَبِطَ عملُهُ وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ المائدة/5.

وجواب الشرط بالماضي المسبوق بـ(قد)، على إيقاع الماضي موقع المستقبل.(254)

أي: يحبط عمله. بدليل قوله: ﴿وهو في الآخرة..﴾ وإنما تحبط الأعمال بأن لايستحق عليها ثواب.(255)

- من + فعل الشرط المضارع + فعل الجواب الماضي للذم.

قال تعالى: ﴿والذين يُنفِقون أموالَهم رِئاءَ الناسِ ولايؤمنون باللهِ ولاباليومِ الآخرِ ومَنْ يكنِ الشيطانُ له قريناً فساءَ قريناً﴾ النساء/38.

جواب الشرط (ساء) الدال على الذم، وتقدير جملته: ساء قريناً ذلك القرين. على حذف مخصوص الذم.أي: بئس القرين الشيطان.(256) وهو وعيد لهم بذلك.(257)

– من + فعل الشرط المضارع المنفي + جواب الشرط اسم الإشارة + ضمير الفصل.

قال تعالى: ﴿وإذْ أخذَ اللهُ ميثاقَ النبيين لَما آتيتُكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءَكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لَتُؤْمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. فمن تولّى بعدَ ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ آل عمران/81–82.

جواب الشرط باسم الإشارة يدل على الإيذان بأن مايرد بعده يعود على ماقبله. أو هو هو على حد سواء. وضمير الفصل (هم) للتوكيد على أن فائدة المسند، وهو (الفاسقون)، ثابتة للمسند إليه دون غيره. والفاسقون هم التمردون من الكفار(258). فهم الخارجون في الكفر إلى أفحش مراتبه،(259) لهذا لم يقل: هم الكافرون.

*

المدح بـ(نعم):

في المدح بـ(نعم) دلالة لاتتوافر في طرائق المدح الأخرى، تلك هي أن فاعل (نعم) يستغرق الجنس كله، ففي قولنا: نعم الرجل زيدٌ. لاتريد رجلاً دون رجل، وإنما تقصد الرجل على الإطلاق. فالألف واللام لإفادة الشيوع على حد الجنس(260). وجاء المدح في التعقيب على الوجه الآتي:

- نعم + الفاعل.

قال تعالى: ﴿واذكر عبدَنا أيوبَ إذ نادى ربَّه أنّي مسَّني الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب. اركض برجلِك هذا مُغْتسلٌ باردٌ وشراب. ووَهَبْنا له أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً منّا وذكرى لأولي الألباب. وخُذْ بيدِك ضِغْثاً فاضربْ به ولاتَحْنَثْ إنّا وجدناه صابراً نِعمَ العبدُ إنّه أوّاب﴾ ص/41-44. ومخصوص المدح أيوب، وهو محذوف لتقدم ذكره(261).

ومثله قوله تعالى: ﴿أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربِّهم وجناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها ونِعْمَ أجرُ العاملين﴾ آل عمران/136.

وقوله تعالى: ﴿لَنبوئنَّهم من الجنةِ غُرُفاً تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها نِعْمَ أجرُ العاملين﴾ العنكبوت/58.

وردت جملة المدح في آل عمران، معطوفة على نسق جمل الجزاء المعطوفات بعضهن على بعض. أما جملة المدح في العنكبوت فلم تكن جمل الجزاء معطوفات فجاءت مثلهن بلا عاطف. وذلك ليتناسب النظم في كل موضع(262).

- لام الابتداء + نعم.

قال تعالى: ﴿وقيل للذين اتقوا ماأنزلَ ربُّكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حَسَنةٌ ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ ولَنعمَ دارُ المتقين﴾ النحل/30.

اللام للتوكيد، ومخصوص المدح محذوف لتقدّم ذكره، وهو دار الآخرة(263). إن توكيد جملة المدح متناسق مع توكيد ماقبلها، وهو (ولدار الآخرة خير)، والاثنان في سياق واحد، وهو توكيد أمر مستقبل.

– تكرار (نعم).

قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لاتكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله فإنْ انتهوا فإنَّ الله بما يعملون بصير. وإنْ تَولَّوا فاعلموا أنَّ الله مولاكم نعمَ المولى ونعمَ النصير﴾ الأنفال/39–40.

تكرار (نعم) أفاد تخصيص المدح بأنه سبحانه (المولى)، وهو السيد الحافظ، وبأنه سبحانه (النصير).

*

النفي:

إذا كان الكلام اثباتاً أو نفياً. فإن النفي شطر الكلام، والمنفي ماولي حرف النفي(264). وللنفي حروف، ورد منها في التعقيب مايأتي:

1- ما:

ولها صدر الكلام، وتدخل على الأسماء، والأفعال،وتدخل على الماضي بمعنى (لم)، وعلى المضارع لنفي الحال بمعنى (لا)(265). وجاءت في التعقيب.

قال تعالى: ﴿ولقد كذَّبَ أصحاب الحجرِ المرسلين. وآتيناهم آياتِنا فكانوا عنها مُعْرضين. وكانو ينحِتون من الجبال بيوتاً آمنين. فأخذَتْهم الصيحةُ مُصْبِحين. فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون﴾ الحجر/80-84.

في القضية إنهم كانوا آمنين من عذاب الله، يحسبون أن الجبال تحميهم منه، وفي التعقيب نفي ذلك وغيره، من بناء البيوت وجمع الأموال والعدد(266). ومعنى (ماأغنى): لم يغنهم(267).

وقال تعالى في اليهود: ﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مُخرِجُ ماكنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضِها كذلك يُحيي الله الموتى ويُريكم آياتِه لعلكم تعقِلون. ثم قَسَتْ قلوبُكم من بعد ذلك فهي كالحجارةِ أو أشدُّ قسوةً وإنَّ من الحجارة لَمَا يتفجرُ منه الأنهارُ وإنَّ منها لما يشَّقَّقُ فيخرجُ منه الماءُ وإنَّ منها لما يهبِطُ من خَشيةِ اللهِ وماالله بغافلٍ عما تعملون﴾ البقرة/72-73.

وتفيد الباء في خبر (ما) تأكيد النفي، نفي الغفلة والسهو عن الله سبحانه في سياق تذكير بني اسرائيل بما فعلوا.

2 – لا:

وهي تنفي المضارع، فتخلصه للاستقبال في الغالب(268). قال تعالى: ﴿ووُضِعَ الكتابُ فترى المجرمين مُشْفقين ممّا فيه ويقولون ياويلتَنا ماهذا الكتابِ لايُغادرُ صغيرةً ولاكبيرةً إلاّ أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضراً ولايظلِمُ ربُّك أحداً﴾ الكهف/49.

والتعقيب بنفي الظلم عن الله سبحانه، وجاء بلا التي تفيد نفي المستقبل.

وقال تعالى: ﴿قل ياأيها الذين هادوا إنْ زعمتم أنّكم أولياءُ الله من دونِ الناسِ فتمنُّوا الموتَ إنْ كنتم صادقين. ولايتمنُّونه أبداً بما قدمتْ أيديهم والله عليمٌ بالظالمين﴾ الجمعة/6–7، فجاء النفي بـ(لا).

وقال تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ عند اللهِ خالصةً من دونِ الناسِ فتمنُّوا الموتَ إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليمٌ بالظالمين﴾ البقرة/94–95، فجاء النفي بـ(لن).

سبب اختلاف حرفي النفي أن النفي في سورة البقرة كان جواباً لحكم أخروي مستقبل، ليس في الحال منه إلا زعم مجرد واعتقاد أن الأمر سيكون كذلك، فناسبه النفي بحرف يدل على نفي المستقبل وهو (لن). ولن يفعل جواب سيفعل. ولما كان الوارد في سورة الجمعة جواباً لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وهذا حكم دنيوي ووصف للحال لا للمستقبل ناسبه النفي بـ(لا) التي هي لنفي ما يأتي من غير تخصيص إلا بغير الماضي(269).

*

النهي بـ(لا):

(لا) موضوعة لطلب ترك شيء(270)، ويُنهى بها الحاضر والغائب ويأتي المضارع بعدها للاستقبال(271). وجاءت في التعقيب على تركيب واحد هو:

- لا + المضارع المسند للمخاطب.

قال تعالى مخاطباً النبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿قل ياأهلَ الكتاب لستمْ على شيءٍ حتى تُقيموا التوراةَ والانجيلَ وماأُنزلَ إليكم من ربِّكم وليزيدَنَّ كثيراً منهم ماأُنزل إليك من ربِّك طُغياناً وكفراً فلا تأسَ على القوم الكافرين﴾ المائدة/68.

النهي عن الحزن على القوم الكافرين، وهو يدل على تسليته، لأنَّ تكذيب الأنبياء عادة الكافرين ودأبهم(272). ولأن ضرر ذلك راجع إليهم، لاإلى النبي، وفي المؤمنين غنى عنهم(273).

ومثله قوله تعالى في المنافقين: ﴿ومامنعهم أنْ تُقْبَلَ منهم نفقاتُهم إلا أنّهم كفروا با للهِ وبرسولهِ ولايَأتون الصلاةَ إلا وهم كُسالى ولايُنْفِقون إلا وهم كسالى. فلا تُعجبْك أموالُهم ولاأولادُهم إنّمَا يُريد ا للهُ لِيعذّبَهم بها في الحياةِ الدنيا وتزهَقَ أنفسُهم وهم كافرون﴾ التوبة/54-55.

والنهي عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم معلل بإرادة ا لله سبحانه تعذيبهم بها، وبالتشديد عليهم في التكليف، وأمرهم بالإنفاق في الزكاة والغزو، فيؤدونها على كره منهم ومشقة.(274)

*

الوصل بالواو مع الأسماء الحسنى:

يلفت النظر في القرآن الكريم كثرة التعقيب بالوصل بالواو مع اسم من الأسماء الحسنى، والوصل بالواو شعبة من الفصل والوصل، وهو التوسط بين حالتي كمال الانقطاع وكمال الاتصال.(275) وفيه أن يغاير ماقبل العاطف مابعده، لكن بينهما نوع ارتباط.(276) وقد جاءت منه تراكيب كثيرة منها:

- ﴿والله خبير بما تعملون﴾.

قال تعالى: ﴿أم حسبتم أنْ تُترَكوا ولَّما يعلمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دونِ اللهِ ولارسولِهِ ولاالمؤمنين وليجةً واللهُ خبيرٌ بما تعملون﴾ التوبة/16.

أي: أن الله عليم بأعمالكم فيجازيكم عليها.(277) وجاء التركيب على الأصل، بتأخير الجار والمجرور (بما تعملون) عن (خبير)، والدلالة العامة للتعقيب هي الوعد والوعيد، حيث أن الله سبحانه يجازي كل إنسان بما عمل.

- ﴿والله بما تعملون خبير﴾.

قال تعالى: ﴿ولايحسَبَنَّ الذين يبخَلون بما آتاهم اللهُ من فضلِهِ هو خيراً لهم بل هو شرٌّ له سيُطَوَّقون مابَخِلوا به يومَ القيامة ولله مِيراثُ السمواتِ والأرضِ واللهُ بما تعلمون خبير﴾ آل عمران/180.

وفي هذا التعقيب تأكيد للوعد والوعيد في إنفاق المال لإحراز الثواب والأجر والسلامة من الإثم والوزر.(278) وجاء التأكيد من تقديم الجار والمجرور على عامله، ومن الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الحضور في (تعملون)، وهذا أبلغ في الوعيد.(279)

- ﴿والله على كل شيء قدير﴾.

وقد نجد التعقيب يتكرر في موضع من السورة، وهو يحمل الدلالة نفسها، وهذه الدلالة تلائم القضايا التي أعقبتها، ومن هذا دلالة قوله تعالى ﴿والله على كل شيء قدير﴾ على قدرة الله سبحانه على الشيء وضده.(280)

ومن هذا قوله تعالى في سورة المائدة في خطاب أهل الكتاب: ﴿ياأهلَ الكتابِ قد جاءكم رسولُنا يُبيِّنُ لكم كثيراً مما كنتم تُخفون من الكتبِ ويعفو عن كثيرٍ قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مبين. يَهدي به اللهُ مَن اتَّبعَ رضوانَه سُبُلَ السلام ويُخرِجُهم من الظلماتِ إلى النورِ بإذنِهِ ويَهديهم إلى صراطٍ مستقيم. لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريم قلْ فمن يملكُ من اللهِ شيئاً إنْ أرادَ أنْ يُهلِكَ المسيحَ ابنَ مريمَ وأُمَّهُ ومَنْ في الأرض جميعاً و لله ملكُ السمواتِ والأرضِ ومابينَهما يخلقُ مايشاءُ واللهُ على كلِّ شيءٍ قدير﴾ المائدة/15–17.

فدلالة التعقيب هنا تتجلى في أن الله قادر على الشيء وضده. أي على أن يخلق من ذكر وأنثى، ويخلق من أنثى من غير ذكر، كما خلق عيسى، ويخلق من غير ذكر وأنثى، كما خلق آدم وغير ذلك(281).

وقال تعالى بعد هذا، في خطاب أهل الكتاب أيضاً: ﴿ياأهل الكتابِ قد جاءكم رسولنا يُبيِّن لكم على فترةٍ من الرسلِ أنْ تقولوا ماجاءنا من بشيرٍ ولانذيرٍ فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ واللهُ على كل شيءٍ قدير﴾ المائدة/19.

ودلالة التعقيب على قدرة الله تعالى على مجازاة المبشرين والمنذرين، وعلى إرسال الرسل وعدمه، وعلى الاستمرار في إرسال الرسل، والفترة في الإرسال وغير ذلك، واضحة جلية، فالمفهوم منه الدلالة على الشيء وضده.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ألمْ تعلمْ أنَّ الله له ملكُ السمواتِ والأرض يُعذّبُ منْ يشاءُ ويغفرُ لمن يشاءُ والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ المائدة/40.

حيث أن قدرة الله تتجلى في عذاب من يشاء والمغفرة لمن يشاء، وهو على أي شيء غير هذا قدير.

- ﴿والله عنده...﴾.

وعلى هذا التركيب جاء قوله تعالى: ﴿زُيِّن للناسِ حبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنْطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسوَّمةِ والأنعامِ والحرثِ ذلكَ مَتاعُ الحياةِ الدنيا والله عندَهُ حسنُ المآبِ﴾ آل عمران/14.

وقوله تعالى: ﴿إنّما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ والله عندَه أجرٌ عظيم﴾ التغابن/15.

وقوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربُّهم إنّي لاأُضيعُ عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضُكم من بعضٍ فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأُوذُوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلُوا لأُكفرَنّ عنهم سيئاتِهم ولأُدخِلنّهم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ثواباً من عندِ اللهِ والله عندَهُ حسنُ الثوابِ﴾ آل عمران/195.

وفي هذا التركيب تقدم الظرف (عنده) على المبتدأ المعرف، وهذا التقديم يفيد الاختصاص. أي أن الله سبحانه هو الذي يختص بحسن الثواب أو المآب أو الأمر العظيم، وبقدرته وفضله، لايثيبه غيره ولايقدر عليه، وهذا كما يقول الرجل: عندي ماتريد. يريد اختصاصه بملكه، وإن لم يكن بحضرته(282).

- ﴿والله...﴾.

يأتي لفظ الجلالة ظاهراً على الأصل في تركيب التعقيب، وهذا التعقيب مرتبط بقضيته، فيكون بين التركيب والقضية رباط ظاهر، كما في قوله تعالى:

﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ ومامن إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ وإنْ لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم. أفلا يتوبون إلى اللهِ ويستغفرونه والله غفورٌ رحيم﴾ المائدة/73-74.

فإظهار لفظ الجلالة (الله) لقصد التعظيم، وهذا التعظيم قد يأتي أيضاً من خروج التعبير عن الأصل. بيان هذا أن الأصل أن يأتي الاسم ظاهراً أولاً، ثم يأتي مضمراً ثانيا، للاستغناء عنه بالظاهر السابق. ولكن قد يكون التعبير على خلاف ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ماعمِلت من خير مُحْضَراً وماعمِلتْ من سوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بينَها وبينَه أمداً بعيداً ويحذِّرُكم الله نفسَهُ والله رؤوفٌ بالعباد﴾ آل عمران/30.

فالأصل أن يكون: وهو رؤوف بالعباد، لكنه عدل عن الضمير إلى الظاهر لقصد التعظيم(283). والتعظيم ملائم للمعنى، حيث أن تحذيره سبحانه نفسه، وتعريفه حالها من العلم والقدرة، ومن الرأفة العظيمة بالعباد، لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه، دعاهم ذلك إلى طلب رضاه، واجتناب سخطه(284).

- ﴿وهو... ﴾.

وجاء التعقيب على الأصل، اي أن يضمر الاسم بعد أن يتقدمه ظاهر، فيعود الضمير على الظاهر، في قوله تعالى: ﴿كيفَ تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يُميتكم ثم يُحييكم ثم إليه تُرجَعون. هو الذي خَلَقَ لكم مافي الأرضِ جميعاً ثم استوى إلى السماءِ فسوَّاهن سبعَ سمواتٍ وهو بكلِّ شيءٍ عليم﴾ البقرة/28-29.

فقد عاد الضمير (هو) على لفظ الجلالة (الله) في أول القضية، ويلاحظ أن عود الضمير على الظاهر لالبس فيه، فالكلام متجه إلى (الله) سبحانه لبيان عظيم قدرته، وعظيم خلقه.

في صدر سورة الحديد تناوب الاظهار والاضمار في لفظ الجلالة تناوباً يبين كلا منهما على أوضح تبيين، فقد بُدئت السورة بالاظهار وعُقبت القضية الأولى بالاضمار. قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لله مافي السمواتِ والأرضِ وهو العزيز الحكيم﴾ الحديد/1.

واستمر السياق على الإضمار واستمر التعقيب كذلك: ﴿له ملكُ السمواتِ والارضِ يُحيي ويُميتُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير. هو الأولُ والآخِرُ الظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شيءٍ عليم. هو الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ثم استوى على العرشِ يعلمُ مايَلَجُ في الأرض ومايخرجُ منها وماينزلُ من السماء ومايعرِجُ فيها وهو معكم أين ماكنتم﴾.

وعقبت القضية بالظاهر: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ الحديد/2-4.

وسبب الإظهار هنا، هو التنبيه على علة الحكم(285). وعلة الحكم هي اختصاص الله سبحانه بعلم مايعملون. ومناسبة التعقيب للقضية أن الله سبحانه بصير بما تعملون، من خير أو شر(286). كما أنه سبحانه بكل شيء عليم، ويعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها...

- ﴿... سميع عليم﴾.
- ﴿... السميع العليم﴾.
- ﴿... هو السميع العليم﴾.

تتبين دلالات القصر أو عدمه، وكذلك توكيد القصر، في التعقيب عندما نأخذ تعقيباً محدداً، استعمل عارياً عن القصر، وبالقصر، وبتوكيده، وذلك هو التعقيب المشتمل على (سميع عليم). فقد قال تعالى في قضية الأعراب: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم﴾ التوبة/98–100.

وجاء التعقيب ﴿والله سميع عليم﴾ عارياً عن القصر، والمعنى أنه سبحانه (سميع) لمقالاتهم (عليم) بنياتهم، لايخفى عليه شيء من حالاتهم(287).

وقال تعالى في بيان ملكوته: ﴿قُلْ لمنْ مافي السموات والأرضِ قلْ لله كَتَبَ على نفسه الرحمةَ ليجمَعَنَّكم إلى يومِ القيامةِ لاريبَ فيه الذين خَسِروا أنفسَهم فهم لايؤمنون. وله ماسَكَنَ في الليلِ والنهارِ وهو السميعُ العليم﴾ الأنعام/12–13.

فكان التعقيب بـ(وهو السميع العليم) بالقصر. إذ يفيد التعريف هنا، معنى القصر، وهو أنه يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء(288). وهذا المعنى يختلف عما جاء في التعقيب السالف، فهنا أنه سبحانه الذي يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم. وهناك أنه يسمع وقد يسمع غيره، ويعلم وقد يعلم غيره. ولاشك في أن القضية هي التي تحدد تركيب التعقيب ودلالته، فاختلف التركيبان لاختلاف القضيتين.

وقال تعالى في قضيةالكافرين: ﴿لقد كَفَرَ الذين قالوا إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ ومامن إلهٍ إلا الهٌ واحدٌ .... ماالمسيحُ ابنُ مريمَ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ وأُمُّهُ صدِّيقةٌ كانا يأكلانِ الطعامَ انظر كيفَ نبيِّنُ لهم الآياتِ ثم انظر أنّى

يُؤفِكون. قل أتعبدون من دونِ الله مالايملكُ لكم ضُرّاً ولانفعاً والله هو السميع العليم﴾ المائدة/73–76.

وجاء التعقيب بتوكيد القصر، باستعمال الضمير (هو). والمعنى: أتشركون بالله ولاتخشونه وهو الذي يسمع ماتقولون، ويعلم ماتعتقدون، فهو الذي يصح منه أن يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم(289). إن التأكيد على قصر صفتي السمع والعلم عليه سبحانه، يراد به الرد على من عبد إلهاً من دون الله، فما عُبد من دونه سبحانه، لايتصف بهاتين الصفتين. أما الله فهو، وحده، الذي يتصف بهما. ويلاحظ أن سياق الرد على هؤلاء الكافرين هو الذي أوجب تأكيد القصر، وليس هذا في التعقيبين السالفين، بل إن كل قضية حتمت شكل التركيب الذي يناسبها.

– ﴿والله يشهد ... ﴾.

الأصل في الجملة التي مسندها فعل، أن يتقدم الفعل. فإن تقدم المسند إليه نُظُر في سبب ذلك، فالأصل أن يقال نحو: حضر محمد وقدم خالد. بتقديم المسند أي الفعل. فإن قيل: محمد حضر وخالد قدم. نُظر في سبب تقديم المسند إليه. أي المبتدأ أو الفاعل في الأصل. الفرق بين التعبيرين أنك إذا قلت: حضر محمد. قلت ذلك والمخاطب خالي الذهن. ليس في ذهنه شيء عن هذه المسألة، فأخبرته إخباراً ابتدائياً. وأما إذا قلت: محمد حضر. فقدمت الفاعل. فلا يكون ذلك إلا لغرض(290).

وقد جاء تقديم لفظ الجلالة، وهو مسند إليه، في التعقيب، في قوله تعالى في قضية اتخاذ الكافرين مسجداً لهم: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً

وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسولهَ من قبلُ وليحلفُنّ إنْ أردنا إلاّ الحُسنى والله يشهد أنّهم لكاذبون﴾ التوبة/107.

والتقديم هنا، لغرض التعظيم. ووجه ملاءمة دلالة التعظيم للقضية أن هؤلاء يحلفون كاذبين، على أنهم ماأرادوا ببناء المسجد إلا الفعلة الحسنى، من التوسعة على أهل الضعف والعلة من المسلمين، فاطلع الله نبيه على فساد طويتهم وخبث سريرتهم، فقال: ﴿والله يشهد أنهم لكاذبون﴾ وكفى لمن يشهد الله سبحانه بكذبه خزياً(291).

وقد يكون الفعل منفياً، فيؤدي تقديم المسند إليه ماأداه في الاثبات، فإذا قلت: أنت لاتحسن هذا. كان أشد لنفي إحسان ذلك عنه، من أن تقول: لاتحسن هذا. ويكن الكلام في الأول مع من هو أشد إعجاباً بنفسه وأعرض دعوى في أنه يحسن(292).

ومنه في التعقيب قوله تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويُربي الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم﴾ البقرة/276.

أي: والله يبغض كل كفار لنعمته باستحلال الربا، منهمك في غوايته، متمادٍ في إثمه(293). فنفي حب الله تعالى لكل كفار أثيم جاء على وجه الشدة والتوكيد، وقد أفاده تقديم المسند إليه على الفعل المنفي.

في سورة آل عمران تعاقب إثبات الفعل ونفيه، بعد قضايا مختلفة تضمنتها السورة، فقد قال تعالى في أمر المؤمنين بالمغفرة: ﴿وسارِعُوا إلى مغفرةٍ من ربّكم وجنةٍ عَرضُها السمواتُ والأرضُ أُعدّت للمتقين. الذين يُنفِقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظَ والعافينَ عن الناسِ والله يُحِبُّ المحسنين﴾ آل عمران/133-134.

فأسند الفعل (يحب) إلى الله تعالى على وجه التعظيم، والمعنى: من فعل ذلك فهو محسن، والله يحبه بإيجاب الثواب له(294). وإذا كانت الألف واللام في (المحسنين) للجنس، فإن المعنى يتناول كل محسن، ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، وإذا كانت للعهد، فتكون إشارة إلى هؤلاء فقط(295).

وقال تعالى بعدها: ﴿ولاتهنُوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلَون إنْ كنتم مؤمنين. أن يَمْسِسْكم قَرْحٌ فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلُه وتلك الأيام نداولها بين الناس وليَعلمَ اللهُ الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداءَ واللهُ لايحبُّ الظالمين﴾ آل عمران/139-140

والتعقيب بنفي الفعل المسند إلى لفظ الجلالة يؤدي معنى أن الله لايحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان، المجاهدين في سبيل الله الممحصين من الذنوب(296).

وقال تعالى بعدها: ﴿وكأينْ مِنْ نبيٍّ قاتلَ معه ربِّيون كثيرٌ فما وَهِنوا لما أصابهم في سبيلِ اللهِ وماضعفوا ومااستكانوا واللهُ يُحِبُّ الصابرين﴾ آل عمران/146.

واسناد حب الصابرين لله سبحانه يفيد التعظيم،وهو مرتبط بسياق الجهاد الذي عليه الآيات، فالله يحب الصابرين في الجهاد، وفي هذا حث للمسلمين على الجهاد بعد الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- فقد كان واجباً عليهم أن يقاتلوا على أمر نبيهم وألاّ يرجعوا عن دينهم(297).

وقال تعالى بعدها: ﴿وماكان قولُهم إلاّ أنْ قالوا ربَّنا اغفرْ لنا ذنوبَنا واسرافَنا في أمرِنا وثبّتْ أقدامَنا وانصرْنا على القومِ الكافرين. فآتاهم اللهُ ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثوابِ الآخرة واللهُ يُحِبُّ المحسنين﴾ آل عمران/147-148.

وعُقبت باسناد حب المحسنين إليه سبحانه، على معنى التعظيم أيضاً.

- ﴿وكفى با لله ... ﴾

يتكون هذا التركيب من فعل (كفى) وفاعل، سبقته باء زائدة للتوكيد، واسم منصوب على التمييز. إن الدلالة العامة لهذا التركيب هي التوكيد الذي أفادته زيادة الباء في فاعل (كفى) إيذاناً بأن الكفاية من ا لله ليست كالكفاية من غيره في عظم المنزلة، فضوعف لفظها ليتضاعف معناها(298).

وجاء التعقيب بـ(كفى) في سورة النساء بنسبة عالية. إذ بلغت إحدى عشرة مرة في قضايا مختلفة، نعرض منها قوله تعالى في أموال اليتامى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بَلَغوا النّكاحَ فإنْ آنستم منهم رُشْداً فادفعوا إليهم أموالَهم ولاتأكلوها إسرافاً وبِداراً أنْ يكبروا ومَنْ كان غنياً فليستعففْ ومن كان فقيراً فليأكلْ بالمعروفِ فإذا دفعتم إليهم أموالَهم فاشهدوا عليهم وكفى با للهِ حسيباً﴾ النساء/6.

ومعنى التعقيب أن ا لله سبحانه كافٍ في الشهادة عليكم بالدفع أو القبض أو أنه محاسب، فعليكم بالصدق وإياكم والكذب(299).

وقال تعالى في اليهود: ﴿ألم ترَ إلى الذين أوتو نصيباً من الكتابِ يَشْترون الضلالةَ ويُريدون أنْ تَضلوا السبيلَ. وا للهُ أعلمُ بأعدائِكم وكفى با للهِ ولياً وكفى با لله نصيرا﴾ النساء/44-45.

ومعنى التعقيب أن ولاية ا لله لكم ونصرته إياكم تغنيكم عن نصرة هؤلاء اليهود، ومن جرى مجراهم، ممن تطمعون في نصرته(300). ويلاحظ أن تكرار (كفى) أفاد التفصيل في الاكتفاء با لله سبحانه، فهو الكافي في الولاية،

وهو الكافي في النصرة، ولايكون هذا المعنى لو كان التركيب: وكفى با لله ولياً ونصيراً.

وقال تعالى في اليهود أيضاً: ﴿ألم ترَ إلى الذين يزكّون أنفسَهم بل الله يُزكّي مَنْ يشاءُ ولايُظلَمون فتيلا. انظر كيفَ يَفترون على اللهِ الكَذِبَ وكفى به إثماً مبيناً﴾ النساء/49-50.

الفاعل في (وكفى به اثماً) يعود على ماتقدم من تزكية اليهود أنفسهم، وافترائهم على الله الكذب. والدلالة العامة هي توكيد الكفاية من الاثم، فكأن المعنى: ليس يحتاج إلى حال أعظم منه(301).

وقال تعالى فيهم أيضاً: ﴿فمنهم مَنْ آمنَ به ومنهم مَنْ صَدَّ عنه وكفى بجهنّمَ سعيرا﴾ النساء/55.

معنى القضية أن من هؤلاء من آمن بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ومنهم من صدَّ عنه، فالكفرة منهم أشد تكذيباً له، وأبعد مما جاءهم به من الهدى والحق المبين، وجاء التعقيب بالتوعد لهم ﴿وكفى بجهنم سعيرا﴾ أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله(302).

- ﴿والله أشد... ﴾.

جاء الإخبار عن الله سبحانه باسم التفضيل في التعقيب كثيراً، ومن معاني مجيئه:

1- الدلالة على المفاضلة. قال تعالى: ﴿فقاتلْ في سبيلِ الله لاتُكلّفُ إلاّ نفسَك وحرّض المؤمنين عسى اللهُ أنْ يكفَّ بأسَ الذين كفروا واللهُ أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلا﴾ النساء/84.

فالتعقيب (وا لله أشد..) يدل على أن ا لله سبحانه أشد نكاية وعقوبة في الأعداء منكم(303). وأفاد اسم التفضيل المفاضلة بين شيئين: بأس الذين كفروا وبأس ا لله.

2- الدلالة على الزيادة في أصل الفعل. قال تعالى: ﴿قل لو أنَّ عندي ماتستعجلون به لقُضي الأمرُ بيني وبينكم وا للهُ أعلمُ بالظالمين﴾ الأنعام/58.

فهو سبحانه أعلم بالظالمين ووقت عذابهم ومايصلحهم(304). مما لايكون لبشر، وقد دلَّ الإخبار عن ا لله باسم التفضيل أن اسم التفضيل لايراد به المفاضلة، بل يراد به الزيادة في أصل الوصف، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولاتقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغَ أشدّه﴾ الأنعام/152. فليس المقصود التفضيل على شيء معين، بل المقصود أن يقربوا مال اليتيم بمزيد الحسن(305).

على أن الدلالة على المفاضلة هي المطلوبة فيما استعمل من اسم التفضيل مضافاً إلى معرفة، كما في قوله تعالى: ﴿فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفرَ ... ومكروا ومكرَ ا للهُ وا للهُ خيرُ الماكرين﴾ آل عمران/52-54.

أي: أقواهم مكراً، وأنفذهم كيداً ، وأقدرهم على العقاب من حيث لايشعر المعاقب(306).

وقوله تعالى: ﴿واتّبعْ مايُوحَى إليك واصبرْ حتى يحكمَ ا للهُ وهو خيرُ الحاكمين﴾ يونس/109.

وإن دلالة اسم التفضيل لتتضح عند المقارنة بينه وبين صيغة أخرى تشترك معها في المعنى العام، كما في :

(أسرع الحاسبين)و (سريع الحساب).

قال تعالى: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكرا فمن الناس من يقولُ ربَّنا آتنا في الدنيا وما في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار. أولئك لهم نصيبٌ مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ البقرة/200—202.

ومعنى التعقيب أن الله سريع المجازاة للعباد على أعمالهم، وأن وقت الجزاء قريب(307). ولذلك جاء بسريع. ومعناه القصير المدة، وهو صيغة مبالغة، ووجه ملاءمة صيغة المبالغة للسياق أن الكلام في مجازاة الناس، وهؤلاء منهم من يريد الجزاء في الدنيا، وهو يستبعد جزاء الآخرة، ومنهم من يريد جزاء الدنيا والآخرة، ولما كان هؤلاء هم المفضلون، لإيمانهم بالآخرة، وأخذهم العدة لها، فقد صار لهم جزاؤهم قريباً سواء ما كان في الدنيا، وما سيكون في الاخرة.

وقال تعالى في بيان وحدانيته وقدرته: ﴿وهو القاهرُ فوقَ عبادِهِ ويُرسِلُ عليكم حَفَظَةً حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفتْه رُسُلُنا وهم لايُفرِّطون. ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ ألا له الحكمُ وهو أسرعُ الحاسبين﴾ الأنعام/61—62.

والتعقيب باسم التفضيل يفيد المفاضلة بينه تعالى وبين أي حاسب. وتتضح المفارقة في تبيّن معاني الآيات، فهي في سياق وصف قدرة الله سبحانه وامتلاكه الحكم يوم القيامة، فهو له القضاء يوم لايملك الحكم في ذلك اليوم سواهز وقد يملك الحكم في الدنيا غيره. (وهو أسرع الحاسبين﴾ أي إذا حاسب فحسابه سريع(308). على معنى أنه تعالى يحاسب أهل الموقف في وقت واحد، لايشغله حساب أحد عن حساب غيره، فيلائم هذا المعنى اسم التفضيل (اسرع) لأن الله سبحانه لايحاسب حسابه أحد، بالكمية ولابالكيفية.

— ﴿والله ولي ... ﴾.

يقسم العلماء الإضافة على ضربين: محضة، مثل: كتاب محمد. وغير محضة، مثل إضافة اسم الفاعل أو المفعول إلى معمولهما، إذا كانا دالين على الحال أو الاستقبال. وكذا إضافة صيغ المبالغة والصفة المشبهة مطلقا(309).

وقد جاء الإخبار بالأضافة المحضة في قوله تعالى: ﴿ياأهل الكتاب لم تحاجّون في ابراهيم ... إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ آل عمران/65-68.

فالخبر (ولي)، وهو فعيل، صفة مشبهة مضافة إلى معمولها (المؤمنين) وتفيد هذه الإضافة الدلالة على أمرين:

الأول: احتمال معنى ولاية المؤمنين في الحال أو الاستقبال.

الثاني: أن ولاية المؤمنين لله سبحانه، على وجه الثبوت والدوام لا الحدوث والتجدد. وهذا هو الفرق بين إعمال الصفة المشبهة وإهمالها.

ومثله قوله تعالى في جدال الكافرين: ﴿ ويُسبِّحُ الرعدُ بحمدِهِ والملائكةُ من خيفتِه ويُرسِلُ الصواعقَ فيصيبُ بها من يشاءَ وهم يجادلون في اللهِ وهو شديدُ المِحَالِ﴾ الرعد/13.

والمحال أي المماحلة، وهي شدة المماكرة والمكايدة، والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه(310). فأضيفت الصفة المشبهة (شديد) إلى معمولها (المحال) للدلالة على اتصاف الله سبحانه بشدة الأخذ، والقوة في جميع الأحوال، على وجه الثبوت والدوام.

- ﴿وكان الله... ﴾.

لـ(كان) مع لفظ الجلالة معنى يختلف عما لها مع غيره، فهي تعبر عن الوجود في زمان مضى على سبيل الإبهام، وليس فيها دليل على عدم سابق،

ولاعلى انقطاع طارئ(311). ومن هذا قوله تعالى: ﴿لايستوي القاعدون من المؤمنين غيرَ أولي الضرر والمجاهدون في سبيلِ الله بأموالِهم وأنفسِهم فضَّلَ الله المجاهدين بأموالِهم وأنفسِهم على القاعدين درجةً وكلاً وَعَدَ الله الحسنى وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً وكان الله غفوراً رحيماً﴾ النساء/95-96.

فالتعقيب بالصفات الالهية (غفور رحيم) متناسب مع ماجاء في القضية من بيان خلوص النعيم، بأنه لايشوبه غم مما كان من المؤمن من الذنوب، بل غفر الله له ذلك، ثم رحمه بإعطائه النعم والكرامات، وجاء التعقيب ببيان أنه سبحانه لم يزل غفاراً لذنوب، صفوحاً لعبيده من العقوبة عليها، رحيماً بهم، متفضلاً عليهم(312).

وكذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إن الذين توفاهم الملائكةُ ظالمي أنفسِهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مُسْتضعفين في الأرضِ قالوا ألم تكنْ أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنَّمُ وساءت مصيرا. إلاّ المستضعفين من الرجالِ والنساء والولدانِ لايستطيعون حيلةً ولايهتدون سبيلا. فاولئك عسى الله أنْ يعفوَ عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾ النساء/97-99.

معنى التعقيب أنه لم يزل ذا صفح بفضله عن ذنوب عباده، بتركه عقوبتهم على معاصيهم، ساتراً عليهم ذنوبهم بعفوه لهم عنها(313).

إن علاقة التعقيب بـ(كان) في هذين المثلين، وفي غيرهما، وهو كثير في القرآن الكريم، بالقضية، يوضح دلالة (كان) على مجرد الوجود والكون. وجاء التعقيب بـ(كان) في مواضع أخرى، ولها دلالة على المستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين أوتوا الكتابَ آمنوا بما نزّلنا مُصدِّقاً لما معكم من قبلِ أنْ

نطمِسَ وجوهاً فنردَّها على أدبارِها أو نلعنَهم كما لعنَّا أصحابَ السبتِ وكان أمرُ الله مفعولا﴾ النساء/47.

أي: أن أي أمر من أمور الله سبحانه، من وعد أو وعيد أو خبر، فإنه يكون على ماأخبر به(314). فلابد أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا(315).

ومن هذا التعقيب بـ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ فإنه مرهون بالمستقبل، ويأتي في سياق العذاب الذي أعده الله سبحانه في الآخرة، قال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلاّ أنْ تكونَ تجارةَ عن تراضٍ منكم ولاتقتلوا أنفسكم إنَّ الله كان بكم رحيما. ومَنْ يفعلْ ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليهِ ناراً وكان ذلك على اللهِ يسيرا﴾ النساء/29-30.

ومثله قوله تعالى: ﴿إنَّ الذين كفروا وظلموا لم يكنِ الله ليغفرَ لهم ولاليهديَهم طريقاً إلاّ طريقَ جهنَّمَ خالدين فيها أبداً وكان ذلك على اللهِ يسيرا﴾ النساء/169.

*

هوامش (التعقيب والتركيب والدلالة)

1- مغني اللبيب 383.

2- الجنى الداني : 272 - 273

3- ملاك التأويل 1 : 313.

4- البرهان 4 : 261 ومغني اللبيب 95 - 96

5- الكشاف 2 : 210.

6- مجمع البيان 5 : 150.

7- معاني النحو 1 : 117.

8- معترك الأقران 2 : 636

9- مجمع البيان 8 : 489.

10-الكشاف 2 : 14.

11-نفسه 2 : 406

12-مجمع البيان 6 : 291.

13-معاني النحو 3 : 102.

14-مجمع البيان 2 : 309.

15-الايضاح 1 : 18.

16-مجمع البيان 2 : 309.

17-الكشاف 3 : 465.

18-معاني النحو 1 : 351

19-الكشاف 1 : 180 - 181.

20-حاشية الشريف الجرجاني على الكشاف 1 : 181.

21–معاني النحو 1 : 59.

22–ملاك التأويل 1 : 179.

23–الكشاف 2 : 271 – 272.

24–نفسه 2 : 271.

25–معاني النحو 2 : 592.

26–معترك الأقران 1 : 627.

27–لسان العرب (بعد) ومجمع البيان 5 : 186.

28–الإيضاح 1 : 130.

29–البرهان 2 : 399.

30–نفسه 2 : 339 – 340.

31–مجمع البيان 7 : 49.

32–الكشاف 4 : 23.

33–معاني النحو 4 : 608.

34–مجمع البيان 4 : 410

35–معاني النحو 4 : 608.

36–مجمع البيان 2 : 497.

37–البرهان 2 : 351.

38–الكشاف 2 : 225.

39–مجمع البيان 8 : 498.

40–ملاك التأويل 2 : 883.

41–مجمع البيان 6 : 521.

42–نفسه 5 : 147.

43–البرهان 2 : 351.

44–معجم المصطلحات البلاغية 1 : 313.

45–البرهان 2 : 361.

46–مجمع البيان 2 : 422.

47–نفسه 10 : 344.

48–نفسه 10 : 457.

49–نفسه 3 : 205.

50–الكشاف 3 : 515.

51–مجمع البيان 4 : 283.

52–ملاك التأويل 1 : 433.

53–مجمع البيان 4 : 335.

54–نفسه 4 : 416.

55–ملاك التأويل 1 : 433 –434.

56–مجمع البيان 5 : 98.

57–الكشاف 3 : 212.

58–نفسه 4 : 99.

59–معجم المصطلحات البلاغية 1 : 332.

60–البرهان 4 : 88.

61–الكشاف 4 : 218.

62–نفسه 4 : 269.

63–مجمع البيان 10 : 392.

64–البرهان 4 : 430.

65–الكشاف 1 : 421.

66–نفسه 3 : 294.

67–مجمع البيان 6 : 295.

68–الكشاف 3 : 415.

69–معاني النحو 4 : 631.

70–البرهان 2 : 357.

71–الكشاف 3 : 502.

72–مجمع البيان 9 : 62.

73–معاني النحو 4 : 628.

74–الكشاف 3 : 534

75–مجمع البيان 9 : 102

76–معاني النحو 4 : 628.

77–تفسير القرآن العظيم 2 : 568.

78–مجمع البيان 5 : 108.

79–الكشاف 4 : 226.

80–مجمع البيان 10 : 445.

81–نفسه 10 : 419.

82–نفسه 8 : 534.

83–البرهان 4 : 307.

84–ملاك التأويل 1 : 413.

85–معاني النحو 1 : 95.

86–نفسه 1 : 97.

87–مجمع البيان 8 : 315.

88–ملاك التأويل 1 : 424 – 426.

89–معاني النحو 1 : 98.

90–ملاك التأويل 1 : 238.

91–الكشاف 1 : 145 والانتصاف عليه.

92–البرهان 4 : 285.

93–الكشاف 3 : 501.

94–نفسه 2 : 563.

95–البرهان 3 : 28.

96–الكشاف 3 : 157.

97–نفسه 3 : 359.

98–نفسه 3 : 361.

99–معترك الأقران 1 : 441.

100–الكشاف 4 : 81.

101–نفسه 3 : 490.

102–نفسه 1 : 345 – 346.

103–آل عمران/ 160 والتغابن/13.

104–الكشاف 1 : 475 ومعاني النحو 3 : 102.

105–معترك الأقران 2 : 286.

106–مجمع البيان 1 : 99.

107–الكشاف 4 : 157.

108–الاتقان 1 : 156.

109–الكشاف 4 : 148.

110–معاني النحو 3 : 47.

111–معاني النحو 3 : 47.

112–الجنى الداني 547.

113–مجمع البيان 9 : 223.

114–ملاك التأويل 2 : 1068.

115–مغني اللبيب 228.

116–مجمع البيان 1 : 195.

117–معاني النحو 1 : 329.

118–الجنى الداني 527.

119–الكشاف 1 : 289.

120–نفسه 1 : 377.

121–معاني النحو 1 : 330.

122–الكشاف 1 : 229.

123–نفسه 1 : 461.

124–مجمع البيان 4 : 315.

125–المعجم المفهرس 648 – 649.

126–نفسه 526.

127–الفلاح الظفر. يقال لكل من عقل وحزم وتكافلت فيه خلال الخير: قد أفلح أي ظفر (معترك الأقران 2 : 482).

128–الكشاف 1 : 341.

129–مجمع البيان 2 : 562.

130–نفسه 2 : 278.

131–نفسه 2 : 281.

132–البرهان 4 : 254 – 255 ومعاني النحو 1 : 309.

133–الكشاف 4 : 208.

134–مجمع البيان 10 : 424.

135–نفسه 10 : 424.

136–معاني النحو 1 : 309.

137–ملاك التأويل 2 : 733.

138–أسرار التكرار 120.

139–الكشاف 3 : 223.

140–شرح ابن عقيل 2 : 602 وشذا العرف 25.

141–أسرار التكرار 121.

142–ملاك التأويل 1 : 933 – 934.

143–مجمع البيان 10 : 298.

144–معاني النحو 1 : 350.

145–الأسماء والصفات 77.

146–اشتقاق أسماء الله 182.

147–معاني الأبنية 94.

148–شذا العرف 50.

149–البرهان 2 : 520 – 521 و 523.

150–تفسير القرآن العظيم 1 : 610.

151–نفسه 3 : 666.

152–اشتقاق أسماء الله 212.

153–مجمع البيان 2 : 298.

154–نفسه 2 : 561.

155–نفسه.

156–البرهان 2 : 553.

157–اشتقاق أسماء الله 53 والبرهان 2 : 516.

158–الأسماء والصفات 50 – 51.

159–مجمع البيان والصفات 50 – 51.

160–مجمع البيان 3 : 37 و 6 : 427.

161–نفسه 4 : 483.

162–سورة يوسف/64 و92.

163–سورة الأنبياء/ 83.

164–اشتقاق أسماء الله 223.

165–الأسماء والصفات 46 – 47.

166–المعجم المفهرس 389.

167-مجمع البيان 8 : 396.

168-نفسه 7 : 76.

169-ملاك التأويل 1 : 222.

170-مجمع البيان 3 : 42.

171-الكشاف 1 : 342.

172-مجمع البيان 1 : 165.

173-الأسماء والصفات 44.

174-الكشاف 1 : 417.

175-مجمع البيان 1 : 185.

176-الأسماء والصفات 46.

177-نفسه 115.

178-تفسير القرآن العظيم 3 : 52.

179-نفسه 3 : 738.

180-نفسه 4 : 168 - 169.

181-الأسماء والصفات 20.

182-مجمع البيان 10 : 374.

183-الأسماء والصفات 145

184-معاني الأبنية 107.

185-البرهان 2 : 524.

186-الأسماء والصفات 45.

187-معاني الأبنية 117.

188–الكشاف 3 : 311.

189–مجمع البيان 3 : 40.

190–نفسه 3 : 149.

191–الأسماء والصفات 115.

192–مجمع البيان 3 : 45.

193–تفسير القرآن العظيم 3 : 601.

194–الأسماء والصفات 22.

195–نفسه 115.

196–اشتقاق أسماء الله 90.

197–تفسير القرآن العظيم 1 : 652.

198–نفسه 1 : 625.

199–مجمع البيان 3 : 16.

200–تفسير القرآن العظيم 2 : 211.

201–مشكل إعراب القرآن 281.

202–الكشاف 2 : 66.

203–نفسه 4 : 151.

204–ملاك التأويل 2 : 1096.

205–الكشاف 2 : 68.

206–نفسه 3 : 39 – 40.

207–البرهان 1 : 213.

208–معترك الأقران 2 : 20.

209–مجمع البيان 4 : 428.

210–أسباب النزول 31.

211–الكشاف 2 : 186.

212–مجمع البيان 7 : 44.

213–نفسه 5 : 98.

214–الجنى الداني 401 ومغني اللبيب 153.

215–الكشاف 1 : 292.

216–البرهان 4 : 291.

217–الكشاف 3 : 528.

218–مفتاح العلوم 152 والايضاح 1 : 145.

219–البرهان 4 : 468.

220–الكشاف 4 : 203.

221–نفسه 1 : 296.

222–مجمع البيان 10 : 324.

223–تفسير القرآن العظيم 3 : 327.

224–مجمع البيان 5 : 23 .

225–المقتصد في شرح الإيضاح 1 : 364.

226–مجمع البيان 2 : 413.

227–الكشاف 3 : 8.

228–الجنى الداني 525 ومغني اللبيب 249.

229–البرهان 4 : 338.

230–الكشاف 4 : 218 ومجمع البيان 10 : 438.

231–الكشاف 4 : 252.

232–نفسه 4 : 253.

233–البرهان 4 : 338.

234–مجمع البيان 10 : 438.

235–الكشاف 4 : 207.

236–نفسه 4 : 281.

237–معاني النحو 4 : 407.

238–الكشاف 4 : 231.

239–نفسه 2 : 232.

240–البرهان 4 : 339.

241–الكشاف 4 : 232.

242–البرهان 2 : 269 و371.

243–الجنى الداني 228.

244–البرهان 2 : 374.

245–مجمع البيان 1 : 286.

246–البرهان 2 : 423.

247–الكشاف 1 : 249.

248–البرهان 2 : 374.

249–مجمع البيان 1 : 91.

250–أسرار التكرار 26.

251–ملاك التأويل 1 : 190 – 191.

252–البرهان 2 : 373.

253–مجمع البيان 3 : 163.

254–نفسه 3 : 47.

255–الكشاف 1 : 527.

256–نفسه 1 : 441.

257–مجمع البيان 2 : 469.

258–المقتصد في شرح الإيضاح 1 : 363.

259–نفسه 1 : 371.

260–ملاك التأويل 1 : 321.

261–الكشاف 2 : 408.

262–البرهان 2 : 391.

263–نفسه 4 : 430 – 431.

264–الكشاف 2 : 397.

265–مجمع البيان 6 : 344.

266–الجنى الداني 303.

267–ملاك التأويل 1 : 227.

268–مغني اللبيب 323 ومعاني النحو 4 : 387.

269–البرهان 4 : 380.

270–مجمع البيان 3 : 224.

271–الكشاف 1 : 631.

272–مجمع البيان 5 : 39.

273–الإيضاح 1 : 159.

274–البرهان 4 : 125.

275–مجمع البيان 5 : 12.

276–نفسه 2 : 546.

277–الكشاف 1 : 484

278–نفسه 1 : 477.

279–نفسه 1 : 602.

280–نفسه 1 : 490.

281–البرهان 2 : 499.

282–الكشاف 1 : 423.

283–البرهان 2 : 507.

284–مجمع البيان 9 : 231.

285–نفسه 9 : 231.

286–الكشاف 2 : 8.

287–نفسه 1 : 635.

288–معاني النحو 2 : 466 وينظر دلائل الإعجاز 133.

289–مجمع البيان 5 : 73.

290–دلائل الإعجاز 138.

291–مجمع البيان 2 : 391.

292–نفسه 2 : 504.

293–الكشاف 1 : 464.

294–نفسه 1 : 466.

295–مجمع البيان 2 : 517.

296–البرهان 4 : 279 ومعترك الأقران 1 : 636.

297–الكشاف 1 : 503.

298–مجمع البيان 3 : 53.

299–نفسه 3 : 58.

300–تفسير القرآن العظيم 1 : 700.

301–مجمع البيان 3 : 83.

302–نفسه 4 : 310.

303–معاني النحو 4 : 685.

304–الكشاف 1 : 432.

305–مجمع البيان 2 : 298.

306–نفسه 4 : 313.

307–معاني النحو 3 : 118 و125.

308–الكشاف 2 : 353.

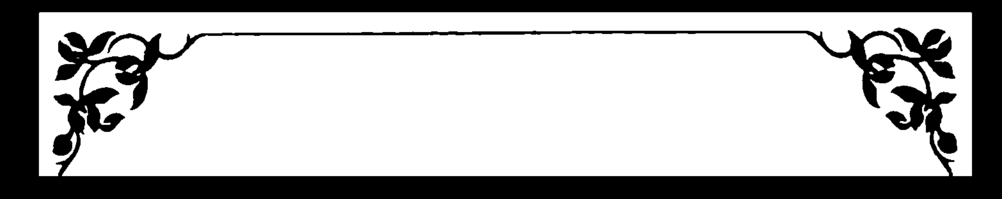
309–نفسه 1 : 454.

310–مجمع البيان 3 : 97.

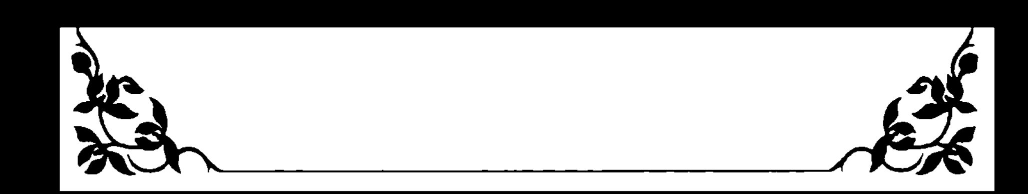
311–نفسه 3 : 99.

312–نفسه 3 : 56.

313–الكشاف 1 : 532.



الخاتمة



الخاتمــــة

للقرآن الكريم الأثر الأعظم في الحياة الثقافية للأمة العربيــة، فقـد كـان، ومايزال، المعين الثر الذي يمدها بـالغنى، ويحرّضهـا علـى الاستمرار في البحـث والتأمل. وكان لنا أن جلنا جولةً في رحابه نستكشف ظاهرة من ظواهره الجمـة، تلك هي أسلوب التعقيب، نسجل الآن أهم ماتوصلنا إليه فيها:

1) من خلال التحليل والاستقراء توصلنا إلى تأسيس مصطلح (التعقيب)، إنـه حكم إلهي على قضية ونتيجة لها ضمن السورة القرآنية.

2) يشكل التعقيب ظـاهرة أسـلوبية قرآنيـة، اختـص بهـا الأسـلوب المعجـز، واستثمرها في التعبير عن قضايا الرسالة المحمدية هدايةً وتشريعاً.

3) تنوّع استخدام التعقيب في القرآن، فعلى الرغم من أنه ظاهرة قارة فيـه إلا أن أشكاله مختلفة تركيباً ودلالة، وهذا الاختلاف متناسـب مـع السـياقات المختلفة التي يضمها البناء الموضوعي للقرآن.

4) استقرأنا السور القرآنية، وصنّفناها بحسب نـوع التعقيـب في كـل سـورة، فتبيّن أن القرآن سعى إلى تنويع التعقيب، فإذا نظرنا إلى القرآن كله وجدنا أنه لم يلتزم تعقيبـاً واحـداً في كـل سـورهِ، و لم يلـتزم، كذلـك، تعقيبـاص واحداً في كل قضية من قضاياه، وذلك مندرج ضمن سياسة التنويـع الـتي اتبعها القـرآن في أسـلوبه، وفي موضوعاتـه، ممـا شـكّل الخصـائص الكليـة للكلام الإلهي المعجز.

5) يفتح التعقيب أبواباً للبحث في القرآن الكريم من حيث ترصّد قضاياه، ومتابعتها زمنياً، لتبيّن الكيفية التي تطورت من خلالها، ولبيان علاقاتها مع كل سياق ترد فيه من بدء النزول إلى نهايته.

*

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الاتقان في علوم القرآن. جلال الدين السيوطي.تحـ. محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة. 1974م.
- أساس البلاغة. محمود بن عمرالزمخشري. مطبعة دار الكتب. القاهرة. 1972م.
- أسباب النزول. الواحدي النيسابوري. دار عالم الكتب. بيروت.
- أسرار التكرار في القرآن (البرهان في متشابه القرآن). تاج القرآء. الكرماني. تحـ. عبد القادر أحمد عطا. دار الاعتصام. القاهرة. 1977م.
- الأسماء والصفات. أحمد بن الحسين البيهقي. تحـ. محمد زاهر الكوثري. القاهرة. 1358 هـ.
- اشتقاق أسماء الله. عبدالرحمن بن اسحاق الزجاجي. بغداد.
- الإيضاح في علوم البلاغة. محمد بن عبدالرحمن القزويني. تحـ. لجنة من أساتذة الجامع الأزهر. مطبعة السنة المحمدية. القاهرة.
- بديع القرآن. ابن ابي الاصبع المصري. تحـ. حفني محمد شرف. مصر. 1957م.
- البرهان في علوم القرآن. محمد بن عبدالله الزركشي.تحـ. عبدالقادر أحمد عطا. بيروت.
- بصائر ذوي التمييز. محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. القاهرة.
- التعريفات. السيد الشريف الجرجاني. دار الشؤون الثقافية. بغداد.
- تفسير القرآن العظيم. اسماعيل بن عمر بن كثير. بيروت.

- الجنى الداني في حروف المعاني. محمد بن قاسم المرادي. تحـ. طـه محسـن. مؤسسة الكتب. جامعة الموصل. 1976م.
- خزانة الأدب. علي بن حجة الحموي. القاهرة. 1304هـ.
- دلائل الإعجاز. عبدالقاهر الجرجاني. تحـ. محمود محمد شـاكر. القـاهرة. 1984م.
- شذا العرف في فن الصرف. أحمد الحملاوي.القاهرة. 1986م.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك بهاء الدين عبدا لله بن عقيـل. مطبعـة السعادة القاهرة. 1964م.
- العين. الخليل بن أحمد الفراهيدي. تحـ. د. مهدي المخزومـي ود. ابراهيـم السامرائي. بغداد. 1980م.
- القاموس المحيط. محمد بن يعقوب الفيروزىبادي. مطبعة مصطفـى البـابي الحلبي. مصر. 1952م.
- الكشـاف عـن حقـائق التنزيل. محمـود بـن عمرالزمخشـري. دار المعرفـة. بيروت.
- لسان العرب. محمد بن مكرم بن منظور. دار صادر. بيروت. 1955م.
- مجمع البيان. الفضل بن الحسـن الطبرسـي. مطبعـة كتابفروشـي اسـلامية. طهران.
- مشـكل إعـراب القـرآن. مكـي بـن أبـي طـالب القيسـي. تحــ. د. حـاتم الضامن. بغداد. 1986م.
- معاني الأبنية في العربية. د. فاضل السامرائي. المكتبة العصرية. بغداد.
- معاني النحو. د. فاضل السامرائي. بيت الحكمة. العراق. 1990م.

- معترك الأقران في إعجاز القرآن. السيوطي. تحـ. علي محمد البجاوي. مصر. 1969م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. محمد فؤاد عبدالباقي. دار الكتب. مصر. 1945م.
- معجم المصطلحات البلاغية. د. أحمد مطلوب. بغداد. 1983م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ابن هشام الأنصاري. تحـ. محمد محيي الدين. القاهرة.
- المقتصد في شرح الإيضاح. عبدالقاهر الجرجاني. تحـ. كاظم بحر المرجان. عمان.
- مفتاح العلوم. يوسف بن أبي بكر السكاكي. مطبعة البابي الحلبي. مصر. 1937م.
- ملاك التأويل. الزبير الغرناطي. تحـ. د.محمود كامل أحمد. دار العروبة. بيروت. 1985م.
- الموافقات في أصول الشريعة. ابراهيم بن موسى الشاطبي، تعليق محمد عبدالله دراز. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة.

*

الفهــــرس

الموضــــوع	الصفحة

*